بوريس باسترناك

دكتور زيفاجو

رواية

ترجمة

مجموعة مترجمين

الكتاب: دكتور زيفاجو

الكاتب: بوريس باسترناك

ترجمة: مجموعة مترجمين

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

باسترناك ، بوريس
دكتور زيفاجو / بوريس باسترناك، ترجمة: مجموعة مترجمين
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٣٦١ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ٤٢ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٦٧٣ / ٢٠٢٠

دكتور زيفاجو

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

شخصيات الرواية

- انتيبوف (أو "باقل" أو "باشا" أو "باشكا") بن Antipov باقل وداريا فيليموفوفنا. مدرس ثم جنرال في الجيش الثوري الأحمر تحت اسم سترلينكوف "Atrelinkov".
- لارا أو "لاريسا" انتيبوفا Antipova بنت مدام جيشار Lara وزوجة انتيبوف، ولهما ابنة هي كاتيا Katia.
- فاسيا أو "بريكين"، فتى من العمال المجندين للسخرة، Vassia ورفيق الدكتور زيفاجو في سفره.
- مارينكا أو "مارينا" ابنة الحمال ماركل Markel وخليلة Marinka الدكتور زيفاجو الأخيرة.
- نيكا أو دودوروف، ابن فوضوي مشهور من الأميرة Nika نينا. وصديق زيفاجو.
- جاليولين ابن البواب هماز الدين وفاطمة. ميكانيكي ثم Galiouline جنرال في الجيش الأبيض مدة الثورة.
- جوردون أو "ميشا"، ابن محام يهودي وصديق زيفاجو Gordon.
- جروميكو أو "اسكندر"، أستاذ جامعي وزوج أنا Anna Gromika وله منها ابنة "انتونينا".
- تونيا أو انتونينا، زوجة زيفاجو. ولها منه طفلان Tania الصبي ساشا والفتاة ماشا.

- مدام جيشار أو أميلي، فرنسية أرملة مهندس بلجيكي Guichard وأم "روديا" Todia ولارا Lara.
- يوري أو يورا، وهو الدكتور زيفاجو. ابن رجل من Youri رجال الصناعة الأثرياء في سيبيريا، وأمه ماريا نيقولايفنا.
- جرانيا زيفاجو، أخو الدكتور غير الشقيق Grania.
- كولوجريفوف رجل ثري من رجال الصناعة، Kologrivov ووالد ناديا، وليبا، وهما زميلتا لارا في المدرسة.
- كومارفسكي محام وسياسي، عشيق مدام جيشار Komarovski وحاميها، ثم عشيق ابنتها لارا.
- نيقولاي نيقولايفيتش، أو العم كوليا، خال الدكتور Nicolai زيفاجو. كاتب فيلسوف تقدمي.
- ماشا تصغير ماريا، ابنة انتونينا والدكتور زيفاجو Macha.
- ساشا أو ساشنكا، أو شورى، تصغير اسكندر Sacha ابن انتونينا والدكتور زيفاجو وشقيق ماشا.
- سامديفيا توف موظف بلشفي كبير وحامي زيفاجو Samdeviatov.
- تانيا ابنة لارا انتيبوفا من الدكتور زيفاجو Tania.
- تيفرزين ابن عامل بالسكة الحديدية، وهو أيضاً Tiverzine عامل بها، ثم صار عضوا في محكمة ثورية مع صديقة انتيبوف.

الفصل الأول

اكسبريس الساعة الخامسة

كانوا يسيرون ولا يكفون عن المسير، وحينما يخفت صوت اللحن الجنائزي، كان يخيل إلى السامع أن وقع أقدام المشيعين، وسنابك الخيل، وهزيم الرياح، يتمم ما انقطع من ذلك اللحن القابض الحزين.

وكان المارة يتراجعون ليفسحوا الطريق لموكب الجنازة، وعيونهم في أكاليل الزهر يحصونها، وأيديهم ترسم على صدورهم ووجوههم علامة الصليب، واندس بعض أهل الفضول بين المشيعين ليعرفوا من الذي مات، فعلموا أنها زوجة زيفاجو، ففسر لهم ذلك سر فخامة الجنازة..!

وفي المقابر تمت مراسم الدفن بسرعة، وهيل التراب فوق التابوت، إلى أن تكونت منه ربوة، وعندئذ فوجئ الناس بغلام في نحو العاشرة من عمره يصعد إلى قمتها، وخطر لهم أن يريد أن يلقي مرثية على قبر والدته، ولكن الفتى الصغير أجال فيما حوله من مناظر واجمة نظرة مرتاعة، ثم أجهش بالبكاء، وقد غطى وجهه بكفيه الصغيرتين وأخذ الثلج يتساقط فوقه... فأسرع خاله، شقيق الفقيدة، "نيقولاي"، وهو كاهن ترك الكهنوت بمحض إرادته ليتفرغ لأمور الفكر والأدب، واقتاد ابن أخته المنتخب إلى خارج المقبرة.

واتجه الاثنان إلى الدير القريب من المقبرة، فأحسن الرهبان استقبالهما بحكم الزمالة القديمة، وفي نية الخال أن يأخذ ابن أخته في اليوم التالي إلى بلدة على نهر الفولجا ليصدر فيها مجلة تقدمية.

وأعد الخال تذكرتي السفر وحزم الحقائب.

واشتدت وطأة البرد في الليل، وكانت النافذة تطل على الجبانة التي ووريت فيها ماريا نيقولايفنا، واستيقظ الصغير "يورا" على صوت ارتطام الثلج بزجاج النافذة، فنهض والصق وجهه به، وتراءت له المقبرة مجللة بالثلج في ضوء القمر، والأشجار العارية من أوراقها تتناوح مع هبات الرياح الباردة، فكأنما الأرض أدرجت في أكفان بيضاء.

وارتعد يوري خوفا على أمه أن تزداد تحت طبقات الجليد المتراكمة غوصا في بطن الأرض، فيزداد ما بينها وبين الحياة والأحياء من تباعد، ولم يجد متنفسا لهواجسه وأحزانه إلا النحيب مرة أخرى... وعندئذ استيقظ خاله وأخذ يسري عنه بالكلام عن الملكوت، وعن رجاء القيامة في المسيح... فأسلمه ذلك الحديث إلى التثاؤب، وشرد بصره من وراء الزجاج، مفكراً فيما يسمع، وقد نشطت مخيلته الطفلية.

ولم تلبث بواكير الأضواء أن طلعت على الكون، فشرع الفتى وخاله يرتديان ثيابهما.

***

وكان الفتى يجهل أن والده هجر بيت الزوجية منذ سنوات طويلة، وانصرف إلى السكر والعربدة والتسري، منقلا قلبه حيث شاء من الهوى ما بين سيبريا والبلاد الأوربية، وكان الفتى يجهل أيضا أن والده بدد في هذا السبيل ما ورثه من أموال الأسرة، وإنما كان المتواتر على سمعه أن والده يقيم في بطرسبرج لتصريف أعماله وإدارة أمواله، ويسمع بين الحين والحين أنه سافر إلى ألمانيا لحضور سوق تجارية، أو إلى بلد آخر للاشتراك في المعارض الكبرى ومنذ سنوات أصيبت والدته بذات الصدر، وارتحلت مرارا إلى شواطئ فرنسا الجنوبية، وشمال إيطاليا انتجاعا للصحة، وصحبها الصغير إلى هناك في رحلتين، وفي الرحلات الأخرى كان الفتى يقيم

بمفرده مع رائد غريب يتغير في كل سنة، فنشأ على العزلة والوحدة، وقد رتب حياته على الخلو من الوالد.

ومع ذلك فإن الفتى يذكر باكورة طفولته، حينما كان اسم أسرته علما على عدد من أشهر المصنوعات والسلع، وكان يكفي إذا وصلت محطة موسكو أن تقول لسائق الزحافة:

– خذني إلى دار آل زيفاجو.

فلا يسألك عن الشارع والرقم، بل ينطلق بك إلى ضاحية، ويدخل بك بستانا مترامي الأطراف، كثير الأدغال والأحراش، تمرح فيه الكلاب المدربة، وتتجاوب بين الأشجار أصوات الطير بين ناعق ومغرد، وفي وسط البستان قصر يسبح في الأضواء الباهرة متى خيم الظلام.

قصر وثراء وجياد مطهمة... وفجأة انتهى ذلك كله، فإذا هم فقراء.

***

وانقضى على وفاة أمه عامان تقريبا، وكان الوقت صيفا، والفتى الذي ناهز الثانية عشرة جالس بجوار خاله كوليا في عربة مكشوفة يجرها جوادان، وهما في طريقهما إلى دوبليانكا، لزيارة صديق للخال يشتغل بالتأليف ذي مكانة مرموقة، وهذه هي ثاني مرة يصحب فيها الفتى خاله إلى تلك الضيعة، فجعل يجهد مخيلته كي يتذكر معالم الرحلة القديمة، ولكنه عبثا استطاع تصور المناظر قبل الوصول إليها.

وفي هاتين السنتين كان الخال نيقولاي (كوليا) قد تبحر في الفلسفة والاجتماع، واتضح له طريقه الفكري، وإن لم يخطر بباله أنه قاب قوسين أو أدنى من ذروة الشهرة بين الكتاب الثوريين.

فالخال كوليا، الذي يلقبه البعض بالأب نيقولاي إشارة إلى مركزه الكهنوتي السابق، هو من تلاميذ تولستوي، ولكنه يعطف أيضاً على الثوريين، لأنه متفتق الذهن والقلب لكل فكرة تقدمية جديدة تمهد أمام الناس الطريق إلى حياة أفضل ومعيشة أفضل، ويشترط في تلك الفكرة الجديدة الملهمة أن تكون رائعة في بساطتها، يستوعبها ويعتنقها كل من له إدراك بسيط بغير حاجة إلى علم أو ثقافة، لأنها بإشراقها كالشمس المضيئة، تشرق على الكوخ والقصر على السواء.

وكان يوري يحب صحبة خاله، لأنه يذكره بأمه، لرقته وحساسيته وحبه للناس، وتفتحه لكل طليق جديد من الأفكار، وبداهته التي تدرك كل شيء إدراكاً مباشراً، وقدرته على التعبير عما في نفسه بطلاقة وحيوية.

وشعر يوري بالسعادة لذهابه إلى دوبليانكا، المكان الجميل، وهو مثل أمه يحب الطبيعة، وما أكثر ما كانت أمه تصحبه إلى الخلوات.

وشيء آخر كان يحبب إليه هذه الرحلة، ذلك هو لقاء الفتى نيكي دودوروف الذي بهره في الزيارة السابقة بخفة روحه، وإن كان يكبره بعامين، مما جعله ينظر إلى يوري في شيء من الاستعلاء، ولكنه مع ذلك افتتن به.

***

وترك يوري خاله مع صديقه الكاتب الأديب يتناقشان في مشكلة الفقر وخرج يبحث عن نيكي في الحديقة وحول الدار، فلم يعثر له على أثر ولابد أنه اختفى في مكان ما، فمن بدواته أنه يضيق بالضيوف.

وكانت الساعة تناهز الخامسة بعد الظهر، وإذا بطنين صادر من جهة الخط الحديدي، بين المستنقعات، ثم توقف القطار فجأة، فأثار ذلك الدهشة، لأن اكسبريس الساعة الخامسة ليس له أن يقف بين المستنقعات على هذه الصورة.

أما يوري فاستغرقته النزهة بين الأشجار والادغال، وهزت مشاعره مناظر الطبيعة، وتذكر أمه ونزهاته معها، فركع بين الأشجار وأخذ يصلي لله من أجل تلك الأم، وخيل إليه أن قوة صلاته قمينة أن تجعلها تهبط من مقرها السماوي بين القديسين لتتجلى له لحظة في هيكلها الأرضي!

وثقلت على الفتى وطأة تلك الحالة، فغشي عليه بردهة، إلى أن أيقظه صوت خاله يناديه من البيت، فانتبه وغادر الأجمة.

وتذكر عندئذ أنه لم يذكر أباه في صلاته، فتردد قليلا ثم هز كتفيه، فإنه كان لا يذكر أباه، وأمره لهذا لا يعنيه.

أما القطار السريع الذي وقف وسط المستنقعات، ففي إحدى مقصورات الدرجة الثانية منه جلس الغلام ميشا غوردون اليهودي، وسنه تناهز الحادية عشرة، وملامحه تدل على النشاط والتوثب، ولاسيما عيناه السوداوان الواسعتان، ومعه أبوه جريجوري غوردون المحامي، والاثنان في طريقهما إلى موسكو حيث سيتولى الوالد منصبا جديدا، أما والدة الصغيرة ميشا وشقيقاته فقد سبقتهما إلى موسكو لتهيئة البيت.

وكان الفتى وأبوه قد سلخا ثلاثة أيام في السفر في تلك المناطق الشاسعة التي لا تكاد تنتهي، وكان الغلام الصغير يشعر في أعماق نفسه بالقلق، لأن إحساسه بنظرة الناس إلى بني جلدته من اليهود رسب فيه الهم والمرارة، فهو منذ نعومة أظفاره حائر لماذا ينظر الناس إلى شخص يشبه في شكله ولغته وسلوكه جميع من حوله، نظرتهم إلى كائن غريب منبوذ، لا لشيء إلا لأنه يهودي؟.. وما قيمة أن يكون الإنسان يهوديا؟ وما الذي يحمل إنسانا على احتمال هذه المضاضة؟

وأنه ليذكر حينما حدث أباه في هذه المشكلة أنه انتهزه وأفهمه أن عقله لم ينضج بعد، ونصحه بترك التفكير في مثل هذه الأمور إلى سن أكثر اقتداراً على مواجهتها، ولكن تلك النصيحة لم تكن كافية لإقناعه بتحمل الأمر الواقع ومواجهته ووطن النفس على حل تلك المشكلة حلا مقنعا حينما يكبر.

وهو اليوم يواجه حالة من حالات هذه المشكلة المعقدة، فإن أباه هو الذي جرى خلف ذلك الرجل المتهوس ليمنعه من إلقاء نفسه من القطار، ولما دفعه الرجل جانبا وفتح الباب، كان والده هو الذي جذب ناقوس الإنذار فتوقف القطار، ثم طال الوقوف بسبب تلك الحادثة، وتململ الناس من طول الانتظار، وإذا بعضهم يصبون غضبهم على والد ميشا، وينسبون إليه إصابة فرامل القطار بعطب من جراء شدة جذبه للحبل، لا لشيء إلا لأنه يهودي يصلح هدفا للغيظ والسخط.

وتكلم آخرون في تعليل طول وقوف القطار في ذلك الموضع فقالوا أن المنتحر من ذوي المكانة، وكان محاميه في رفقته، فأصر المحامي على ضروري الانتظار إلى أن يحضر نفر من المسئولين من أقرب محطة، ليدونوا محضرا رسمياً.

ومع طول وقوف القطار وركود الهواء انبعثت من دورة المياه روائح كريهة وعبثا استعان الناس عليها بما يحملون من زجاجات العطور، وتصاعدت روائح المآكل والدواجن المشوية التي تزود الناس بها لرحلتهم الطويلة، ولطخ الدخان وجوه السيدات المتأنقات، فاختلط السواد بالمساحيق.

وفي هذه الأثناء كان جسد المنتحر ملقى على العشب، وقد تجمد الدم الذي انبثق من ثغرة في جبينه، وتحول إلى لطخ لزجة داكنة، وأحدق بالجثة جمع من المتطفلين والمترحمين، ووقف عند رأسه كالديدبان محاميه ورفيق سفره، وهو رجل بدين قاسي الملامح، اشتدت عليه وطأة الحر، فتصببت ثيابه عرقا، وجعل

يستجلب الهواء بتحريك قبعته، وكلما ألقى عليه أحدهم سؤالا هز كتفيه من غير أن ينظر إلى جهة السائل، وقال:

– كان ثملا.

ولولا خوف الواقفين من ضياع أمتعتهم التي في المقصورات لظلوا واقفين حيث هم، وبعضهم انتهز الفرصة وراح يتمشى تنشيطا لعضلات جسمه وساقيه، ويلقي نظرة على الغدران والحقول والشجر والبيوت، فكلها معالم لولا الحادث لم اجتذب أنظار هؤلاء المسافرين الذين اقتصر تعليقهم على الحادث الفظيع بأن لكل أجل كتابا.

أما الصغير ميشا فاهتز وجدانه للحادث اهتزازا عنيفا حتى أنه أجهش بالبكاء، وكان المنتحر قد تردد على مقصورة الفتى وأبيه جملة مرات في الأيام الثلاثة السابقة، وتحدث إلى ميشا ساعات طويلة عن أمور تتعلق بالقانون التجاري... وفي كل مرة كان المحامي يأتي ليأخذ ذلك الرجل اليائس إلى عربة الأكل حيث يحتسيان الشمبانيا.

وعلم ميشا من والده أن المنتحر مليونير اسمه زيفاجو، إنسان طيب القلب بيد أنه طائش، بل نصف مجنون، بدليل أنه لم يأبه لوجود غلام له صغير مثل ميشا، فراح يتحدث عن زوجته الراحلة، وعن ابنه يوري الذي يناهز سن ميشا، وعن زوجته الثانية التي هجرها كما هجر الأولى.

وكان شعور زيفاجو نحو ميشا شعورا جارفا فأغدق عليه الهدايا، وكلما توقف القطار في محطة بها مكتبة، نزل واشترى له لعبا وطرفا، وكان واضحا أن عاطفته هذه انعكاس نحو عاطفته نحو ولده الغائب.

وبين الحين والحين كان يقول لوالد ميشا كالمعتذر:

– لي ثلاثة أشهر لم أذق فيها طعم النوم، ولا أجد راحة إلا في احتساء الخمر، وإذا أفقت قليلا، استبد بي العذاب الشديد الذي لا طاقة لي به.

وفي آخرة مرة اندفع زيفاجو إلى مقصورتهما وهو يترنح بشدة، وحاول أن يفضي إلى والد ميشا بشيء، ولكن لسانه انعقد فلم يستطع أن يبين، وعندئذ بلغ به اليأس غايته فاندفع في الدهليز، وفتح باب القطار وألقى بنفسه.

وانصرف ميشا إلى تأمل صندوق خشبي صغير به أحجار ومعادن غريبة الشكل من تحف جبال الأورال، وكان هذا الصندوق هو آخر هدية تلقاها من المنتحر، واستغرقه ذلك التأمل طويلاً، إلى أن ارتفعت ضجة لمقدم تروللي، نزل منه الطبيب الشرعي وشرطيان وضابط قضائي. وبعد محضر موجز تولى الشرطيان جر الجثة إلى ضفة النهر، وأثار ذلك شجون فلاحة فأعولت، وأخذ عمال القطار يصفقون بأيديهم ليستحثوا المسافرين على العودة إلى أماكنهم في القطار، ولم يلبث صفير القاطرة أن ارتفع، واستأنف القطار طريقه بعيدا عن مسرح الحادث.

أما نيكي، فكان طيلة الوقت مختبئا، لشدة نفرته من الناس، وهو بطبعه إنسان انفعالي سريع الغضب باستمرار، إذا تضرمت عواطفه خاطب نفسه بصوت مسموع وبأسلوب خطابي، وكان أكثر ما يستجيش نفسه معضلة الكون والحياة والألم، فما أكثر ما حدث نفسه في خلواته:

– أن الحياة جميلة، وما أروع أن يكون الإنسان حيا! ولكن لماذا تمتزج الحياة بالألم الشديد؟ أني واثق أن الله موجود، ولكن أين عساه يكون؟ وما مدى صلته بي؟ أنا هو! أنا أتصور الله وأحسه، فأنا هو!

وكان والد نيكي إرهابيا مشهورا اسمه "ديمنتي دودوروف" صدر ضده حكم بالإعدام شنقا، ثم خفف القيصر الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة في سيبيريا، أما والدته فأميرة حسناء من ولاية جورجيا، ذات طبع مندفع لاتني عن الحماسة

لكل ما يستهويها من النظريات المتطرفة في السياسة والفن والاجتماع، والرجال ذوي البدوات والفاشلين.

وكانت والدة نيكي شغوفة به إلى درجة الهوس، تأخذه إلى مسقط رأسها لزيارة آلها، فتدهشه الحياة في ذلك الإقليم المشمس، واسم أسرة أمه هو الاسم الذي ينصحونه باتخاذه بدلا من اسم أبيه الإرهابي، وذلك أمر يثير سخطه ويزيد من حنقه، ولاسيما أن أمه رحلت فجأة إلى بطرسبرج لتشترك في مظاهرات الطلبة المسلحة ضد البوليس، ولذا قرر أن يهجر المدرسة ويفر إلى أبيه في سيبيريا ليبدأ من هناك ثورة مستقلة.

الفصل الثاني

فتاة من بيئة أخرى

اجتاحت روسيا موجات من القلاقل الثورية، الموجة تلو الأخرى، أشد عنفا، وأكثر بعدا عما يتوقعه الناس، وذلك في الوقت الذي لا يزال أوار الحرب مستعرا فيه مع اليابان، ووصلت إلى موسكو في تلك الأثناء أرملة مهندس بلجيكي تدعى "أماليا كارلوفنا جيشار" قادمة من جبال الأورال، وهي امرأة فرنسية اكتسبت الجنسية الروسية ومعها والداها: ابنها "روديا" وابنتها لارا أو "لاريسا" وكان الابن طالبا بالأكاديمية العسكرية والابنة بمدرسة عليا للبنات... وكانت في مدرسة لاريسا، بل وفي فصلها الفتاة "ناديا كولوجريفوف" القادمة من دوبليانكا.

وقد ورثت الأرملة عن زوجها جيشار ثروته من مال وأسهم وسندات، وبدأت قيمتها تنخفض بعد ارتفاع، وقد ابتاعت الأرملة– لتحول دون ضياع ثروتها– مؤسسة لصنع الثياب هي مؤسسة "ليفيتسكايا" بالقرب من قوس النصر، اشترتها باسمها التجاري وعميلاتها وحائكاتها، وقد أقدمت على شراء هذه الصفقة تحت تأثير نصيحة من كوماروفسكي، ذلك المحامي الذي كان صديقا لزوجها، وكان عضدها وسندها، وهو من رجال الأعمال، وله طابع خاص، فهو صلب الأعصاب يفهم دقائق الأعمال في روسيا معرفة شاملة، وكانت الأرملة قد دبرت معه فكرة انتقالها إلى موسكو حيث استقبلها وابنيها على المحطة وصحبهم إلى الجانب الآخر من موسكو، وكان قد احتجز لهم غرفة في فندق "مونتنجرو" بشارع أوروجيني، وهو صاحب فكرة إلحاق ابنها "روديا" بالأكاديمية العسكرية، وابنتها "لارا" بمدرسة تخيرها لها، ثم راح يمزح مع الفتى ويرشق الفتاة بنظرات نفاذة حتى اصطبغ وجهها بحمرة الخجل!

انتقلت الأسرة إلى منزل مكون من ثلاث حجرات، بعد أن قضوا شهرا في فندق يجاور مصنع الثياب في حي متواضع من أحياء موسكو، تتخلله الأزقة الضيقة، والأوكار المظلمة وشوارع تغمرها الرذيلة!

وكانت السيدة جيشار تخشى الفاقة ولذا اعتاد الوالدان أن يسمعا منها أنهم في طريقهم إلى الإفلاس، فلم يستاءا من قذارة الحي الذي يقع فيه المسكن، ومن المسكن الذي يقطنانه، ولا من الحشرات التي كانت تشاركهما المخادع، وقد ولد ذلك في نفس الولدين الشعور الذي تولد عند أطفال الملاجئ.

والسيدة جيشار امرأة قصيرة، شقراء، ممتلئة الجسم تبلغ نحو الخامسة والأربعين، تقضها علة القلب وتنتابها نوبات من الغباء... يغلب عليها الجبن، فهي في ذعر متصل من الرجال، وكان هذا يدفعها إلى التنقل من أحضان عشيق إلى آخر!

وعندما كانت الأسرة في الفندق، كانت تقيم في الحجرة رقم ٢٣، ويقيم في الحجرة المجاورة رقم ٢٤ منذ أنشئ الفندق العازف "تشكيفيتش"، وهو رجل أصلع الرأس، غزير العرق، يضع شعرا مستعارا، وكان يشتهر بالعزف في حفلات الطبقة الراقية، وفي قاعات الموسيقى، وكان من عادته أن يطوح رأسه إلى الوراء، ويسرح بإنساني عينيه في غيبوبة منتشية، وكان لا يعود إلى غرفته إلا نادراً، إذ كان يقضي أياما وليالي بأكملها في المسرح، وكانت جيرته للأسرة سببا في قيام الصلة بينهما.

وبطبيعة الحال كان وجود الولد والبنت مثارا للحرج عندما يزور كوماروفسكي مدام جيشار، لذا كان تشكيفيتش يسمح لها باستعمال حجرته الخاصة أثناء غيابه، فكانت تتقبل هذه التضحية منه بسرور بالغ واعتبرت ذلك منه أمرا عاديا، فكانت

في كثير من الأحيان تطرق بابه باكية تلتمس الحماية فيها من صديقها حينما يقسو عليها ويوجه إليها الكلام اللاذع.

***

ويقع مصنع الثياب على ناصية شارع تفيرسكابا، وكان في منزل من طابق واحد، في حي تخترقه سكك حديد بريست وتحتله مخازن قاطراتها والبضائع ومساكن الموظفين، وكانت "أوليا دمينا" تقيم في أحد هذه المساكن، وهي فتاة تعمل في مصنع السيدة جيشار، وكان عمها موظفا في مخازن البضائع، وهي فتاة نشطة ماهرة، أحبتها صاحبة المصنع السابقة، وكسبت ثقة مدام جيشار، وشعرت أوليا بعاطفة ميل جارف نحو لارا.

وكان المصنع كسابق عهده، فأصوات آلات الحياكة بصريرها وأزيزها... وهنا أو هناك كانت ثمة امرأة تجلس إلى منضدة تشتغل في صمت، وكنت ترى قصاصات القماش مبعثرة على الأرض، وإذا أردت أن تتكلم فلا بد من رفع صوتك كي يسمع الكلام بين ضجيج الآلات وتغريد الكناريا في قفصه المعلق بالنافذة.

وكانت السيدات من طبقات متباينة يجتمعن في قاعة مخصصة لذلك حول مائدة عليها أكداس من مجلات الأزياء، وكن يتمثلن بالأوضاع التي يرينها في صور الأزياء ويتناقشن في النماذج والتفصيل... وكانت تجلس في مقعد المديرة، "فاثينا سيلانيفانا"، امرأة قبيحة الوجه، وهي رئيسة عاملات "القص والتفصيل"، وهي الساعد الأيمن للسيدة جيشار، وقد أخذت تدون طلبات وعناوين العميلات، وفي فمها مبسم قديم يحمل سيجارة وهي تتابع بمقلتيها حلقات الدخان المنساب.

وبطبيعة الحال لم تكن للسيدة جيشار خبرة بإدارة مثل هذا المصنع، ولذلك كان سلطانها ضعيفا، ولكن إخلاص العاملات عوض ذلك، وكانت أشدهن إخلاصا

"فتسيوفا"، وبالرغم من كل ذلك فقد كان ينتاب السيدة اضطراب وضيق، ويشغلها التفكير في المستقبل الغامض فيتملكها شعور من القنوط واليأس.

وأكثر كوماروفسكي من زيارة السيدة، وكان يتعمد أن يشق طريقه نحو المسكن عبر المصنع، مما يثير سخط العميلات– وكان معظمهن من الطبقة الراقية– إذ كان يفاجئهن وهن بملابسهن الداخلية، أثناء قياس الأثواب الجديدة، فيندفعن خلف الستائر، وهو لا يكف عن مطاردتهن بنكاته، وكانت الحائكات يستنكرن ذلك التصرف من جانبه وكن يتندرن بخلع ألقاب السخرية عليه كقولهن: "ها هو ذا صاحب المقام الرفيع"!.. "فاتن قلب أماليا"!.. "الخنزير العجوز المتصابي"!.. "عشيق السيدة"!

ولم يكن كلبه الضخم أقل منه حظا من نظرات السخط والسخرية، وكان الكلب يجذب صاحبه بعنف وهو ممسك بمقوده، فيتعثر كالأعمى، وحدث ذات مرة أن أنشب الكلب أسنانه في ساق لارا، فمزق جوربها.

***

ماما..! ما معنى هذه الكلمة، وما هو بالنسبة لماما؟! لن يتردد هذا الاسم على لساني... ولماذا يتأملني بهذه النظرات المريبة؟.. وأما في مكانة الابنة منه!..

تجاوزت لارا السادسة عشرة من عمرها، ولكن جسمها سبق سنها، فبرز نهداها، واستكملت أنوثتها، حتى ليحسبها من يراها أنها بلغت العشرين ربيعا، وكانت ذات عقل راجح، وفطرة سلسة، وكانت دقيقة التقاطيع جميلة الوجه بدرجة كبيرة، وقد أدركت هي وأخوها روديا أن الحياة قاسية، فلم يجدا متسعا للتفكير فيما يفكر فيه المراهقون أمثالهما، وكان لا يعنيهما من الأمور ما لا شأن لهما به، فما أسوأ أن يفكر المرء فيما لا يعنيه، وكان نقاء لارا وطهرها عاصما لها، وكان الإخوان يغتبطان لما يجدانه من عطف وحنان، وكانت "لارا" تدرك– فضلاً عن

حبها للعلم- أن من يتفوق في الدراسة يعفى من بعض نفقاتها. ودفعها صفاء سريرتها إلى مساعدة أمها في بعض مهام البيت وكانت تختال في بهاء واتساق وانسجام في حركاتها وسكناتها وفي صوتها الملائكي وشعرها الجميل وعينيها الآسرتين!

ورقدت "لارا" في فراشها ذات يوم، وكان يوم أحد في شهر يوليه- وهو يوم عطلة- مستلقية على ظهرها وقد عقدت يديها وراء رأسها، والمصنع يلفه سكون شامل، وينساب الهواء من نافذته المفتوحة فيداعب خصائل شعرها، حين طرق أذنيها قرقعة عجلات مركبة، ولم يلبث الصوت أن تضاءل وخفت حين سارت العربة على قضبان الترام.

وفي ناحية أخرى، لاح "للارا" شارع... "يا للسماء! ماذا يخالجك يا لارا؟.. أريد أن أريك منزلي فهو على قيد خطوات من هنا!" وقد توجه إليها كوماروفسكي بهذا الحديث في يوم احتفال أقامه أحد الأصدقاء فيه رقص وشراب وقد دعا كوماروفسكي السيدة جيشار، ولكنها اعتذرت لتوعك ألم بها، فقالت له:

- خذ "لارا"، فطالما حثثتني على العناية بها، فهي في رعايتك اليوم!

وكان عند حسن ظنها إذ أحاطها بضروب الرعاية حقا... يا لسخرية الأقدار..!

أشاعت نغمات الفالس جوا حالما من الشاعرية، فكانت مفتاح البداية... يا لها من رقصة مجنونة! يخيل للإنسان أنه يسبح في عالم لا نهائي، وما أن تصمت الموسيقى، حتى تشعر برعدة كمن صب فوقه ماء بارد، أو كأن شخصا فاجأك عارياً!

ولم تكن "لارا" تتوقع أن ترقص بمثل هذه البراعة، وكان هو أشد لباقة وهو يطوق خصرها!.. على أنها لن تسمح لأحد أن يقبلها كما قبلها... فإنها لا تصدق

أن يتصف إنسان بمثل هذه القحة التي تمثلت في شفتيه وهو يطيل ضغطهما فوق شفتيها... يجب أن تمنع هذا العبث بوسيلة حاسمة، يجب أن تطرح الخجل والارتباك جانبا، ولا تغض النظر، وإلا وصل بها الأمر إلى السقوط... ويجب أن تحسم الأمر بسرعة، وإلا فقد قضي الأمر... لتنبذ الرقص، فهو منبت الداء، بأن تمتنع عنه في شجاعة وإصرار، ولتلتمس الأعذار لذلك.

وجاء باشا انتيبوف، وكان أبوه قد اعتقل ضمن من نظموا إضرابا لعمال السكة الحديدية، ليعيش في كنف آل تيفرزين، وكان فتى أنيق الهندام، ذا ملامح متسقة وشعر أحمر يصففه ويفرقه في منتصف رأسه، وكان يعتني بزيه المدرسي، وكان بارعا في إلقاء الفكاهة وقوة الملاحظة، فكان يشيع جوا عاصفا من الضحك في كل مجلس يكون فيه بفكاهاته.

وفي ١٧ أكتوبر، وقد صدر البيان، تجمعت مظاهرات كبيرة، وكان من المفروض أن ترسم خط سيرها، ولكن أفسدها تشعب آراء القائمين بها، واختلافهم فيما بينهم، فساد الهرج وتفشت الفوضى، ثم أرادوا إنقاذ الموقف بإرسال مندوبين ليقودوا المظاهرات، وحاول تيفرزين بكل الوسائل أن يقنع أمه ويثنيها عن الاشتراك فيها دون جدوى، فقد اندست بين المتظاهرين وقد صحبها انتيبوف في مرحه كالعادة.

وفي أحد أيام شهر نوفمبر، وكان يوما بارداً صقيعا، اكتست المدينة فيه بسحابة قاتمة غائمة، وقد أخذت حبات الجليد تتساقط ثم تستقر على الأرصفة، تدفقت جموع الناس في الشارع كالسيل الذي لا ينقطع، جموع حاشدة من مختلف الأنواع، طالبات وطلبة، نساء ورجال، شيوخ وأطفال، عمال في زيهم الرسمي وأحذيتهم الطويلة... وقد أخذوا ينشدون "المارسيليز" و"أرسو"، و"سقطوا ضحايا"، حين استدار رجل كان يسير بظهره في أول الموكب، يصيح منشداً وملوحا بقلنسوته كأنها عصا رئيس فرقة موسيقية، وقد استدار ليجعل وجهه في اتجاه الموكب،

ووضع قلنسوته على رأسه، وراح ينصت لما كان يقوله القادة، وإذا الإنشاد تشوبه الفوضى ثم يخفت.. وحل محله صوت الأقدام التي لا حصر لها وهي تستحق الجليد المنتثر في الطريق.

وفي هذه الأثناء وصلت إلى القادة رسالة من محبذيهم: أن فرسان القوزاق يتربصون في كمين عند نهاية الشارع، فقال القادة:

– وماذا يهمنا من ذلك؟.. علينا بالهدوء، والتبصر، وعدم الاندفاع، فهذا أهم ما يجب أن نستمسك به... وعلينا أن نحتل أول مبنى من المرافق العامة نصادفه، وبعد ذلك نحذر الشعب، ثم نتفرق!

واشتد الجدل ودار حول أنسب مبنى يقصدونه، واقترح بعضهم مبنى معينا، واقترح البعض الآخر مبنى آخر، بينما اقترح فريق ثالث مبنى غير هذا وذاك... ووصلوا وهم في جدلهم مبنى مدرسة عليا أشد مناعة وأكثر حماية مما سبق اقتراحه من البنايات، وإذ صاروا في محاذاة مدخل المدرسة، اقتحمها القادة وصعدوا درجات المدخل، وأشاروا لمقدمة الموكب بالتوقف، ولكن الجموع أساءوا فهم الإشارة، ففتحوا الأبواب، وزحفوا، كتلا بشرية متراصة، في البهو الذي قابلهم، وراحوا يصعدون درجات المبنى.

وترددت الأصوات من مؤخرة الحشد تصيح: "إلى قاعة المحاضرات"، ولكن الحشد ظل مندفعا إلى الأمام ثم أخذ يتفرق في الفصول وينتشر في الردهات، وبعد عناء أمكن للقادة أن يوجهوا الحشد نحو قاعة المحاضرات محاولين تنبيهه إلى الكمين دون جدوى... فقد حدث ما حدث ارتجالا دون تفكير أو إرشاد، وأراح الجلوس أعصاب القوم فركنوا إليه بعد أن أنهكهم السير والصياح، وقد تركوه لغيرهم، ولم يلقوا بالا إلى ما كان يقوله الخطباء، استمتاعا بالجلوس وركونا إلى الراحة، واختلط الأمر حتى أضحى أسوأ الخطباء يتلقى أكبر قسط من التكريم

والحماسة، وأخيرا وافق الجميع على كل ما قيل، لا عن تبصر بل بدافع نفاذ الصبر، وفي الوقت ذاته بدرت أصوات استنكار، واحتجاج، وأعقبها ضيق بصوت الخطيب الأجش فوقفوا فجأة، واندفعوا خارجين، وراحوا يهبطون درجات السلم وأخذوا ينسابون إلى الشارع... واستأنفوا السير.

وأثناء اجتماع القوم أخذ الثلج يتراكم، فإذا الشارع يتشح بالبياض وأخذ الجليد يتساقط بغزارة.. ولم يدرك السائرون في المؤخرة أن الفرسان قد انقضوا، وكل ما وصل إلى سمعهم جلبة مختلطة كأنها صادرة من جموع هاتفة، وبذلك ضاعت صرخات النجدة، وفي هذه اللحظة اختلط الحابل بالنابل، وأخذت سيوف الفرسان تؤدي عملها في سرعة وخفة وفقد القوم الزمام.

واقتحم نصف فصيلة الفرسان الجموع المتراصة، وأخذ يصول ويجول إلى أن بلغ مؤخرة الموكب... حيث بدأ التقتيل..! وفي لحظات أصبح الشارع خاليا، إذ أخذ الناس يهربون إلى الشوارع الجانبية، وظهرت بوادر المساء، وأخذت الشمس تشق طريقها نحو المغيب، فصبغت الشارع بلون قان... فإذا قمم الخوذات وكأنها قطع من نار، وإذا العلم أحمر، ولطخ الدم بطبيعتها حمراء، وقد أخذ رجل يئن وهو يزحف، وقد شج رأسه، في الوقت الذي كانت فيه ثلة من الفرسان عائدة على مهل، من الشارع الذي كانوا قد لجئوا إليه، وإذا تيفرزينا، والدة تيفرزين، تجري في سرعة من جانب إلى آخر– تكاد تطؤها الخيل بأقدامها– وقد انحسر وشاحها عن رأسها، وراحت تصرخ في جزع: "باشا!.. باشا!.." فقد اختفى فجأة بعد أن كان إلى جانبها يضحكها بتقليد الخطباء، في غمرة الفوضى والارتباك عند انقضاض الفرسان، ثم هوى على ظهرها سوط أحد الفرسان، ورغم أنه لم يؤلمها بسبب معطفها السميك، فقد راحت تهدد الفرسان ملوحة بقبضتها، منددة آياهم كيف يجسرون على ضرب عجوز مثلها، بهذا الشكل، وأخذت تتلفت في قلق، حتى لمحت الفتى في الجانب الآخر من الشارع، وكان مختبئا في فحوة، لجأ إليها غيره

من المارة تحت مطاردة فارس، حتى يتقوا الأذى... وانتشى الفارس بذعرهم، فأخذ يلقي إليهم أوامره مزهوا، دافعا جواده نحو الحشد، على أنه لمح رفاقه يعودون فجأة، فاستدار بسرعة، وبقفزتين كان في صفوفهم.

وتفرق الحشد، فاندفع باشا صوب العجوز، وقد أخذ منه الخوف فألجم صوته، وأخذت تيفرزينا تزمجر طيلة الطريق إلى البيت:

– يا لهم من قتلة، سفاكين، الشعب مغتبط لأن القيصر منحه الحرية، ولكن هؤلاء الملاعين لا يطيقون ذلك... كل ما يبغونه أن يفسدوا كل شيء!..

لقد كانت ناقمة على الفرسان، بل على الدنيا بأسرها... وفي تلك اللحظة بالذات كانت ناقمة على ابنها، فقد كانت، إذا ثارت نفسها، ترجع ذلك إلى "رفاق لويرينكا المتسكعين" كما كانت تصفهم!

وأخذت تصرخ في سخط:

– ما الذي يريدونه هؤلاء الملاعين؟.. أنهم هم أنفسهم لا يعلمون، كل همهم ارتكاب الشرور.. يا لهم من أفاقين..! أرني يا باشا، يا حبيب القلب، كيف كان يتكلم ذلك الخطيب الثرثار! أواه، أكاد أنفجر من الضحك، أكاد أنفجر، أنك تتقن تقليده وكأنك هو!

وعندما صارت في البيت أخذت توبخ ابنها كيف يقف مكتوف الأيدي بينما يلهب ظهرها جلف فوق جواد بسوطه!؟ فيرد عليها ابنها قائلا:

– وما ذنبي يا أماه؟! هل تحسبينني قائد القوزاق أو مدير الشرطة؟!

***

وإذ كان نيقولاي يشهد فرار المتظاهرين من نافذته، ويتفحص شخصياتهم، أخذ يبحث عما إذا كان يوري بينهم، ولكنه لم يلمح أحدا يعرفه.

وكان نيقولاي نيقولايفيتش قد عاد من بطرسبرج منذ وقت قريب، ولم يكن له في موسكو مسكن، كما لم تكن له رغبة في النزول بأحد الفنادق، ولذا نزل في منزل أقارب له تربطهم به صلة قرابة بعيدة، هم أسرة "سفينتيتسكي"، فأعدوا له ركنا من حجرة في الطابق الأول، ولم يكن بالمسكن أطفال، وكان منزلا كبيرا، استأجروه من أسرة الأمير دولجوروكي، وهو منزل من عدة منازل غير متناسقة تتوسطها أفنية وحديقة.

وكانت الظلمة تخيم على حجرة المكتبة، بالرغم من نوافذها الأربع، وكانت مزدحمة بالكتب، والمجلات، والصحف، والسجاجيد، والستائر... ولها شرفة على شكل نصف دائرة حول أحد أركان المنزل، وقد أقفلت الأبواب الزجاجية للشرفة اتقاء للبرد، وكانت هذه الأبواب، ونافذتان أخريان، تطل على شارع ضيق، تبدو فيه الزحافات وصفوف متعرجة من المنازل والأسوار، ومن حديقة المسكن كانت الظلال القرمزية تتصاعد إلى الحجرة.

وراح نيقولاي نيقولايفيتش يسرح ببصره في الفضاء، يفكر في آخر شتاء قضاه في بطرسبرج... وحلقت به أفكاره في "جابون"، و"جوركي"، وفي لقائه مع "ويت" وكلهم من الكتاب الذين ذاع صيتهم... لقد فر من المدينة الصاخبة إلى هدوء العاصمة القديمة الساكنة، ليخلو إلى نفسه وينصرف إلى تأليف كتاب نبتت فكرته في ذهنه، ولكن خاب ظنه، فقد شملته شواغل لا حصر لها، من محاضرات، وبرامج دراسية للنساء، إلى الجمعية الفلسفية الدينية، إلى الصليب الأحمر، إلى صندوق الاكتتاب للإضراب... فلم تكن لديه لحظة يستجمع فيها أفكاره، فكأنه استجار من الرمضاء بالنار، واعتقد أن لا مخرج له إلا بالرحيل إلى سويسرا... إلى بحيراتها الوادعة، وسمائها الصافية، وهوائها العليل.

وترك نيقولاي نيقولايفيتش النافذة، وأحس برغبة ملحة في أن يصيح مناديا أي إنسان، أو أن ينطلق هائما في الشوارع، ولكنه تذكر أن لديه موعدا هاما، أن فيفولوشنوف– تلميذ تولستوي– سيحضر لمقابلته لأمر هام، فأخذ يذرع الحجرة، وأفكاره تحلق نحو ابن أخته، فقد ترك يوري في موسكو عندما انطلق إلى بطرسبرج، إذ كان له في العاصمة أقارب كثيرون: آل فيدينيامين، وآل اوستروميسلينسكي، وآل سليافين، وآل ميخايليس، وآل سفينتيتسكي وآل جروميكو.

وفي البداية مكث مع ذلك العجوز الثرثار الخامل أوستروميسلينسكي، وكان معروفا باسم "فريدي"، الذي كان غارقا في الإثم مع "موتيا"، التي كانت تحت وصايته، ولذلك كان يعتبر نفسه خارجا على النظام، ولم يكن قط موضع ثقة أقاربه، حتى أنه استولى على النقود التي أعطيت له للإنفاق على يوري، فراح ينفقها على نفسه، ولذلك نقل يوري إلى رعاية آل جروميكو... أسرة العلماء حيث أقام معهم.

وكان وسط آل جروميكو ملائما ليوري، فقد كانت ابنتهم "تونيا" في مثل سنه، كما كان "ميشاجوردون" صديق يوري وزميله في الدراسة، يقضي معظم وقته معهما... فلم يسع نيقولاي نيقولايفيتيش إلا أن يقول:

– يا لهم من ثلاثي ضاحك!

وقد استغرق ثلاثتهم في قصص "معنى الحب"، و"أنشودة كرويتزر" وأخذتهم نزعة إلى العفة والتبشير بها، ومما لا شك فيه أن من الخير لمن في مثل سنهم من المراهقين أن يتجهوا إلى التحمس للطهر، ولكنهم أسرفوا في ذلك وبالغوا إلى حد غير معقول!.. يا لغرابة أفكارهم، ويا لسذاجتهم الصبيانية!.. إذا أزعجهم "الجنس"، يصفون كل ما له علاقة به أنه "تبذل" يدعو إلى الاشمئزاز، فتتضرج

وجوههم أو تشحب حين ينطقون به... كانت كلمة "الابتذال" مرادفة في نظرهم للغريزة والفعل الفاضح والدعارة، وكل ما يتعلق بالجسد ونزواته!

فأخذ نيقولاي يحدث نفسه:

– ما كنت لأسمح بمثل هذا أن يستفحل لو أنني كنت في موسكو، نعم أن الحياء ضروري، ولكن في نطاق معقول... آه، ها هو ذا "نيل فيوكتيسوفيتش" قد أقبل!

وقطع عليه أفكاره حضور الضيف.

رجل بدين، يرتدي قميصا رماديا، وحزاما عريضا من الجلد، وحذاءين كبيرين، وسروالاً منبعجا عند الركبتين. سمح الملامح، يحلق بنظراته في أجواء الغيب والخيال، يضع على عينيه نظارة بدون إطار، علقت بشريط أسود، وقد خلع معطفه في البهو، ولكنه لم يتخل عن ملفحته، ودلف إلى الغرفة وهو يجرها على الأرض، وقد أمسك بقبعته الكبيرة في يده. فكان من المعتذر– وهذه حاله– أن يصافح صاحبه، بل أن يحييه، فأخذ يتمتم وهو يجيل بصره في الحجرة:

– أمه... ممه... م!

وعندئذ قال نيقولاي نيقولايفيتش.

ضعها في أي مكان!

وقد هدأ هذا الرد جأشه وأعاد له القدرة على الكلام!

كان الضيف من تلاميذ تولستوي.. الذين كانت تعاليم الأستاذ القلقة تفقد معهم عمقها، وتتجاوز أي إصلاح، وأخيراً كانت تنتهي إلى استقرار وخمول طويلين لا يعكر صفوهما شيء. وكانت المهمة التي جاء من أجلها هي دعوة نيقولاي

نيقولايفيتش إلى إلقاء خطبة في اجتماع لمعونة المسجونين السياسيين سيعقد في إحدى المدارس. فقال نيقولاي:

– لقد ألقيت خطابا في تلك المدرسة!

– وهل كان ذلك لمساعدة المسجونين السياسيين؟

– أجل.

– إذن نريد أن تعيد الكرة!

وتردد نيقولاي قليلا، ولكنه لم يلبث أن قبل، وعندئذ لم يحاول أن يستبقي الضيف، وكان في إمكان الضيف أن ينصرف ما دام قد أنهى المهمة التي جاء من أجلها، ولكنه شعر– كما لاح له– أن التعجيل بالانصراف غير لائق، فأخذ يفكر في شيء يقوله... شيء فيه حيوية، فيه انطلاق.. واشتد التوتر، وأصبح الحديث مبتذلا!

***

كان شارع "بتروفكا" قطعة من بطرسبرج، وجدت خطأ في موسكو، البيوت شامخة متسقة، والزينات تضاعف من بهائها، والمكتبة الشهيرة، والرسام الفنان، وتاجر التبغ الممتاز، والمطعم الذي يتميز بالمصباحين القائمين على عمودين كبيرين– يكسوهما الجليد–... كل هذا الرونق يأخذ بمجامع من يرتاد ذلك الشارع، ويبعث الرهبة في نفسه كأنه يدلف إلى أرض مقدسة. وكان سكانه من أصحاب المهن المحترمة.

وفي هذه المنطقة اختار "فيكتور أيبوليتوفيتش كوماروفسكي" مسكنه واستأجره، في الطابق الثالث من إحدى بنايات ذلك الشارع، يفضي إليه سلم عريض. وكانت مديرة المنزل "إيما ارنستوفنا" تؤدي عملها في هدوء وصمت، وفي

كفاءة نادرة، وتحرص على ألا تتطفل لمعرفة تفصيلات حياته الخاصة، فكان يكافئها على ذلك بالتبسط معها، شأن علية القوم، ولا يستقبل رجلا أو امرأة لا يروق لها استقباله! فكان السلام يخيم على المسكن.

وكان من عادة كوماروفسكي أن يتريض صباح أيام الآحاد سيرا على قدميه، يصحبه كلبه الضخم، ويسيران على مهل حتى نهاية الشارع، ثم يعرجان على شارع "كونتسكي موست"... حيث يلتقيان بالممثل المقامر "كونستانتين ايللايونوفيتش" فيشاركهما النزهة، ويتجاذب الرجلان الحديث، حتى ينتهيا إلى رأى هو أن كل شيء في الدنيا تافه.

وأقبل الربيع فأخذ الجليد في الذوبان. وكانت لارا تسير ذاهلة فلم تدرك حقيقة ما وقع لها إلا عندما وجدت نفسها أمام الدار، وقد هجع جميع الناس. فجلست مأخوذة أمام مائدة زينة والدتها في ملابس السهرة عاقدة كفيها، وأخذت تنظر شاردة إلى صورتها المنطبعة في المرآة وكأنها لا تراها. ثم ألقت برأسها فوق يديها مقهورة، وهي تفكر في أمها لو علمت بالذي كان من أمرها في تلك الليلة.

كيف أمكن أن يقع لها ذلك الأمر الغريب؟

لا جدوى الآن من السؤال. وقد كان أولى بها أن تفكر فيه قبل أن تنزلق إلى ما انزلقت إليه. أما الآن فهي– يا ويحها!– امرأة... ماذا يقال عن مثيلاتها؟ بأي اسم ينعتونها؟ غانية؟ أنها امرأة عاهرة. ساقطة! من ذلك الطراز من النساء الذي يطل على القارئ من الروايات الفرنسية.. ولكن ذلك لن يمنعها أن تذهب غدا إلى المدرسة كأن شيئاً لم يحدث لها، لتجلس جنبا إلى جنب مع الفتيات الأخريات اللواتي لم يمسسهن بشر!

وكانت قطرات الماء تدق سقوف البيوت في الخارج، عندما أجهشت بالبكاء، فأخذت كتفاها تهتزان، والليل من حولها مدلهم.

كان كوماروفسكي في حالة هياج شديد. فهو يفتح الأدراج وينثر محتوياتها على البساط والأريكة صائحا بمديرية بيته:

– كل هذه الثياب رثة لا حاجة بي إليها. مللتها كلها.

والواقع أن الذي كان يريده كوماروفسكي هو لارا. وليست أمامه فرصة للاجتماع بها في هذا اليوم من أيام الآحاد فجعل يذرع الحجرة مهتاجا كالحيوان الحبيس! فقد أصبح لهذه الصبية على ذلك الفاسق تأثير كتأثير الطلاسم السحرية! فوجهها البريء ويداها البضتان البديعتان تبهره وتكاد تطيش بلبه.

وجعل يتمثلها بعين مخيلته وهو ينقر بأصابعه زجاج النافذة، وعندئذ استولت عليه النشوة فأغمض عينيه وهتف باسمها. وقد تراءت له كعهده بها غارقة في النوم ورأسها فوق ذراعه، وشعرها الداكن يحيط برأسها البديع، وجمالها الوادع يلهب الدماء في عروقه ويحرق فؤاده.

أما لارا فكان شعورها نحوه خليطا عجيبا من الأحاسيس حقا. أجل أنها شعرت بالاشمئزاز من اغتصابه لها واقتحامه حياتها على هذه الصورة الجارحة المفاجئة. ولكن لو أن ذلك الاشمئزاز كان خالصا لتمردت عليه. بل هو شعور يخالطه الزهو بأن رجلا في جلال المشيب وسمته المهيب ذا مكانة في المجتمع، كثيرا ما تذكره الصحف وكثيرا ما يقف في المجامع والمحافل وقفة الخطيب، يتدله في حبها، ويقضي جل وقته وينفق أكرم أمواله في صحبتها، يرتاد معها المسارح، والمطاعم، ويحدثها حديث الإعجاب ويراها جديرة بأكرم من منبتها مكانا، وبأعز من مستواها مقاما.

أزهاها أنها، وهي التلميذة ذات الثوب المدرسي الكئيب، صارت بطلة مغامرة غرامية، يحتضنها هذا الوجيه الأمثل في المركبة، فتطرب نفسها الطفلة لتغفل

الحوذي الذي لا يرى الهمس والقبلات! وكان يزهيها أيضا أن يصحبها إلى الأوبرا ويغازلها علنا في المقصورة أمام الدوقات.

بيد أن ذلك السحر الخيالي لم يدم طويلاً، فسرعان ما دب إلى قلبها الشعور بالهوان والامتعاض. ونشب في دخيلتها صراع عنيف أورثها صداعا أمسى لا يفارقها ليلا ونهارا. فحياتها مزدوجة بين الدرس والسهر والغزل والهوى.

***

أنها الآن تكرهه!

تكرهه لأنه كان اللعنة التي حلت بحياتها. وشعرت أنها باتت أسيرة ذلك الرجل الشهوان ولا تدري كيف تستطيع التحرر من ربقته... ولا تدري ما الذي جعلها تستعذب في البداية حمأة الذل والعار.

ترى هل لاحتياج أمها إلى رعايته وسخائه دخل في خضوعها لسلطانه وعدم تأبيها عليه حين أرادها على ذلك المرتع الوخيم؟

أن الأمانة تقتضيها أن تقول لا!

لقد كانت هي التي بسطت سلطانها عليه لا العكس! وأزهاها أن تجد لنفسها ذلك السلطان وهي الصبية الغريرة. والأولى به هو أن يرتعد خوفا لو أنها فكرت في هجره، تسل ثيابها من ثيابه فتنسل. ولكنها فتاة صافية النفس لا تعرف الغدر والختل. أما هو فذئب ثعلبان، لا يسبر له غور، وهذا هو الذي يشعرها بالتوجس ويسلبها الأمن والطمأنينة، لأنها تحس بنفسها كالذبابة وقد وقعت في شراك العنكبوت، كلما خلصت جناحا من ربقته علق بالشراك جناح.

أن سلطانها هي الأقوى. ولكن مكره السيئ جعل له عليها اليد العليا.

وكم حاولت أن تخدع نفسها فراحت تسألها، وتجيب:

– هل كان يتغير الوضع لو أنني كنت متزوجة ولي عشيق؟

وتجد الجواب بحاستها الاجتماعية أن الفرق ضخم. فما على الزوجات في نظر المجتمع أن يتخذن الخلان. ثم تجد جوابا آخر بحاستها الأخلاقية أنه لا فرق بين زلة وزلة وعلاقة وعلاقة!

وكان يجد من الصفاقة ما يخول له التمرغ تحت قدميها وهو يقول:

– أن هذا الحال لا يمكن أن يدوم. لابد أن أخبر والدتك بحقيقة الموقف كي أتزوجك.

وكانت هي تعارضه رغم الحاجة، وتصده عن ذلك الاتجاه لأنها موقنة أنه يقول ذلك باللسان فقط ولا ينوي أن ينفذ منه حرفا واحدا.

وظل يصحبها وقد حجبت وجهها بخمار إلى الحجرات والمقاصير المنعزلة في بعض المطاعم. وكانت تحس بنظرات الخدم والسقاة كوقع السياط على وجهها وجسدها، لأنهم يدركون أي نوع من النساء يرتاد هذه المقاصير الخلفية حيث الخلوات والأرائك والخمر وأنغام الموسيقى البعيدة.

وكانت تتساءل في كل مرة:

– ترى هل كان يرضى لي ذلك الهوان لو أنني كنت أثيرة عنده حقا، ولو أنه كان يحبني حقا؟

وكانت لا تجد جوابا سوى التنهد والإذعان، لتسير في ذلك الطريق، وقلبها مثقل بالأحزان، لأن لعنة حاقت بها ولا تستطيع عنها محيصا.

***

ولم تكن لارا من المتمسكات بالدين ومع ذلك كانت تحس بحاجة شديدة إلى سكينة النفس التي تنبعث من حاسة غامضة في السريرة. ولكن هذه السكينة لم تكن تتوفر لها في أحيان كثيرة من تلقاء نفسها، فتمضي إلى الكنيسة لتجلس في جوها الهادئ وتصغي للموسيقى الكنسية فتسكن ثائرتها، ثم تبكي على وقع تلك الأنغام.

وذهبت ذات مرة إلى الكنيسة في أوائل ديسمبر وقد اشتدت عليها وطأة الضيق حتى خيل إليها أن الأرض ستندك من تحتها دكا، أو أن جدران الكنيسة ستتقوض على رأسها في أية لحظة.

وعندئذ ارتفع صوت الكاهن رنان تردده قباب الكنيسة:

– طوبى للمساكين... طوبى للجياع إلى البر... طوبى للحزانى والمطرودين... فإنهم يرثون الملكوت!

وذهلت لارا. فقد أحست أن تلك الترنيمة صوت من السماء يخاطبها في محنتها، هذه هي رسالة المسيح إليها!

وارتجفت أحشاء لارا وسكنت نفسها.

***

وعندما قامت ثورة برسنيا، كان مسكن آل جيشار في منطقة الثورة. وأقيمت المتاريس والاستحكامات على بعد خطوات من المنزل. وانشغل الناس جميعا في بناء تلك المتاريس بالحجر والملاط والحديد. واتخذ مدبرو الثورة فناء المنزل المجاور مقرا للجنة القيادة، ومركزا للإسعاف ومطبخاً للمقاتلين في خط النار لكي يعد لهم الحساء الساخن.

وكان من بين الثوار شابان تعرفهما لارا. أحدهما نيكي دودوروف، صديق زميلتها ناديا. وكان نيكي مستقيما أبي النفس قليل الكلام رأت فيه لارا شبها قويا بها في الخلق والطباع، فلم يثر اهتمامها.

أما الشاب الآخر فهو باشا انتيبوف الطالب بالمدرسة العليا. وكان يقيم مع العجوز جدة صديقتها أوليا. ولم يسع لارا أن تتجاهل ما لها من تأثير قوي على باشا عندما تلتقي به في مسكن جدة أوليا. فهو شاب ساذج، يرتبك لمرآها ويضطرب. ثم يحمر وجهه ويبدو عليه الفرح الشديد كأنه طائر فاء الهجير به إلى دوحة وارفة الظل من تحتها جدول رقراق.

وأبت عليها طبيعة الأنثى إلا أن تستغل ذلك السلطان أسوأ استغلال. فأحس الطالب المسكين أنه بات أسير هواها، وأنه لا فكاك له من أسرها.

وكان الشابان يقبلان على إطلاق النار كما يقدم الأطفال على لعبة مثيرة. وكأنهما لا يعلمان أن هذه اللعبة لا تعرضهما للموت في خط النار فحسب، بل تعرضهما كذلك للنفي والشنق!

وكان إحساس لارا التي لها عشق داعب الشيب فوديه أن الشابين طفلان دون السن التي ينظر فيها إليها نظرة الاعتبار. بل كانت تنظر هذه النظرة عينها إلى كل أولئك الشبان البواسل المثقفين الذين يشتركون في التمرد السياسي المرتجل.

***

وسرت إشاعة بين الناس مؤداها أن الاستحكامات قد تنسف على يد الحكومة. ومعنى هذا أن الإقامة في البيت خطرة. وكان من المستحيل أن يغادروا الحي بسبب الحصار فكان لابد من البحث عن مسكن آخر في نفس الحي نفسه. فخطر لهم أن يذهبوا إلى فندق مونتنجرو. ثم اتضح أن كثيرين من الجيران لجئوا

إليه أيضا. فكان الزحام هناك على أشده. بيد أن مدير الفندق وعد آل جيشار أن يفرد لهم ركنا خاصا في حجرة الغسيل.

وأعدت الأسرة ثيابها في ثلاث حزم. وكان روديا في المدرسة فأخذت الأم والابنة تجوبان الحجرات وتودعان كل شيء بنظرات والهة. ثم أوصت الأم الخادم العجوز أن يرعى البيت والمشغل وخرجت دامعة العين مع ابنتها.

وعند تقاطع في الشارع استوقفت كتيبة من القوزاق السيدتين وأصروا على تفتيشهما. فتحسسوا بأيديهم كل موضع في جسميهما. وأثار ذلك تقزز لارا ولكنها تعزت بأن الثورة ستعفيها من زيارات كوماروفسكي.

وكانت دار الشقيقين جروميكو تقع عند تقاطع شارع فراجيك بشارع آخر صغير. وكل من الأخوين الكسندر جروميكو ونيقولاي جروميكو أستاذ في الكيمياء في المعاهد العليا. وكان نيقولاي أعزب، أما الكسندر فمتزوج من أنا كروجر ابنة أحد ملوك الحديد. ولوالدها ضيعة مترامية الأطراف في منطقة الأورال بها مناجم مهجورة وغابات.

ودار آل جروميكو مكونة من طابقين، العلوي منهما به حجرات النوم وحجرة المكتب الخاصة بالكسندر وصالون أنا، وحجرتا تونيا ويورا. أما الطابق السفلي فمخصص لاستقبال الضيوف. والأثاث فيه أخضر داكن، يرين عليه الهدوء.

وآل جروميكو أهل ثقافة وضيافة ولهم بصر بالموسيقى. وكثيرا ما أقاموا الحفلات الموسيقية الساهرة في بيتهم. ولذا أقيمت في يناير سنة ١٩٠٦ سهرة من هذا النوع

ومنذ الصباح الباكر في ذلك اليوم بدأت الاستعدادات. وحضرت صديقة أنا الحميمة شورا شلزنجر. وهي امرأة طويلة نحيلة.

والعلاقة بين الصديقتين من أعجب ما تكون. فلابد في كل مرة من احتدام المناقشة حتى تصل إلى السباب، ثم البكاء. وكان هذا البكاء يوافق طبعهما العصبي ويعقب سكينة في أنفسهما بعد الصلح. كما تصفو السماء بعد هطول المطر. أو ينخفض ضغط الدم بعد الفصد.

وشورا امرأة لا تخلو من لوثة. مزواجة مطلاقة بغير اكتراث لأحد أو شيء. إلا أنها متصوفة من غير انتساب إلى كنيسة معينة أو طقوس خاصة، رغم إلمامها بالطقوس البوذية وأسرار اليوجا الهندية! وهي خبيرة بالموسيقى وأحوال المجتمع، لذا تعتبر خبيرة في تنظيم الحفلات الهامة.

وفي الموعد المحدد من المساء أخذ الضيوف يتوافدون، بينما كان الثلج يتساقط في الخارج. وشاعت في القاعة حرارة الدفء من الأنفاس والأجساد وعزفت الموسيقى وبدأ الرقص. وفي فترة الاستراحة أخذوا يتناقشون في القيمة الفنية للمعزوفات.

وبعد الاستراحة بدأ العزف الفني وجلس الجميع صامتين. وكان يورا وتونيا وميشا غوردون جالسين في الصف الثالث. وإذا بالخادمة العجوز تقف عند الباب وتنظر إلى يورا في يأس وتشير نحو الكسندر جروميكو. فأدرك يورا أنها تريد مولاها، ونبهه إلى ذلك.

ونهض الكسندر على مضض، وقال لها يوبخها:

– ما الأمر الجلل الذي جعلك تقاطعين الحفلة بهذه الصورة؟

– لقد حضر خادم من فندق مونتنجرو ومعه مركبة لاستدعاء السيد تشكيفيتش الموسيقى لأن سيدة من ذوي قرابته في النزع الأخير.

ولم يجد الكسندر بدا من الانتظار حتى نهاية المقطع الأول من المعزوفة ثم وقف يعتذر للحاضرين مبينا سبب انصراف العازف. وأعلن أنه سيرافقه إلى الفندق ليكون بجواره في هذا الظرف العصيب. ثم أمر بإعداد عربته الخاصة.

وألح يورا وميشا على الكسندر كي يركبا معه، للتمتع بالنزهة الليلية تحت الجليد المتساقط.

***

وكان أهل الفندق في اضطراب شديد. ورنين الأجراس لا ينقطع. والطبيب يعطي مدام جيشار العجوز مقيئا لغسيل جوفها. وخادم الفندق أنهكه الجري ذهابا وإيابا لإحضار الماء النظيف، وغسل الأرض من القيء.

ووقف ميشا ويورا خارج غرفة جيشار يذرعان الدهليز. وأما الكسندر جروميكو فأخذ منه العجب والاستنكار كل مأخذ، لأنه فوجئ بمأساة خلقية مشينة لا يليق أن يطلع عليها الصغار. ولذا أصر على بقاء الصغيرين خارج الحجرة، ولكن الخادم طلب منهما أن يدخلا، قائلا:

– لقد شفيت السيدة تقريباً. فالدهليز ضيق ونحن لا نكف عن الجري حاملين الآنية.

وإزاء ذلك دخل الصغيران. فإذا حاجز في الحجرة من ورائه الفراش. وستار الحاجز منحسر قليلا. فظهرت مدام جيشار في أبشع صورة. وكانت قد حاولت الانتحار بتجرع صبغة اليود. فظن الخدم أنها تناولت الزرنيخ فاشتد انزعاجهم وظنوها هالكة.

وكانت كل عروق مدام جيشار نافرة وهي منحنية نصف عارية فوق الدلو تصرخ وتتقيأ، فشعر يورا بالتقزز من ذلك المنظر.

وأخيرا تنبه بعضهم فأسدل الستار. وقال الكسندر جروميكو للفتيين.

– آن لنا أن ننصرف متى خرج السيد تشكيفيتش من وراء الحاجز سأسلم عليه وأنصرف.

الفصل الثالث

حفلة عيد الميلاد

أصيبت "أنا" بالتهاب الرئة عام ١٩١١، فقضت في الفراش طيلة شهر نوفمبر، في الوقت الذي كان فيه يورا وميشاجوردون وتونيا يستعدون لتوديع كلياتهم في الربيع: يورا في الطب، وتونيا في القانون، وميشا في الفلسفة.

وكانت الأمور مختلطة في ذهن يورا، وتلوح له الدنيا كأنها مجموعة لا ضابط لها ولا نظام. وكان ينظر إلى الحياة بطابعه الخاص فيكيفها بما تصورها له أفكاره وميوله. وكانت شخصيته قوية، وحدة ذكائه تلفت النظر، ورغم ميله إلى الفنون والآداب، فإنه جنح نحو الطب دون تردد، إذ كان يعتبره أكثر نفعا من الناحية العملية.

وكانت قاعة التشريح، التي قضى فصلا دراسيا بها، في الطابق الأرضي، بل تحت مستوى الأرض، يهبط لها المرء بضع درجات، وكانت مكتظة بالطلبة، والكتب، والعظام، هذا يقرأ، وذاك منصرف إلى التشريح في سكون... والبعض يلهو بالنكات أو مطاردة الجرذان التي كانت تجري هنا وهناك. والجثث المعدة للتشريح منتشرة على الموائد الحديدية، وجو الحجرة مشبع بحامض الفنيك والعقاقير المختلفة. فكان للحجرة طابع غامض... كأنه سجل مغلق لأسرار الحياة المجهولة لتلك الأجسام العارية الميتة.

وكان هذا الجو الغريب يطغى على وجدان يورا ويشغل باله. على أنه كان ذا عقل راجح، ومن ثم كان يحسن التفكير كما كان يجيد الكتابة. وكانت له أمنية منذ

صباه، هي أن يؤلف كتاباً عن دقائق الحياة وأسرارها، ولكن صغر سنه حال دون ذلك، فأقدم على تأليف ديوان شعر عجيب.

ويورا يعرف تماما مبلغ تأثير خياله في تكوين شخصيته. وكان نيقولاي نيقولايفيتش يقيم في ذلك الوقت في لوزان، وقد نشرت له كتب كثيرة بمختلف اللغات، عالج فيها نظرته إلى التاريخ ككون قائم بذاته، أوجده الإنسان بمعاونة الزمن، وكانت آراؤه تنم عن إدراك للمسيحية التي جنحت بالفن إلى اتجاه جديد.

وكان ميشا أكثر استجابة لهذه الآراء، فمال ناحية الفلسفة، وجعلها نبراسا لدراسته، وكان يميل أحيانا نحو دروس اللاهوت، آملا أن يتعمق في فقه الدين. وبقدر ما حررت يورا نظريات خاله، قيدت هذه النظريات ميشا بالأغلال. وأدرك يورا أن الأصل العنصري لميشا هو الذي كان يدفعه إلى التطرف.. بيد أنه كان يتمنى لو أن ميشا كان أكثر اعتدالا.

***

عاد يورا إلى البيت متأخراً في أمسية من أواخر أيام شهر نوفمبر، وكان متعبا، ولم يذق طعاما في يومه. فاستقبلته أنباء قاسية. إذ أخبران أنا أصابها تشنج، وأنهم استدعوا لها أكثر من طبيب. وأشار البعض على الكسندر الكسندروفيتش باستدعاء قس... ثم عدلوا. وفي الوقت الذي عاد فيه يورا، كانت أنا قد تحسنت، وطلبت أن يحضروا يورا إليها فور عودته، ولذلك بادر إليها على عجل.

ولاح ليورا، من أول نظرة، الارتباك والفوضى اللذان يشوبان الحجرة، ولمح ممرضة تعد شيئاً على منضدة بجانب الفراش، كما كانت المناشف ملقاة على الأرض مبلتة قذرة. وقد تحول الماء في الصحن إلى لون وردي لاختلاطه بالدم الذي كان يختلط ببصاق المريضة. وقد سبحت على سطحه الأنابيب وقطع القطن.

وقد اكتسى جسد أنا بالعرق المتصبب، كما جفت شفتاها وتشققتا، وكان وجهها أكثر شحوبا وهزالا عما كان عليه في الصباح.

وأخذ يورا من هذا الذي رآه وأخذ يتساءل:

– ترى هل حدث خطأ في التشخيص؟ أن أعراض داء الرئة ظاهرة بادية، ويخيل إلي أنها تعاني أزمة حادة!

وحياها وقد أخذ منه التأثر، محاولا أن يتظاهر بالشجاعة ليشجعها، ثم أشار إلى الممرضة بأن تترك الحجرة، وأمسك برسغ أنا وأخذ يقيس نبضها، وهم بأن يخرج المسماع من جيبه، وفي هذه اللحظة، حركت المسكينة رأسها كأنها تقول له:

– لا أمل!

ثم أردفت تقول:

– تليت الطقوس... الموت يحلق فوق رأسي.. في أية لحظة يحين... أنك حين تنزع سنا في فمك، تشعر بالخوف من الألم، وتروض نفسك... ولكن هذه ليست سنا.. أنها كلك... كل كيانك، ينتزع منك... ما هذا... لست أدري... أن قلبي يتفطر.. وأني واجفة!

ولاذت بالصمت... ثم انهمرت الدموع من عينيها، فران الصمت على يورا ولم ينبس ببنت شفة.

ثم عاودت أنا الكلام قائلة:

– أنك ذكي، موهوب، وهذا يرتفع بك عن مستوى الآخرين... فقل لي شيئا... يرتاح له بالي!

وهنا استجمع يورا شتات ذهنه وأجاب:

– حسنا، ماذا عساي أن أقول!

ثم غلبه اليأس، فنهض عن مقعده وراح يذرع الحجرة ذهابا وجيئة، ثم قال:

– ستتحسنين غدا ولا شك... أنني ألمح البشائر... بل أؤكد ذلك... أما الموت! ما هو وما كنهه؟ أنه يقظة الوعي... بل أنه البعث... أتريدين رأيي من الناحية العلمية؟.. ألا نرجئ ذلك؟ الآن؟.. حسنا، لك ما تشائين. ولكن ألا تعلمين أن من العسير أن يستجمع المرء شتات ذهنه بمثل هذه السرعة؟

ثم أخذ الكلام ينساب من فمه كما ينساب الماء في الجدول حتى لقد أذهله ما يقول:

– البعث!.. لا يروق لي ما يقال من كلام مرتجل للتسرية عن الضعفاء. فقد اعتدت أن أعي دائماً كلمات المسيح عن الحياة والموت على نمط آخر. كيف تكون الحياة لكل هذه الجحافل من الناس منذ بدء الخليقة؟ أن الكون على سعته، يضيق بهم ولا شك، وكذلك سوف يضيق الله، والمشاعر الإنسانية بهذه الجحافل! الحياة هي هي، تحتفظ بطابعها، وبكيانها، وهي سر مغلق غامض لا يدرك كنهه أحد، تتجدد في أشكال، وتتطور... ولعلك تتساءلين والقلق يأخذ بمجامعك عما إذا كنت ستقومين بعد الموت أو لا تقومين، على أنك قد قمت من قبل فعلا، وكان ذلك عندما ولدت، دون أن تفطني إلى ذلك... كما قد تأخذك الحيرة والتساؤل عما إذا كنت ستستشعرين ألماً، وهل تشعر الأنسجة عندما تتحلل... وبشكل آخر، ما الذي سيكون لوعيك؟.. ما هو الوعي أولا؟.. أن الاسترخاء للنوم– وأنت تشعرين بهذا الاسترخاء– هو مفتاح الأرق والسهاد.. وكذلك محاولة الوعي بعملية الهضم في جريانها، هو الباعث لإشاعة الاضطراب في المعدة... فالوعي سم يفتك حين نطبقه على أنفسنا! أو هو شعاع ينبعث من أعماقنا فيضيء لنا السبيل حتى لا

نتعثر. أنه المصباح في مقدم القاطرة أو السيارة، إذا حولنا شعاعه عن وجهته أدى إلى هلاك محقق! وماذا عساه يكون من أمر وعيك أنت؟ ولكن ماذا أنت؟... ذلك أقصى درجات الغموض... ولنحاول أن نكتشفه... ما ذلك الشيء الذي يحتويك، والذي تعرفينه بأنه.. أنت.. ماذا تعرفين عن كنه نفسك؟.. أهي الكلى، أم القلب، أم الكبد، أم الأوعية الدموية وأجزاء الجسم المختلفة؟.. لا. فمهما نقبت في ذاكرتك، فلن تعرفي إلا ظاهر جوهرك، إنسانية، متحركة، نشطة دائما.. في عملك، وبين أسرتك، وأهلك!.. والآن ماذا ترين؟.. أنك أنت– نفسك– في الغير!.. هذا ما كان وعيك يعيش عليه في حياتك... أنك نفسك، خلودك، بل حياتك في سواك!.. قد يسمى فيما بعد... ذكراك!... أنه سيكون "أنت" المستقبل... هناك نقطة أخيرة ليس هناك ما يدعو لأن تقلقي، أو يشملك الهم، فليس هناك ذلك الذي ندعوه موتا.. أن الموت ليس مهمتنا... لقد ذكرت الموهبة، وهذه يختلف أمرها، لأنها ملك أيدينا.. بل رهن إرادتنا!.. وأن تكوني موهوبة بأنبل المعاني، يعني أنك موهوبة للحياة!.. لن يكون هناك ثمة موت، يقول ذلك القديس يوحنا، فتأملي حجة ذلك، لأن الماضي قد انتهى... أنه أشبه بالقول أنه لن يكون ثمة موت، لأن الموت قد ولى، فهو قديم وقد سئمناه... أننا نحتاج إلى شيء جديد، وهذا الشيء الجديد هو.. الحياة الأبدية.

وكان يلقي بهذا الكلام وهو يروح ويغدو، ثم اقترب من الفراش، وبسط يده على جبين أنا وقال:

– ... فنامي!

وما هي إلا لحظات حتى راحت تستسلم للنعاس فعلا. فخرج يورا من الحجرة في هدوء، وطلب إلى "يورجوفنا" أن تدعو الممرضة لتكون إلى جوار المريضة. ثم أخذ يحدث نفسه:

– يا إلهي!... أي مشعوذ أوشكت أن أغدو!... أتلو تعاويذ، وأمسح بيدي على الجبين!!

ولما أشرق الصباح، كانت أنا أحسن حالا من الأمس.

***

وأخذت أنا تتحسن يوما بعد يوم، وفي أواخر شهر ديسمبر حاولت أن تنهض، ولشدة ضعفها، نصحها الأطباء بأن تركن إلى الراحة لتنال منها أكبر قسط.

وكانت عندما يحضر إليها يورا وتونيا تحدثهما في غير ملل عن ذكريات طفولتها في جبال "أورال"، عندما نشأت في ضيعة أبيها "فاريكينو"، عند نهر "رينفا" تلك الضيعة التي لم يرياها، ولكن يورا راح يصور في خياله تلك الآلاف من الأفدنة من الغابات الداكنة كالليل، يخترقها جدول متعرج في مجرى صخري.

ولأمر ما أنعمت الأقدار على يورا وتونيا بثياب للسهرة، وكانت هذه أول مرة يحظيان فيها بمثل هذه الملابس، وقد جاءت في يوم واحد. فارتدياها ليريا منظريهما فيها، وفي عزمهما أن يحضرا بهذه الملابس حفلة عيد الميلاد التي يقيمها كل عام آل سيفينتيتسكي. وإذ هما يزهوان في حلتيهما جاءهما من قال لهما أن أنا تطلبهما.. وما أن دخلا عليها، حتى نهضت معتمدة على مرفقها، وأطالت النظر إليهما في إعجاب، ثم قالت:

– جميل جدا... بل رائع جدا، ما دار بخلدي أن يتم صنعهما بهذه السرعة... دعيني أتأملك مليا ياتونيا في هذا الثوب الفاخر. أتعرفان لماذا دعوتكما؟... ولكن عندي لك أولا كلمة يا يورا!

– أعرف ما ستقولينه يا أنا.. لقد قرأت الخطاب، فقد أرسلته لك بنفسي، وأرجح أنك ستوافقين نيقولايفيتش فيما يراه، فكلاكما مقتنع أنه ما كان ينبغي أن

أرفض الوصية، ولكن.. مهلا! الكلام يسبب لك ضررا، فاتركيني أفسر الأمر، ولو أنك ملمة بدقائقه. نعم، إليك وجهة نظري: من مصلحة المحامين وجود قضية ضخمة رنانة... "قضية زيفاجو"، لأنهم مطمئنون إلى أتعابهم من أموال ضيعة أبي. ولكن ماذا بعد ذلك؟ لا تركة سوى الديون والارتباكات.. وكثير من الأمور الشائنة التي لا يجمل إعلانها على الملأ. وهل تظنين أنني كنت أتوانى لو أن هناك فائدة ترجى؟ ولكن القضية مجرد مصيدة!.. لذلك رأيت من الخير أن أرفض ثروة خيالية، حتى أستر الأقذار، وأن أتركها للمدعين الزائفين، ولعلك تعلمين أن من بينهم واحدة اسمها "اليس" تنسب نفسها إلى زيفاجو، وهي الآن في باريس مع أولادها. أنني أعلم بأمرها من زمن، وهناك أدعياء لا حصر لهم، ولا علم لي بهم، ولكن وصل إلى علمي نبؤهم. وأغلب الظن أن أبي عشق أثناء حياة أمي أميرة عجيبة النزوات اسمها "ستولبوتوف انريستي"، أنجبت منه طفلا اسمه "ايفجراف"، هو في العاشرة من عمره الآن. وتعيش هذه الأميرة في دار منعزلة، بعد أن باعدت بينها وبين المجتمع، لا تبرحها، ولا يعرف أحد مورد دخلها وقد وقع نظري مرة على صورة للبيت، فإذا به شاهق ذو طوابق كثيرة ونقوش بديعة. وخيل إلى أن البيت يبادلني النظرات. ولكن... ماذا أنتظر من كل هذا؟ ثروة وهمية.. أدعياء زائفين... شرا.. حسدا.. وأخيرا محامين وقضية!

وعندما انتهى من كلامه قالت أنا:

– بالرغم من كل ذلك، ما كان ينبغي أن ترفض!.. والآن أتعرفان لماذا دعوتكما؟ لقد تذكرت اسمه.. أتذكران حارس الغابة الذي كنت أتحدث معكما عنه بالأمس؟ اسمه "باكوس"، وهو اسم غريب ولا شك، فضلا عن أنه رجل يبعث القشعريرة في النفس، مارد أسود كالشيطان، لحيته تمتد إلى حاجبيه، وبوجهه ندوب، سببها أن دبا هاجمه ذات مرة، ولكنه استطاع أن يقاومه. أن الأسماء هناك على نمط واحد، لها رنين غريب: باكوس لوبوس ومن آن لآخر يعلن الخدم مقدم

شخص من هذا الطراز.. وقد يكون اسمه أوكتوس.. اسم له طنين مخيف، وكنا نتدافع هابطين إلى المطبخ.. ومن تظنه يكون القادم، قد يكون تاجرا أتى بجرو دب، وقد يكون ممن ينقبون عن الحديد في أقصى الضيعة أو جاء بقطعة منه... وكان جدك يغمرهم بماله وبخيره.

وفي هذه اللحظة أصيبت أنا بنوبة سعال، فأشار إليها يورا وتونيا بأن تخلد إلى الصمت، ففي التحدث ضرر بليغ!

– هراء في هراء. أنني بخير. علمت من يورجوفنا أنكما لا تنويان حضور الحفلة التي ستقام بعد يومين.. ولكن هذا سخف. ويجب أن تراجعا أنفسكما، وطبعا سوف تذهبان. ونعود الآن إلى "باكوس".. لقد كان حدادا وهو فتى، واشتبك ذات مرة في شجار، فأتلف نفسه.. لا تكن غبيا يا يورا، ولا يجب أن نصدق كل ما يقوله، ولكن هذه عادته فيما يقول للناس.

وفاجأها السعال مرة أخرى فقطع عليها الحديث مدة طويلة، وأخذت نوبة السعال تشتد بها دون أن تقوى على التقاط أنفاسها. فأسرع إليها يورا وتونيا ووقفا بجوار السرير وتلامست يداهما. وهنا أمسكت أنا باليدين في راحتها، وهي لا تزال تسعل، واستبقتهما متشابكتين فترة، حتى استطاعت أن تتكلم فقالت:

– إذا قدر لي الموت فكونا إلى جانبي.. لقد خلق كل منكما للآخر، فتزوجا!

ثم ارتفع صوتها وهي تهتف:

لقد خطبت كلا منكما للآخر!

ثم انخرطت في بكاء شديد.

***

ولم تكن لارا قد بلغت الصف الأخير من دراستها، في البيع من عام ١٩٠٦ . وكانت علاقتها بكوماروفسكي قد أطاحت بما بقى عندها من صبر نافذ، إذ كان يستغل ظروفها القاسية، بل كان أشد قسوة حين كان يعيرها بفجرها وعارها، متظاهرا بأنه لا يتعمد ذلك. فكانت تلميحاته كوخز الإبر في نفسها. وهو يرمي من وراء ذلك إلى هدم مقاومتها لرغباته الشهوانية. فراحت المسكينة تتخبط في عالم مختبل مبهم، سحره سم. فكانت تعبر عن الألم الممض الذي يجتاحها بضحكات هستيرية، وكانت المقاومة معناها الخضوع، والصد يعني الانصياع، فتمطر الرجل بقبلاتها، وهو مصدر عذابها وشقائها وتعاستها.

وخيل إليها أن لا مخرج لها مما هي فيه. وفجأة، شرد ذهنها وسبح بها التفكير، في اقتراب العطلة، وفي أن شواغل البيت والمدرسة لن تحول بينها وبين كوماروفسكي. ومن غير أن تدري، اهتدت إلى رأى قلب مجرى حياتها رأسا على عقب! وكان اليوم قائظا ينذر بعاصفة. وكان ضجيج المدينة يهفو إلى أذنيها كطنين النحل. وعبير ما حولها من الزهر وأوراق الشجر كأنه رائحة فطيرة عند محروم.

وكان الدرس– عندما سبح بها الفكر– عن حملة نابليون على مصر. وفي أثناء الدرس، قصف الرعد، واندفع الهواء إلى الحجرة محملا بسحب من الغبار والرمل، وأعقب ذلك انهمار المطر، وخرجت فتاة تنادي خادما ليغلق النوافذ.. وانتزعت لارا ورقة من كراستها، كتبت فيها رسالة لزميلتها ناديا كولوجريفوف تقول فيها:

"عزيزتي ناديا، أريد أن أعيش بمفردي، بعيدة عن أمي.. فهل أجد منك العون في الحصول على عمل، معلمة مثلا، بأحسن أجر مستطاع، فلك معرفة بكثير من الأثرياء"

وردت عليها ناديا قائلة:

"أبي وأمي يبحثان عن مربية لأختي "ليبا" فهلا أتيت للإقامة عندنا؟ أنها فكرة تروق لك ولا شك، خصوصا وأنت تعلمين مدى ولعهما بك".

***

انتقلت "لارا" إلى حياة جديدة– مدى ثلاث سنوات– لدى آل كولوجريفوف، أشد ما تكون اطمئنانا، فلم يحاول أحد أن يضايقها، ولا أمها وأخوها، وقد انقطعت الصلة بينها وبينهما، وابتعدا عن طريقها.

وكولوجريفوف، رجل أعمال غريب الأطوار، يمتاز بذكاء مفرط، لا يحب الأنظمة الواهنة، بل يزدريها. وكرجل أثري ثراء كبيرا، وارتفع من أصل عادي إلى مكانة عالية، كان يعطف على المجرمين السياسيين، ويأويهم في بيته، بل كان يوكل المحامين للدفاع عنهم. وقيل أنه كان يمد الثورة بالمال. وأغرم بالرماية حتى صار من أمهر الرماة، فكان يقضي أيام الآحاد في غابة سيربياني يدرب الثوريين على إطلاق النار.

وكانت زوجته "سيرافيما" ذات جمال رائع، وشخصية قوية، تختلف عن كثير من مثيلاتها. وقد تعلقت بها لارا، وأحبها أهل الدار جميعا من قلوبهم.

وانقضت ثلاث سنوات، لا تشوبها هموم، وفاجأها شقيقها روديا بزيارة لم تكن تتوقعها، حضر على حد قوله لمسألة تهمه. وأخذ يتمايل فوق ساقيه الطويلتين متظاهرا بالإغراق في الألم، يحملها على التأثر لحاله. وقد أخبرها أن زملاءه بالأكاديمية جمعوا مبلغا ليشتروا هدية يقدمونها للمدير، وعهدوا إليه بالمبلغ وباختيار الهدية وشرائها. ولكنه خسر المبلغ في المقامرة.. وما أن وصل إلى ذلك حتى خارت قواه وارتمى على أقرب مقعد وأجهش بالبكاء.

وأخذت لارا بالمفاجأة وظهر عليها الاستنكار والاشمئزاز، ولم يؤثر ذلك في روديا، فاستطرد قائلا وهو لا يزال يبكي:

– لقد قصدت كوماروفسكي، فصدني بخشونة، ولكنه ساومني في عودتك إليه، فإن سحرك لا يزال طاغيا عليه، ورغم مقاطعتك لنا... يا حبيبتي لارا... كلمة منك، تنقذني... أنك تدركين حرج مركزي، وأخشى أن يلطخ شرفي كطالب عسكري.. اذهبي إليه بالله عليك!

– ولكنها صرخت في وجهه باستنكار وهي تذرع الحجرة!

– مالي أنا ولحياتك، وشرفك؟ أنني لست طالبة عسكرية. افعلا ما تشاءانه بعيدا عني. هل أغلق على عقلك فلا تدرك ما تطلبه مني؟.. لقد رسمت طريق حياتي، وأعمل كالخادمة، بعيدا عنكم، كل هذه السنين، ثم أراك تأتي وتطلب مني ذلك الذي تطلبه!! ألا فاذهب إلى جهنم.. اقتل نفسك، فهذا أجدر بك وأولى... كم تريد؟

– سبعمائة روبل بالتمام يا أختاه؟

– أنك مجنون ولا شك يا روديا!.. أحقا ما تقول؟ هل قامرت بهذا المبلغ وخسرته! كم من الزمن يحتاج المرء ليحصل على مبلغ كهذا من عمل شريف؟

وأعرضت عنه وهي أشد ما تكون حنقا، ثم قالت بعد لحظة– في برود– وكأنها تخاطب شخصا لا تعرفه:

– حسنا، أعطني فرصة إلى الغد، وتعالى، على أن تحضر معك مسدسك.. ذلك المسدس الذي كنت تعتزم أن تقتل به نفسك، تسلمنيه، ومعه مقدار كاف من الرصاص... تذكر ذلك جيدا.

وأمكنها أن تحصل على المبلغ من.. كولوجريفوف.

***

ولم يحل عمل لارا عند آل كولوجريفوف دون إتمام دراستها في المدرسة، وانتقلت إلى الدراسة الجامعية، وكانت فيها ناجحة موفقة، وكان المفروض أن تتخرج في العام التالي ١٩١٢. وقد أتمت ليبا دراستها عام ١٩١١، وقد خطبها مهندس اسمه "فرايسندانك" وهو من أسرة ثرية عريقة. ووافق أبواها على الخطبة، ولكنهما عارضا في زواجهما في هذه السن المبكرة. فثارت ليبا– وهي الصغيرة المدللة– وراحت تصرخ وتدق الأرض بقدميها.

ولما كانت لارا تعيش بين أفراد هذه الأسرة كفرد منها، فلم يلمح أحد أمامها عن الدين الذي عليها، بل كأن أحداً من الأسرة لا يتذكره. وكان في مقدورها أن تسدده، لولا أنها فرضت على نفسها مصاريف لا يعلم بها أحد، فقد كانت ترسل نقودا إلى والد باشا– دون علمه– في سيبيريا، وتساعد أمه التي لازمها المرض، وتساهم في نفقات العلاج، بل ذهبت إلى أكثر من ذلك بأن كانت تدفع جزءا من أجر المسكن الذي حصلت له عليه بالقرب من مسرح الفنون.

وكان باشا يصغرها سنا، ولكنه تدله في حبها، ويأتمر لأتفه رغباتها. وقد جعلته يتحول بعد دراسة العلوم، إلى دراسة اللغات، وبخاصة اليونانية واللاتينية، ليصيب شهادة في الآداب. وكانت تهدف من وراء ذلك إلى أمل واحد... هو أن يتزوجا، وأن يرحلا إلى إحدى عواصم أقاليم جبال الأورال ويعملا بالتدريس.

ورافقت لارا أسرة كولوجريفوف عام ١٩١١ إلى دوبليانكا، وكانت هذه آخر مرة، وكانت أكثر شغفا بالمكان من أصحابه. وتبينوا ذلك فأصبح النزوح إلى هناك عادة دائمة. وعندما وصل بهم القطار، وقد أخذ الحمالون ينقلون المتاع، واتخذوا هم أماكنهم في المركبة، راحوا يصغون إلى الحوذي– في قميصه الأحمر، وسترته التي كانت بدون أكمام– وهو يروي لهم أنباء الموسم.. وقد سحر لارا سكون الريف الهادئ العميق، ذو الرائحة الزكية فآثرت أن تمضي إلى البيت سيرا.

وكان الطريق يحاذي السكة الحديدية، ثم ينحرف إلى الحقول. وقد وقفت لارا عند هذا الانحراف، وأسلمت نفسها لسجيتها، فأغمضت عينيها، واستنشقت الهواء بكل ما استطاعت من قوة إلى رئتيها، يحمل معه أريج الريف الساحر، حتى أخذها ذلك الجو الخلاب، فأضحى أعز لديها من أهلها، بل أحب من حبيب، وأغزر حكمة من كتاب! واكتشفت سرا كان مغلقا لمعنى حياتها.

وأرهقتها الواجبات الكثيرة، مما سبب لها الاضطراب والتهيج، فكانت تتألم لأتفه الأمور، ولم تكن هذه الحساسية عندها في سابق عهدها. إذ كانت من قبل أشد كرما وأكثر تسامحا. ولشدة تعلق آل كولوجريفوف بها، رغبوا في ألا تفارقهم. ولكنها، وقد كبرت ليبا، رأت أنه لم يعد لها بينهم مكان، فأبت أن تتقاضى أجرا، حتى اضطروا إلى أن يعطوه لها رغم إرادتها. وذلك في الوقت الذي كانت فيه في أمس الحاجة إلى النقود.

واعتقدت أن وجودها بينهم زيف، وخيل إليها أنهم يضيقون بها ذرعا، دون أن يظهروا ذلك، بل ذهبت إلى أكثر من ذلك فاعتقدت أنها عبء على نفسها، وكانت تتمنى لو أنها تجري هاربة من نفسها وممن استضافوها، ولكنها آلت على نفسها أن ترد دينها الذي اقترضته، وكان ذلك عسيرا، فاعتبرت نفسها رهينة بسبب تصرف روديا الأحمق، ولذا أخذت الهموم تأكل نفسها وتفري قلبها.

وتحت ضغط هذا الإرهاق العصبي كانت تفهم كل لفتة أو حركة على عكس معناها، فإذا رأت اعتناء، ظنته شفقة لأنها "مربية"، وإذا لمست إهمالا بشأنها، ظنته احتقارا وعدم شعور بوجودها.

وفي نفس الوقت كانت تشاطرهم مسراتهم، وتظهر في حفلاتهم الرائعة. فكانت تشارك الجمع في السباحة، والنزهات الليلية، والرقص، وإطلاق الصواريخ،

كما كانت تشترك في التمثيليات، ومباريات الرماية، وكانت تحسن التصويب نحو الهدف، وكانت تقول وهي تضحك:

– مما يؤسف له أنني امرأة.. فلولا ذلك لذاع صيتي كمبارز ماهر!

وكلما كانت تسعى إلى التسرية عن نفسها، ازدادت إدراكا لما تبغي، ومن ثم ازدادت شعوراً بالتعاسة!

واشتدت وطأة الضيق بها عندما عادوا إلى المدينة، فقد أضيفت إلى همومها هموم جديدة، إذ ساءت علاقتها بباشا، حتى وصلت إلى حد الشجار معه، وقد كانت ترى فيه ملاذها فقد تغيرت لهجته وحديثه معها عن سابق عهده وكان يلذ لها هذا التغير من جانبه ويغيظها في نفس الوقت.

وهكذا تآمرت عليها الهموم من كل جانب، باشا، وليبا، وآل كولوجريفوف، المال. فكان كل ذلك في رأسها كالدوامة. حتى كرهت حياتها وسئمتها.. وكاد يودي بها ذلك إلى الجنون، فكانت تتمنى أن تتحرر من كل شيء. وأن تشرع في حياة جديدة ليس لها بها عهد. وانتهى بها مطاف الفكر– وكان ذلك في عيد ميلاد سنة ١٩١١– إلى قرار حاسم يتعلق بمستقبلها ومصيرها.. ذلك هو أن ترحل عن دار آل كولوجريفوف فورا، وأن تحيا حياة مستقلة.. وأن تحصل على ما تحتاج إليه من مال من كوماروفسكي! فقد خيل إليها بعد هذه القطيعة الطويلة، أنه يرى أن من الشهامة أن يمد لها يد المساعدة دون أن يطلب منها شيئاً.

وإذا استقر بها الأمر إلى هذا الرأي، انطلقت نحو شارع بتروفكا، في يوم من أواخر شهر ديسمبر، وفي يدها، التي يحيط بها الفراء، المسدس الذي حصلت عليه من روديا، محشوا بالرصاص، وصمام الأمن مرفوع عن زناده. فقد استقر في عرفها أن تقتل كوماروفسكي إذا هو رفض، أو إذا هو حاول إذلالها وتحقيرها!

وأخذت طريقها في الطرقات التي شملها طابع العيد، وهي في أشد حالات الانفعال، تكاد لا ترى ما يصادفها، وذهنها يتركز في الرصاصة التي ستطلقها بغمزة من أصبعها.. وقد خيل إليها أنها تسمع دوي الرصاصة طيلة سيرها نحو شارع بتروفكا... وهي منطلقة نحو هدفها كوماروفسكي.

***

تقدمت إيما ايرنستوفنا لتساعدها على خلع معطفها، ولكنها بادرتها بقولها:

– لا تقربي فراء يدي!

وكان استقبال العجوز لها بالغا إذ أمطرتها بوابل من كلمات آه.. وأواه يا عزيزتي، ثم أشارت عليها بأن تستريح قليلا ريثما يعود كوماروفسكي من الخارج. ولكن لارا ردت قائلة:

– ليس في استطاعتي، وقتي لا يسمح بذلك! أين هو بحق السماء؟

وكان كوماروفسكي في ذلك الوقت مدعوا في حفلة عيد الميلاد. على أن لارا عرفت منها العنوان، وأسرعت تهبط درجات السلم المظلم، وكانت تعرفه جيدا، وقصدت دار آل سيفينتيتسكي الكائن بشارع موشندي. ولم تلق بالا إلى المدينة، أو تهتم بليل الشتاء إلا بعد خروجها. إذ لذعتها شدة البرودة. وكأنها ترى لأول مرة الشوارع وقد كستها طبقة سميكة داكنة من الجليد! وضايقها الهواء المشبع بالصقيع إذ كان يلسع وجهها في ألم.

وأخذت دقات قلبها تشتد، وهي تسير في الطرقات، وعلى جانبيها انتشرت بعض المطاعم تنبعث منها رائحة الشواء، وطالعتها وجوه حمراء، وجياد وكلاب. وكانت أشجار عيد الميلاد تلوح من خلال زجاج النوافذ تنبعث منها أضواء باهتة وأشباح المحتفلين.

وأوشكت أعصابها أن تنهار عندما مرت أمام مسكن باشا وأخذت تحدث نفسها بصوت يكاد يكون مسموعا:

– من المستحيل أن أمضي، لابد أن أراه وأروي له كل شيء.

ثم حزمت أمرها ودخلت المبنى.

***

وكان باشا في هذه اللحظة، يتأمل نفسه في المرآة وقد احتقن وجهه، وهو يحاول أن يضع الياقة في قميصه، حيث كان يتأهب للذهاب إلى إحدى الحفلات. وظهر عليه الارتباك حين فوجئ بدخول لارا من غير أن تطرق الباب. ولم يكن قد أتم ارتداء ثيابه. على أنه لمح شدة انفعالها، فقد كانت قدماها لا تكادان تقويان على حملها. ثم اقتربت منه وهي تزيح ذيل ثوبها.

فأسرع يقول:

– ماذا دهاك؟ ماذا حدث؟

– اجلس أولاً إلى جواري، ودعك من ثيابك الآن. فليس لدي وقت ويجب أن أنصرف بعد فترة قصيرة.. حاذر أن تمس فراء يدي.. لا تنظر إلي.. بل أدر وجهك للناحية الأخرى.

وقد أطاعها دون أن يعترض، فخلعت معطفها ودست المسدس في جيبه ثم علقته على المشجب. ثم عادت إلى مكانها من الأريكة، وقالت:

– انظر إلي الآن.. يا الهي.. أضيء المكان بشمعة، وأطفئ النور الكهربائي.

لقد كانت تميل إلى العتمة، أو الضوء الضعيف. وكان لحسن الحظ يحتفظ بعدد من الشموع، فتناول إحداها وأشعلها، وأخذ لهبها يهتز في ضوء باهت، ثم

عاد واستقام، وغمر الحجرة ضوء هادئ. وأذاب اللهب الثلج المتراكم على زجاج النافذة، وترك ثغرة سوداء. وعندئذ قالت لارا:

– أنني في محنة يا باشا، وأطلب إليك أن تساعدني! لا يأخذنك الجزع، ولا تقاطعني بالأسئلة!.. لا تظن أننا كغيرنا.. أصغ إلي ما سأقول.. يهددني خطر فظيع، فإذا كنت تحبني حقا، وإذا عز عليك هلاكي، فأرجو ألا تبطئ في الزواج مني!

وهنا هتف باشا:

– تعلمين أن هذا مشتهاي! أنني مستعد أن أتزوجك في أي وقت تشائين. ولكن بالله ماذا يكربك؟! أفصحي ولا تعذبيني. ولكن لارا تجاهلت سؤاله وأدارت دفة الحديث، فظلا يتحدثان لفترة طويلة في أمور لا تمت لهمومها بصلة.

***

انهمك يورا– في فصل الشتاء– في إعداد رسالة عن الجهاز العصبي للعين– كي يحظى بالميدالية الذهبية التي خصصتها الجامعة لذلك. ورغم حصوله على أجازة الطب العام، إلا أنه تفوق بدرجة تشبه التخصص في تركيب العين وطبيعة الأبصار، فقد كان بطبعه شغوفا بهذه الناحية، علاوة على مواهبه الفذة، ومع اهتمامه بالصلة بين الفن والخيال، والتركيب المنطقي للأفكار.

وكانت العادة المرعية في حفلات عيد الميلاد عند آل سيفينتيتسكي منذ أقدم الأزمة أن تضاء شموع شجرة العيد في الساعة العاشرة بعد انصراف الأطفال، كي يبدأ احتفال العيد للكبار وحدهم ويستمر حتى الصباح.

وليس في مقدور المتقدمين في السن أن يرقصوا كالشبان، لهذا كانوا يجتمعون في حجرة من حجرات الجلوس تفصلها عن بهو الرقص ستائر سميكة،

وينصرفون إلى لعب الورق، ويتركون الرقص والموسيقى لمن هم أصغر سنا. حتى إذا طلع الفجر جلس الجميع إلى مائدة الإفطار معا.

وخلع يورا وتونيا معطفيهما وقبعتيهما، وألقيا نظرة على بهو الرقص، ولكنهما لم يدخلا، بل اتجها إلى حيث كان رب البيت وربته في الطرف الآخر من البيت.

والحجرات الخلفية من ذلك البيت كان مكتظة بالأثاث الذي رفع من البهو كي يتسع للراقصين. وفي هذا الجزء من البيت قلب الحفلة النابض، وهو المطبخ وملحقاته، وقد تناثر الورق الملون والصمغ والعلب الفارغة والشموع، مما يستخدم في إعداد الهدايا ليلة العيد. وانهمك سيفينتيتسكي وزوجته في كتابة أسماء الحاضرين على بطاقات تبين مكان كل من المدعوين على مائدة العشاء، وفي إعداد أرقام لإجراء يا نصيب وكان يساعدهما في ذلك جورجي ابن أخت سيفينتيتسكي.

واغتبط الرجل وزوجته بمقدم تونيا ويورا، لأنهما كانا يعرفانهما منذ طفولتهما. واشترك الاثنان مع أهل البيت بلا تكلف. وهكذا قدر لهما أن يقضيا جانبا كبيرا من السهرة بعيدا عن صخب الحفلة.

وفي هذه الأثناء كانت لارا في بهو الرقص ترقص الفالس من غير أن تكون لها معرفة بأحد من المدعوين. فكأنها إنسان يسير وهو نائم أو يضرب على غير هدى. وخرجت أكثر من مرة من الحفلة لتقف أمام ستائر حجرة الجلوس وفي مرجوها أن يلمحها كوماروفسكي الذي كان يجلس في الصدر. ولكنه كان يخفي عينيه بأوراق اللعب. فلا يمكن أن تعرف هل كان يتعمد تجاهلها، أم أنه لم يرها. ولكنها شعرت بالمهانة وكادت تنشق غيظا.

ودخلت فتاة لا تعرفها لارا– من قاعة الرقص إلى حجرة الجلوس فرشقها كوماروفسكي بنظرة من نظراته الداعرة أيقظت في نفسها تاريخها القديم معه. ورأت

وجه الفتاة يتضرج بالحمرة وهي تبتسم مختالة بذلك الإعجاب. فاشتد غيظ لارا وكادت تصيح بأعلى صوتها:

– هاكم فريسة جديدة!

ورأت أن تؤجل حديثها معه إلى فرصة أخرى، وتحاملت على نفسها وعادت إلى بهو الرقص. وأخذت ترقص مع شاب اسمه كوكا. وفهمت من كلامه أن والده هو كورناكوف الجالس عن يسار كوماروفسكي على مائدة اللعب. وأن أمه تلك المرأة الطويلة السمراء التي تتردد بين البهو وقاعة الجلوس لتشاهد ابنها وهو يرقص وزوجها وهو يقامر. ثم عرفت أن الفتاة التي دخلت قاعة الجلوس وذكرتها ببداية انزلاقها هي أخت كوكا. فأدركت أن ما خطر ببالها من استجابتها لنظرات كوماروفسكي تخمين لا سند له.

وأجهدت لارا ذهنها لتذكر ما تعرفه عن كورناكوف والد كوكا وأخيرا تذكرت أنه وكيل النيابة الذي وقف يترافع ضد عمال السكة الحديدية الذين أضربوا، وكان تيفرزين من بينهم وكانت مرافعته ضدهم حالة بالتحامل الجارح.

***

وقرب الثانية صباحا كان يورا واقفا وسط البهو يرقب تونيا وهي تراقص شخصا لا يعرفه. والحق أنها كانت مستثارة الحواس بتلك الحفلة، لا تكف عن الحركة، ترسل إليه البسمات والنظرات وهي تدور مع مراقصها المجهول. وبين الحين والحين كانت تلتهم اليوسفي لتروي عطشها.

وفي إحدى الدورات ضغطت تونيا على يده، وكان بها منديل صغير تمسح به آثار اليوسفي من فمها وأصابعها، فاستبقاه في يده ووضعه على فمه وأغمض عينيه منتشيا!

وعندئذ دوي طلق ناري قرب البهو، فاتجهت الأنظار إلى الستائر المسدلة على قاعة الجلوس، وساد الصمت برهة ثم انفجرت الضجة والزؤاط. وأسرع

الجميع وفي مقدمتهم كوكا إلى قاعة الجلوس حيث قدروا أنها مصدر الصوت. واندفع من داخل الحجرة من كانوا فيها، وبينهم كوماروفسكي وراحت والدة كوكا تصرخ كالمجنونة.

– يا زوجي الحبيب! أدركوني بطبيب! قتلك المجرمون فرحت شهيد مبادئك! لا قلعن عينيك أيتها العاهرة! ماذا تقول يا سيدي كوماروفسكي؟ كانت تقصدك أنت؟ ليس هذا وقت المزاح يا سيد كوماروفسكي! أتصدق يا حبيبي كوكا أن هذه الفاجرة كادت تقتل أباك لولا أصبع الله!

وأخذ الضجيج في الهدوء عندما رأوا كورناكوف نفسه مقبلا من قاعة الجلوس، يضحك من خدش في يده اليسرى.

وتجمع عدد من الناس حول لارا يجذبونها من ذراعيها. فدهش يورا ولاسيما حين رأى ذلك الرجل الأشيب، فعرف فيه المحامي المشهور كوماروفسكي الذي لعب دورا هاما في تصفية تركة أبيه. ولم تكن به حاجة إلى تحيته، لأن كلا منهما تعمد أن يتجاهل الآخر. ولكن لماذا أطلقت هذه الفتاة الرصاص على وكيل النيابة؟ لابد أن يكون هناك سبب سياسي وهي على كل حال تستحق هذه الخشونة التي يعاملها بها من يجرونها من ذراعيها بفظاظة وكأنها لصة عادية!

وأوشك أن يغمى على لارا، فأجلسوها على مقعد. واقترب يورا منها ليعني بأمرها، لولا أنه تذكر أن الموقف يقتضي الاهتمام أولا بالضحية. فاقترب من كورناكوف وقال له:

– هل استطيع أن أقدم أية معونة لسيادتكم؟ أنني طبيب. أرني يدك!

وبعد أن فحص اليد الممدودة إليه قال له:

– أنك سعيد الحظ حقا. فهو خدش هين لا يكاد يستوجب التضميد. وبحسبك أن تضع عليه نقطة من صبغة اليود.

وفي هذه اللحظة أقبلت تونيا مرتاعة وطلبت منه أن يرتدي معطفه على الفور لأن رسالة وصلت من البيت تحتم عليها العودة فورا.. فأسرع إلى معطفه، وقد خطر برأسه أسوأ الفروض.

وعندما وصلا إلى البيت كانت آنا قد فارقت الحياة منذ عشر دقائق بنوبة مفاجئة من نوبات الربو. وأصيبت تونيا من هذه الصدمة بنوبات من الصراخ الهستيري شقت صمت الساعات الأولى من صباح العيد. ثم هدأت قليلا في اليوم التالي ولكنها لم تفارق فراش الراحلة، وظلت راكعة تصلي ولما وضعوا الجثمان في الصندوق طوقته بذراعيها الجميلتين وهي غائبة الوعي عن كل ما حولها.

وأثر جو الوفاة والبكاء والتراتيل الحزينة والشموع الموقدة ليلا ونهارا، والبرد القارس في حالة يورا النفسية، فامتلأ أسى ولوعة. بما تجدد لديه من ذكريات وفاة أمه قبل عشر سنوات.

على أنه عندما فجع في والدته وهو طفل لم يكن يدري من أمر كينونته شيئاً. لا يعرف له ذاتا متميزة عن الناس والموجودات أما الآن، فقد عرف له ذاتا متميزة، غذاها الدرس الطويل في الآداب والعلوم والطب والشعر والدين. فهو اليوم لا يحس بالارتياع أمام فقدان عزيز ولا يحس بالجزع. ولكنه يحس الأسى والوحشة.

ولما انتهت صلاة الجنازة وضع الصندوق في العربة التي أخذت تهتز وهي تشق طريقها فوق الجليد، وتحرك الناس متقاربين في سيرهم ليقاوموا البرد وهم في طريقهم إلى المقبرة، في الناحية الأخرى من المدينة.

وفي تلك المقبرة بالذات ثوت أم يورا من قبل. فألم بقبرها الذي لم يزره منذ سنين، فلما وقعت عيناه على الضريح الصغير انطلقت من فمه همسة ملتاعة:

– أماه!

الفصل الرابع

تأزم الأمور

أخذت ربة الدار لارا إلى فراشها فارتمت محمومة لا تكاد تعي شيئا مما حولها. وحف بها أهل البيت والخدم والدكتور دروكوف، لا يتحدثون إلا همسا. وكان كوماروفسكي يسير في الدهليز أمام الباب كالحيوان الحبيس في غضب، وكأنما هذا البيت بيته، لا يتحرج فيه من شيء. فإذا سئم منظر باب المخدع المقفل تمشي إلى البهو حيث شجرة العيد، وإلى قاعة المائدة التي لم تمتد يد إلى صحافها.

كان الغضب مستوليا عليه لأن فعلة لارا كادت تعرض مركزه للفضيحة وسمعته للخطر. وكان أكبر ما يغيظه أن تأثير هذه الفتاة المتوحشة عليه كان تأثيرا من نوع خاص للغاية. لم يستطيع أن يروضها كما روض الأخريات. وكانت مصرة على إعادة بناء حياتها الذي ترك عليه طابعه المدمر. وهو نفسه لا يستطيع أن ينكر أن من واجبه مد العون لها. كأن يكتري لها حجرة في نزل أو في بيت. ولكن بشرط أن يقطع الصلة بينه وبينها، إذ لا يأمن بعد الذي حدث منها أن تندفع في نوبة من نوبات هياجها إلى مدى لا يعلمه إلا الله.

وليس هو بالذي يجهل موقف القانون– وهو المحامي المتمرس– من عمل كهذا. فرجال البوليس حضروا مرتين مع أنه لم يمر على وقوع الحادث إلا ساعتان. ووجد مشقة في تأجيل التحقيق قليلا. ولكن لابد أن يبدأ. وعندئذ سيعرفون الصلة التي تربطه بها. وأنه كان المقصود لا وكيل النيابة كورناكوف. ولكن ذلك لن يكفي لتبرئة ساحتها. فلابد له من الاحتيال لدى الطبيب الشرعي كي يشهد بأنها لم تكن متمالكة أعصابها حين أطلقت النار.

وتسربت بواكير الضوء من النوافذ. ولم تزل حالة لارا على ما هي عليها، فخرج كوماروفسكي يائسا، وتوجه إلى صديقته روفينا، وهي سيدة تشتغل بالأعمال القضائية، هاجر زوجها السياسي إلى الخارج. ومسكنها يضم ثماني غرف، ليست بها حاجة إليها كلها، فهي تؤجر غرفتين للغرباء وهو يعلم أن أحداهما خالية من الوقت الحاضر.

وفعلا استأجر كوماروفسكي هذه الغرفة لتقيم فيها لارا، وتولى نقلها إليها بعد بضع ساعات، مع أنها كانت تحت تأثير الحمى ولم تسترد وعيها بعد.

***

وروفينا امرأة تقدمية، تناصب الطغيان بجميع مظاهره عداء علنيا، وتناصر كل فكرة ترى فيها نفعا للمجتمع، وتقدما للبشرية.

ومن أول وهلة لم ترق لارا في نظر روفينا. وظنت هذيانها بسبب الحمى تمثيلا وتمارضا. فلم تكتم ازدراءها لها. واستخفافها بمرضها. وعبرت عن ذلك بأن جعلت تصفق الأبواب في عنف، وترفع عقيرتها بغناء صاخب، وتترك النوافذ في صقيع الشتاء مفتوحة طول النهار.

وزارها كولوجريفوف والد ناديا صديقتها القديمة. وكان رجلا وسيما فارع الطول بشوشا حاد الذكاء، وخفف عنها محنتها. وسألها عن أحوالها، ثم قال لها وهو يفرك يديه وينظر فيما حوله:

– أن الرطوبة هنا شديدة. وصاحبة البيت امرأة أعلم أنها شريرة سيئة المعاشرة. ومن الأفضل لك أن تتركي بيتها وتستقري في مكان مناسب، وتحاولي إتمام دراستك بروح جديدة. ولي صديق رسام سيسافر إلى الخارج لمدة سنتين وملحق بمرسمه جناح منفصل صغير، فما رأيك في الانتقال إليه. ثم..

ولم تفد معارضتها بل مقاومتها في منعه من ترك شيك بمبلغ عشرة آلاف روبل على الوسادة قبل أن ينصرف.

وانتقلت لارا بعد أن تمالكت قواها قليلا إلى ذلك المسكن الذي اختاره لها والد ناديا. وهذا المسكن في بيت قديم ذي طابقين. ويشاركها في جزء آخر من البناء جماعة من الحمالين والحوذية. أما الطابق الأرضي فمخزن للبضائع. والفناء مرصوف، ولكنه لا يخلو أبدا من البرسيم والشعر اللازم لطعام الخيل. فكانت أسراب الحمام تهبط باستمرار لالتقاط الحب. والجرذان تعبث لأنها تسكن بكثرة في مخزن البضائع.

***

أما باشا فكان قلقه على لارا شديدا. وكان شعوره غريبا أليست لارا قد حاولت أن تغتال رجلا لا صلة لها به فيما يعلم. ثم إذا هذا الرجل نفسه يستميت في إنقاذها من قبضة العقاب القانوني. أليس في كل ذلك ما يدعو إلى أن تنهش الغيرة والهواجس قلب باشا المسكين؟

وما أن تحسنت حالة لارا حتى أرسلت إليه. فلما دخل عليها بادرته بقولها:

– أني امرأة شريرة، ولست تعرف مبلغ سوء معدني. سأقول لك كل شيء في يوم ما. أما الآن فلا أستطيع لأن حالتي العصبية لا تمكنني من ذلك. فانج بنفسك، واجتهد أن تنساني، لأني لست أهلا لك!

وأصبح الموقف بعد ذلك لا يطاق. لأن دموعه أخذت تنهمر ولكنها أصرت على أن تقطع كل ما بينهما من صلة. وجعلت تؤكد أن حبها له قد مات.

ولكنها وهي تقول ذلك كانت تنتحب انتحابا موجعا للقلب يؤكد عكس أقوالها.

وكانت هواجس باشا التي تملأ رأسه ترمي لارا بأشنع التهم المميتة والخطايا المهلكة. وهو الفتى الشديد الغيرة، الذي يكاد يغار عليها من الكوب الذي يمس شفتيها ومن الوسادة التي تضع رأسها فوقها!

وكما هو طبيعي، كان لابد لهذه الأزمة العاطفية من حل سريع حازم عنيف. فاتفقا بين الدموع والقبلات على أن يتم زواجهما في أول يوم أحد بعد العيد.

وحينما تم زفافهما كانا قد تخرجا بنجاح وكان اليوم لطيفا بهيجا. وأقيمت في الموسم حفلة إفطار بعد الخروج من الكنيسة. وغنت إحدى الصديقات أغنية من أغنيات الزفاف التي ينشدونها في الريف، وشرب الجميع ومرحوا.

ولما انصرف المدعوون، وخلا المرسم إلا من العروسين ساد الصمت بينهما واستولى الاضطراب على باشا وعبثا حاول أن يحجب النور المتسرب من النافذة بمحاولات عقيمة متكررة، إلى أن اكتشف أنه كان معنيا بذلك الشعاع العنيد من الضوء، أكثر من عنايته بالعروس نفسها!

وفي هذه الليلة اعترفت له لارا بجميع خفايا حياتها. وكان هو كالذبيح الذي يستعذب حز السكين، يلاحقها بالسؤال تلو السؤال، وهي تجيبه بصراحة كاملة وبغير تردد، غير مخفية شيئا مهما كان أليما ومخجلا.

وطال حديثهما حتى الصباح. فلم يطلع صباح على "باشا" بتغير حاسم كما طلع ذلك الصباح. فقام من الفراش إنسانا آخر، مفتوح العينين، تكاد لا تكون له صلة بذلك المخلوق الساذج الذي عرف حتى اليوم باسم باشا انتيبوف.

وبعد أسبوع تقريبا أقام الأصدقاء حفلة توديع للعروسين، لأنهما حصلا على أثر نجاحهما بتفوق على عملين في مدينة واحدة بإقليم الأورال. وكانا قد أتما استعدادهما للسفر إلى مقرهما الجديد في اليوم التالي.

وأقيمت الحفلة في المرسم نفسه، حيث أقيم احتفال الزواج. وشرب الحاضرون وارتفعت ضجتهم وضحكاتهم وغانيهم. لأن المجموعة في هذه المرة كانت كلها من الشباب.

وخلف الساتر الذي يفصل المرسم عن المسكن صفت سلال الأمتعة، وحقيبة ثياب لارا، وصندوق الأواني الخزفية، وجملة لفائف أخرى. وبين الحين والحين كانت لارا تتذكر شيئا نسيته فتدسه في إحدى السلال بعناية حتى لا يفسد ترتيبها.

وكان الحاضرون يوزعون على بعضهم البعض الفودكا بسخاء ويتناولون من الطعام والمشهيات بلا حساب. أما لارا فكانت مستثارة الحس بهذه الصفحة الجديدة التي ستبدأ في حياتهما وهمست في أذن باشا وهي تضغط على يده:

– أنا في حالة إعياء من شدة التعب. فهل أنت واثق أنك أعددت كل شيء للسفر ولم يفتك شيء من الترتيبات؟

– كل شيء أعددته بعناية.

فتنهدت لارا، وقالت:

– كم أشعر بالسعادة لأننا سنرحل نحن الاثنان فقط بعيدا عن هنا.

وسكتت لحظة ثم سألت

– ألست سعيدا أنت أيضا؟

– طبعا!

وكان كوماروفسكي هو الكهل الوحيد الذي حضر الحفلة. فلما أوشكت على الانتهاء انبرى يتحدث عن ألم الفراق. وأنه سيجد مشقة في احتمال بعاد صديقيه الصغيرين. وكيف أن موسكو ستبدو لعينيه خاوية كالصحراء القفر!

وغلبه الانفعال تحت تأثير الفودكا، فجعل يبكي ويعيد ما قاله مرة أخرى. متوسلا إلى باشا ولارا أن يسمحا له بمراسلتهما. ثم لم يكفه هذا فطلب منهما الإذن في أن يصحبهما إلى الأورال إذا وجد لحظة الفراق لا تحتمل!

ومن غير أن تدري ما هي قائلة ارتفع صوت لارا تقول له:

– كلا. لا تفعل! لا لزوم لهذا! ما فائدة الرسائل والكلام عن الصحراء القفر وما إلى ذلك؟ لاشك أن الله سيساعدك على احتمال فراقنا. ثم لا تنس أننا شخصان عاديان، وليس العثور على أمثالنا بالشيء العويص. تأكد أنك ستجد من يسد مكاننا من المعارف الجدد.

وكأنما تذكرت شيئاً نسيته فوثبت إلى المطبخ، وأخذت مفرمة اللحم ودستها في إحدى السلال وأحاطتها بالقش. فخدشت يدها حافة أحد الصناديق. ولكنها لم تأبه لذلك ولم تلق إليه بالاً لانهماكها في ترتيب حوائج السفر. حتى أنها نسيت ضيوفها، إلى أن ذكروها بأنفسهم حينما علت ضجتهم وضحكاتهم. فقطبت حاجبيها وخيل إليها أنهم يبالغون في تمثيل السكارى.

ورن جرس الباب ففتحه أحد الحاضرين، وأرهفت لارا أذنيها، فإذا بها تسمع صوت ناديا، فاندفعت للقائها. وكانت ناديا قادمة لفورها من القطار، وقد اكتسبت صحة ونضرة، وفاحت منها رائحة الزنابق النامية في ذلك الركن من الريف.. وعقد التأثر لسان الصديقتين، فتعانقتا والدمع يسيل على وجناتهما في صمت.

وحملت ناديا إلى لارا تهنئة الأسرة وتمنياتها الحارة، ثم أخرجت من حقيبة سفرها هدية أبويها وهي علبة حلي، فتحتها وأخرجت منها عقدا جميلا يخطف الأبصار ببريقه.

والتف الحاضرون حول العقد الجميل مبهورين بنفاسته، وكل منهم يضعه على كفه. وكان العقد من الياقوت الأصفر وهو لا يقل نفاسة عن الماس.

وأجلست لارا صديقتها ناديا إلى جوارها على المائدة وقدمت لها الطعام. وأمامها العقد في الصندوق المفتوح إلى جوار الطبق، ولارا تحول عينيها عنه لسحره الأخاذ كأنه قطرات الندى المتبلورة، أو عنقود صغير من عناقيد الكرم.

وانتابت الحاضرين نوبة أخرى من الشراب إكراما لقدوم ناديا. وشربت معهم هي أيضا هي انتشت.

ولما كان معظم الموجودين سيصحبون لارا وباشا إلى المحطة، فقد قرروا المبيت في المنزل فنام معظمهم في أماكنهم من شدة السكر. بل أن لارا نفسها نامت على أريكة بكامل ملابسها، إلى أن نبهها صوت حصان مربوط في الفناء المرصوف بالحجارة ففتحت عينيها وتساءلت:

– ما الذي يدعو باشا إلى السير في الحجرة هكذا؟

فلما التفت نحوها الرجل الذي ظنته باشا، إذا خلقة بشعة بها آثار الجدري وجرح عميق من الحاجب إلى الذقن. فأدركت على الفور أنه لص. وفتحت فمها لتصرخ، بيد أن صوتها احتبس. وتذكرت العقد فقامت من موضعها بحذر ورفق ونظرت إلى المائدة حيث تركته. فوجدته في مكانه بين بقايا الطعام، لأن اللص الأبله كان يكتفي بالتفتيش في السلال والحقائب، فأفسد جهودها في ترتيبها.

وتنبهت إلى وجود إحدى المدعوات نائمة بجوارها فلكزتها بركبتها في بطنها لكزة شديدة. فصرخت المسكينة من الألم. وانفك أيضا لسان لارا فصرخت. وذعر اللص وألقى ما بيده من المسروقات وانفلت هاربا.

وأيقظ الصراخ جميع النائمين السكارى. وحاول بعضهم اللحاق باللص ولكنه اختفى كالزئبق عن الأنظار. ولم يستطيعوا بعدها النوم، فأعدت لارا القهوة الساخنة ثم صرفتهم إلى بيوتهم ليستريحوا حتى تحين لحظة السفر.

وانهمكت لارا في إعادة ما اضطرب من المتاع والحقائب وأخذت تحزمها بالحبال. وتمكنت من إعداد كل شيء في الوقت المناسب.

وهكذا ركب آل أنتيبوف القطار، والأصدقاء على رصيف المحطة يلوحون بالقبعات والمناديل ويرددون كلمات الوداع، إلى أن اختفى القطار عن الأنظار.

***

استمر الجو مكفهرا موحشا ثلاثة أيام على التوالي. فنحن في الخريف، ثاني خريف للحرب. وقد انتهت انتصارات العام الأول وبدت موجة من التراجع. فالجيش الذي حشد في جبال الكربات كي يزحف إلى المجر، بدأ ينكص على عقبيه متمشيا مع موجة الانسحاب العام. وغاليسيا التي احتللناها في بداية الحرب بدأنا نجلو عنها!

والدكتور زيفاجو، الذي عرفناه حتى الآن باسم يورا، الذي بدأ الآن يعرف بين إخوانه باسم يوري اندريفتش، يقف الآن أمام غرفة الولادة بالمستشفى ينتظر مولوده الأول من زوجته تونيا. وطال انتظاره، مع أنه يجب أن يعجل بالذهاب إلى مستشفاه، وأن يمر قبل الذهاب إلى المستشفى بمريضين في بيتيهما. ولكنه لم يستطع حمل نفسه على مبارحة باب غرفة الولادة، فوقف ينظر من النافذة إلى قطرات المطر وإلى السماء المكفهرة.

ولم يكن الظلام قد خيم بعد، فاستطاع أن يرى الجناح الخلفي من المستشفى، والمنازل المحيطة به، وقد خيمت عليها كآبة الخريف.

ومر ترام ذو عربتين، ودخل المستشفى حاملا عددا من الجرحى. وكانت جميع مستشفات موسكو غاصة بهم، حتى الممرات والدهاليز، ولم يجدوا بدا من إدخال بعضهم إلى عنابر النساء!

وتراجع يوري عن النافذة وقد شعر بوطأة الإرهاق العصبي والجسدي. مع أن ذهنه كان خاليا من أي موضوع معين. وكأنما أبت خواطره أن تترك في دماغه فراغا، فقفزت إلى ذهنه حالة من حالات الجراحة في المستشفى الذي يعمل به. حالة امرأة ماتت هناك وقرر يوري أن الوفاة ناشئة عن تسمم في الكبد. وخالفه في ذلك زملاؤه ورئيسه جميعا، واشتد العناد فقرروا تشريح الجثة في هذا اليوم بالذات. وكان يوري يعلم أن نوبة التشريح اليوم على زميل لا يكف عن السكر والعربدة، والله أعلم كيف سيصل إلى نتيجة في هذه المشكلة!

وخيم الظلام، فتعذرت الرؤية في الخارج تماما. وأضيئت جميع الأنوار في المستشفى والبيوت المحيطة به. وخرج كبير أطباء أمراض النساء من حجرة الولادة، وكان رجلا ضخم الجسم، لا يقطع أبدأ برأي، ويجيد هز كتفيه كلما سأله أحد عن شيء. فلما رأى يوري حياة مبتسما وأشار إليه بكلتى يديه يطلب منه الأناة، لأنه ليس أمامه في هذه المرحلة إلا التذرع بالصبر. ثم اتجه إلى غرفة الانتظار ليدخن سيجارة. لأن التدخين ممنوع في العنابر وغرف المرضى.

وخرجت الممرضة من الغرفة على الأثر، وكانت على عكس الطبيب كثيرة الكلام، فما أن رأت يوري حتى بادرته قائلة:

– لو كنت في موضعك لذهبت إلى عملي أو إلى بيتي بلا تردد. ماذا تنتظر من وقوفك هنا؟ سأتصل بك غدا صباحا في المستشفى. وليس من المتوقع أن يتم الوضع قبل ذلك. ولك أن تطمئن تماما، فجميع العلامات تدل على أن الوضع سيكون طبيعيا جدا. ولن نحتاج إلى إجراء أية جراحة لها. هذا مع العلم بأن حجم الحوض عندها صغير. والطفل متجه للنزول برجليه لا برأسه. والطلق ضعيف. وهذا طبعا يدعو إلى شيء من القلق. ولكن لماذا نرجم بالغيب. فالمخاض الحقيقي لم يبدأ بعد. فعلينا أن ننتظر إلى أن يشتد الطلق، فنقرر ماذا يجب عمله.

وانصرف زيفاجو. وفي الصباح اتصل تليفونيا بالمستشفى يسأل عن أخبار زوجته. فتلقى منه البواب الإشارة وعاد إليه بالرد التالي بعد عشر دقائق كاملة:

– لقد أحضرت زوجتك قبل الأوان، فتعال خذها.

فاغتاظ يوري لهذا الرد الجاف على لسان البواب. وانتهره طالبا منه أن يحضر إليه شخصا مسئولا. وأخيرا جاءت ممرضة أفهمته أن أعراض الولادة التي ظهرت على تونيا أعراض كاذبة. وأن ذلك يحدث كثيرا فلا داعي للقلق. لأن هذه الأعراض قد تستمر يومين آخرين أو ثلاثة. وستبقى في المستشفى.

وأخيرا... في اليوم الثالث قيل له أن المخاض الحقيقي بدأ في الليل. وأن الولادة أصبحت وشيكة الحدوث. فبادر يوري بالذهاب إلى المستشفى. وسمع من خلال الباب صرخات تونيا التي انخلع لها قلبه. ولم يسمحوا له بالدخول، فوقف في الممر يعض أنامله بقسوة، وهو ينظر إلى المطر المتساقط من خلال النافذة.

وبعد قليل خفت صوت تونيا وخرجت ممرضة تقول له:

– لقد منحك الله غلاما جميلا.

– هي هي. كيف هي؟

– بخير. ستراها بعد قليلا عندما يتم كل شيء. لقد مرت بها لحظات عصيبة. فالمولود البكر دائما عسير الولادة.

وتفصد جبينه عرقا، وفي ذهنه خاطر واحد يطن باستمرار:

– نجت تونيا! نجت نجت!

ولم يشعر بأي اهتمام لكونه أصبح أبا. فهذا شيء لا فضل له فيه. والفضل كله لبطولة تونيا في تحمل الآلام وخوض المخاطر.

وأراد أن يهون على نفسه عناء الانتظار، فذهب لعيادة أحد مرضاه ممكن يسكنون على مقربة من المستشفى. وعاد بعد نصف ساعة فوجد باب حجرة الولادة نصف مفتوح، فاندفع داخلا بغير تفكير. فإذا به أمام الطبيب الضخم الذي اعترض طريقه بثيابه البيضاء وقال له بصوت هامس ولكن في حدة:

– ماذا حدث لعقلك يا رجل؟ الدم ينزف فلا يدخل هنا إلا من استكمل تعقيم ثيابه خوفا من التسمم. ولا تنس الهزات النفسية وأثرها الوبيل. أأنت تفعل هذا وتسمي نفسك طبيبا؟

فتلعثم يوري وقال:

– لم أقصد ذلك...

– أخرج إذن.

– أرجوك. أريد أن ألقي عليها نظرة واحدة فقط. من هنا عند الباب.

فابتسم الرجل الضخم وقال:

– افعل، ما دام الله لم يمنحك الصبر. ولكن لا تدعني أرك. ولا تدعها هي على الخصوص ترك حتى لا تحدث لها هزة نفسية، وإلا قتلتك بيدي!

ونظر يوري فرأى المولدة والممرضة واقفتين في ثياب بيضاء وعلى ذراعي الممرضة طفل حديث الولادة داكن الحمرة، يحرك يديه ورجليه. وتونيا راقدة على فراش العمليات في وسط الحجرة، وقد ظهر عليها الإعياء الشديد. فخيل إلى يوري أنها سفينة ألقت مراسيها بعد أن أفرغت شحنتها، على أثر رحلة طويلة جابت فيها بحر الظلمات، وتقاذفتها شواطئ المجهول!!

ولما عاد يوري إلى مستشفاه استولى عليه العجب لوصول أخبار الولادة بهذه السرعة، لأنه رأى جميع الزملاء يقبلون عليه مهنئين بحرارة، عندما دخل غرفة الأطباء.

وكان الطبيب المنوب واقفا عند النافذة، وفي يده إناء فيه شيء يفحصه أمام الضوء بمنظاره المكبر. وقال ذلك الطبيب ليوري من غير أن يلتفت إليه:

– تهانينا!

– أوه. شكرا لك!

– ليس أنا الحقيق بالشكر بل هو زميلنا بيزوشكين، لأنه هو الذي قام بالتشريح وأثبت أن سبب الوفاة تسمم الكبد كما قلت أنت تماما. فأصبح ولا حديث للجميع هنا إلا عن انتصارك الباهر الجدير بالتهنئة!

إذن كان هذا هو ما يهنئونه عليه بحرارة. نجاح في تشخيص وفاة، لا نجاح في إنجاب مخلوق جديد!

وفي هذه اللحظة دخل كبير أطباء المستشفى فقدم إليه التهنئة أيضا على ذلك الفوز الباهر، ثم أردف قائلا:

– ولكن للأسف هناك خبر سخيف. لقد طلبت القيادة ملفات دفعتك في التخرج، ولم أستطيع في هذه المرة المعارضة في نقلك إلى الميدان، لأن النقص في الأطباء هناك شديد. وهكذا سترى خط النار قريباً!

***

انقضت أعوام أربعة على وجود أسرة أنتيبوف في الأورال، ووجدت الأسرة معاونة فعالة من الأهالي في إنشاء بيتها الجديد، لأنهم كانوا يحملون أجمل الذكريات لآل جيشار.. أسرة لارا.

صارت لارا كثيرة المشاغل، وأهم ما كان يشغلها اهتمامها بتربية ابنتها "كاتيا"، وقد أضحت في الثالثة من عمرها. وكانت الخادمة، على همتها وحسن أدائها لعملها عاجزة عن القيام بكافة الأعمال، لذلك اضطرت لارا إلى مساعدتها، علاوة على مشاركتها لزوجها في تحمل أعباء المعيشة، فاشتغلت معلمة في إحدى المدارس العليا للبنات، وكان عملها فيها متصلا لا ينقطع. على أنها كانت تستشعر السعادة الشاملة لأن هذا كان جل ما تصبو إليه في حياتها.

وكانت يوريانتين– التي حطت فيها الأسرة رحالها– حبيبة إلى نفسها وإلى قلبها، فقد كانت مسقط رأسها، مدينة جميلة تقع على ضفة نهر رينفا.

واعتاد الأهالي، عندما يحل الشتاء، أن يسحبوا القوارب من النهر ويحملوها حيث يضعونها في أفنية المنازل... إلى أن يجيء الربيع.

وكان هناك قارب من هذه القوارب في فناء المنزل الذي تقطنه أسرة أنتيبوف، فكانت الابنة كاتيا تلهو باللعب تحت ظل شراع القارب. وأعجبت لارا بتقاليد أهل يوريانتين، وبلكنتهم ذات الطابع الخاص، وبذكائهم وملابسهم القصيرة الأكمام. لذلك افتتنت بالمدينة وبأهلها معا. أما باشا، وهو ابن العامل في موسكو، فقد طبعته العاصمة بطابعها، فكان على نقيض زوجته، لا يميل إلى الأهالي، بل كان يذهب إلى أكثر من ذلك فكان يقسو عليهم، ويضيق بهم ذرعا ويعتبرهم أناسا من الهمج.

ويمتاز باشا بقدرة خارقة على سرعة القراءة، وتفهم واستيعاب ما يقرأ. وقد قرأ كثيرا، وكان يدين بكثير من قراءاته للارا. وضاعف وجوده في هذا المنفى من انكبابه على القراءة، حتى خيل إليه أنه أصبح مثقفا أكثر من لارا، بل أكثر من زملائه المعلمين، فكان يضيق بهم، ويرى فارقا كبيرا بين مستوى أفكارهم وبين مشاعره.

وبجانب درجة باشا الجامعية في الدراسات القديمة، وعلمه باللغة اللاتينية والتاريخ القديم، فقد كان يميل إلى استيعاب العلوم الطبيعية والرياضيات. فأخذ يعاود دراسة هذه العلوم، حتى بلغ مستوى عاليا. فعقد العزم على نيل درجة جامعية منها. وذلك يقتضي أن يرحل ومعه الأسرة إلى بطرسبرج. وأدمن البحث والاستذكار حتى أثر ذلك في صحته وانتابه القلق.

وكان الود سائدا بينه وبين لارا. ولكن الصفاء لم يكن كاملا، فكان يضيق بعطفها الشديد، واهتمامها البالغ به، ولكنه لم يبد لها ذلك، خشية أن تؤول أية ملاحظة من جانبه إلى عكس معناها. وكان يخشى أن يدور بخلدها مثلا أنها أرقى منه عنصرا، أو أنها كانت في يوم من الأيام تمت لغيره.

وأخشى ما كان يخشاه أن تظن فيه أنه ينظر إليها نظرة تؤلمها. فكان كل مهما يجتهد دائما أن يأتي ما يرضي الآخروان يكون أكثر كرما وأشد تسامحا فخلق ذلك في حياتهما نوعا من التكلف والتعقيد.

وحضر إليهم ضيوف: ناظر مدرسة لارا، وبعض المدرسين من زملاء زوجها، وواحد من أعضاء المحكمة العرفية، وكان باشا قد انضم عضوا فيها، ثم عدد من الناس. كانوا جميعا أغبياء في نظر باشا. فعجب كيف تلاطفهم لارا إذ كان يظن أنها تستثقلهم جميعا.

وأخذت لارا بعد انصراف الضيوف، تعيد تنسيق المنزل، وتعاون الخادمة في غسل الأطباق. وبعد أن اطمأنت على كاتيا– وقد كانت نائمة– كما نام باشا أيضاً، أطفأت الأنوار، وتسللت برفق إلى جوار زوجها في الفراش وكأنها طفلة ترتمي في أحضان أمها.

ولم يكن باشا نائما، ولكنه تظاهر بذلك. لأن الأرق لازمه في هذه الأيام. فنهض من فراشه في هدوء، وارتدى معطفه السميك فوق ثيابه، ثم وضع قبعته على رأسه، وخرج من المنزل.

وكانت نتف الثلج تنسحق تحت قدميه وهو سائر في سكون الليل. وشدة البرودة تكاد تشل حركته، وتضيء الأرض أمامه أضواء باهتة ترسلها النجوم.

وكان المسكن الذي تقطنه الأسرة يقع في طرف من البلدة مقابل للميناء، في نهاية الطريق، يمتد أمامه حقل، تخترقه قضبان السكة الحديدية، ثم مزلقان وكوخ للإشارات.

فأخذ باشا مكانه فوق القارب المقلوب، وراح يرقب النجوم، فسبحت به هواجسه نحو الأفكار القاتمة التي كانت تنتابه بعنف وشدة. إلى أن وصلت به تأملاته إلى أنه لابد لهما– هو ولارا– أن يصلا إلى وضع حد للحالة القائمة بينهما... وقد يكون ذلك الآن.

الحال على ما هو عليه لا يمكن أن يستمر، وقد كان الأجدر به أن يفكر في ذلك مليا قبل أن يقدم على الزواج. لماذا تركت له العنان فتعلق بها وهو صغير؟ وحتى في تلك الأيام كان طوع إشارتها. وألح عليه التساؤل، لماذا لم يصغ إلى صوت العقل فيقطع علاقته بها في الوقت المناسب، وبخاصة في ذلك الوقت الذي طلبت منه ذلك، وذهبت إلى حد الإلحاح في طلبها؟ ألم يتبين وقتئذ أنه ليس الشخص الذي تحبه. وأن ما حدث إنما كان واجبا فرضته على نفسها، وقامت بأدائه على خير وجه؟! وإن ما كانت تحبه إنما هو صورة بطولتها! على أن أسوأ ما في الأمر أنه ظل يحبها كسابق عهده، فقد أسره منها لطفها ودماثتها. ولكن هل يعتقد في قرارة نفسه أن ما يشعر به نحوها هو الحب؟ أم شيء آخر قريب من ذلك، كالعطف مثلا، إزاء ما أسبغته عليه من كرم في المعاملة؟ أنه في دوامة لا يستطيع أن يقطع بشيء.

وعاد إلى نفسه يتساءل ماذا عساه أن يصنع الآن، وماذا في مقدوره أن يفعل، هل يهرب من هذه الحياة الزائفة التي يعيشها مع زوجته؟ أم يحل لارا والابنة

من تلك الحياة ذات الطلاء الزائف؟ كلا الأمرين أسوأ من الآخر، هل يطلقها أم يقتل نفسه؟

واشتد به الضيق وثارت في أعماقه كوامن الألم والأسى فقال:

– يا للدناءة.. أيستطيع مثلي أن يأتي عملا كهذا؟!. كيف اسمح لعقلي بأن يسبح في هذه الهواجس المظلمة الخرقاء.

وعاد ينظر إلى النجوم، كأنما يستلهمها الوحي والنصح. وكانت النجوم تتلألأ في السماء، صغيرة وكبيرة، متجمعة ومتفرقة، بعضها فاقع الزرقة وبعضها مختلف الألوان. وفجأة اختفت النجوم عن ناظريه، وسطع ضوء شديد خاطف على المنزل والفناء، وعلى القارب الذي يجلس عليه، كأن شخصا يحمل شعلة متوجهة يجري مندفعا نحو البيت.

ومرق قطار حربي فوق المزلقان، لبد الجو بسحب كثيفة من دخانه المغبر، وفي لحظة اختفى القطار عن ناظريه، شأن القطارات جميعا التي ظلت تمر من هذا الطريق طوال العام.

وأخيرا ابتسم باشا، ونهض من مجلسه صوب المنزل عائدا إلى فراشه...

لقد وجد الجواب.

فوجئت لارا وأخذتها الدهشة عند سماع قرار زوجها، وخيل إليها أن ما سمعته طنين في أذنيها وليس واقعا قاله لها.. وقالت وقد عقدتها المفاجأة:

– أنه جنون.. أنه هذيان.. لا اعتقد أنه جاد فيما قال، ولعلها دعابة.. وسوف ينسى!

على أن الأمر كان حقيقة واقعة، فقد كان يعد نفسه طيلة أسبوعين، فأرسل طلبه وأوراقه إلى مكتب التجنيد، وعلمت أن المدرسة التي يعمل بها عينت مدرسا آخر محله. وأخيرا تلقي أمراً بالتوجه إلى مدرسة التدريب العسكري في أومسك.

وجزعت لارا وأصابها ذهول... وتشبثت بيدباشا وراحت تتمرغ تحت قدميه وتصرخ.

– باشا... حبيبي باشا... لا تفارقنا... أن الوقت لم يفت بعد، دعني أتدبر الأمر، لم تفحص طبيا كما يجب ألا تذكر قلبك؟. ماذا تقول؟! هل يضيرك أن تغير رأيك؟. ألا تقدر كيف تترك زوجتك وابنتك من أجل خاطر جنوني؟ هل يروق لك أن تكون متطوعا؟ وكنت قبل ذلك تسخر من روديا؟.. هل سحرتك ثياب الضباط، وصليل السيوف؟. ألست باشا الذي أعهده؟ خبرني بصراحة! ماذا أطاح بفكرك حتى أوحي إليك بذلك؟ من أجل المسيح خبرني يا حبيبي! هل ذلك هو نداء الوطن حقا؟

وأدركت بغريزتها أن ذلك ليس هو السبب الحقيقي، والدافع على ما أقدم عليه، ورغم ما أحاط الأمر من لبس، فقد استطاعت أن تلمح الجوهر. أن باشا لم يفهمها جيدا، لقد أغلق على ذهنه، فلم يفهم حقيقة عاطفتها نحوه، ولعله لا يدرك ما تشعر به المرأة نحو الرجل من حب طبيعي.

وأجفلت كمن أصابته لطمة، وجزت على شفتيها، ثم حبست دموعها وأخذت تحزم أمتعته في صمت قاتل.

واستشعرت الوحشة بعد رحيله، كأن المدينة خاوية، حتى الطيور التي كانت تطير في سماء المدينة ركنت إلى السكون، وخيل إليها أن عددها أخذ يقل هي الأخرى.

وعبثا حاولت "مارفوتكا"– الطاهية– أن تسري عنها، وأن تردها إلى سجيتها، فكانت تكثر من نداداتها بيا "سيدتي" كي تحولها عن تأملاتها. كذلك عبثا حاولت كاتيا بمداعباتها ومناداتها "ماما. ماما" أن تبعدها عن الجو القاتم الذي لفها، فقد كان فراق باشا أكبر صدمة حطم أجمل آمالها.

وأخذت خطابات باشا التي كان يبعثها إليها تباعا، تسري عنها بعض همها، وكان يحدثها فيها بكل أحواله وما يحيط به، وبوحدته... ولم يملك أن يمسك نفسه عن مصارحتها في خطاباته بحنينه نحو زوجته وابنته.

وفجأة وقع عليه الاختيار واسند إليه عمل حامل العلم، في مهمة طارئة.. وبحكمك ذلك توجه إلى الميدان، وازداد بعدا عن يوريانتين، وحين هبط موسكو لم يكن لديه متسع من الوقت ليرى أي إنسان.

وبدت رسائله التي كان يرسلها من الميدان أقل حرارة وأقل عاطفة، لأن الأمل دفعه إلى إظهار مواهبه ليحرز تفوقا يكافأ عليه بالحصول على أجازة، تتيح له أن يرى أسرته، بل ذهب إلى أكثر من ذلك فتمنى أن يصاب بجرح، يتيح له نفس ما تصبو إليه نفسه... وواتته الفرصة بأسرع مما ينتظر.

وتطوعت لارا وبعض السيدات، فرحن يعملن متطوعات، يتدربن على أعمال التمريض في مستشفى المدينة. وكانت لارا من المهارة بحيث أتمت تدريبها، ونالت أجازة التمريض، وطلبت من المدرسة التي تعمل بها الإذن لها بالتغيب لمدة ستة أشهر، وعهدت إلى مارفوتكا رعاية البيت، وصحبت كاتيا إلى موسكو حيث تركتها عند ليبا، التي كانت تعيش بمفردها إذ كان زوجها الألماني قد اعتقل بوصفه من الرعايا المدنيين للأعداء.

وجعلت لارا هدفها البحث عن باشا، بعد أن انقطعت أنباؤه وأمكنها أن تحصل على عمل كممرضة في قطار طبي، يستعمل كمستشفى متنقل، وكان في

اتجاهه نحو الحدود المجرية، عبر مدينة ليسكي، وهو آخر مكان كتب إليها منه باشا.

ووصل قطار الصليب الأحمر إلى مقر قيادة الفرقة، محملا بما جمعته إحدى الجمعيات من معدات وأدوية لمساعدة الجرحى. وقد سحب القطار القديم وراءه رتلا من العربات الصغيرة القبيحة المنظر، وجلس في ديوان الدرجة الأولى نخبة من المواطنين، تحمل الهدايا إلى القوات، ومن ضمنهم جوردون بعد أن عرف أن صديق طفولته، زيفاجو، يعمل بمستشفى الفرقة، ولم كان المستشفى في قرية قريبة، فقد أمكنه أن يحصل على إذن خاص بالسفر إلى المنطقة، وهي تقع خلف خطوط القتال مباشرة، فاستقل عربة كانت في طريقها إلى هناك.

وسائق العربة من أهال لتوانيا، ولذا كان يتحدث بلهجة روسية محرفة، ولا يتعدى حديثه بضع كلمات تافهة، حتى لا يزلف لسانه فيتهم بالتجسس، ولذلك قطع جوردون معظم الطريق في شبه صمت.

وقدر جوردون أن القرية قريبة حقا، وأن المسافة لا تتعدى خمسة عشر ميلا، ولكنها في الواقع كانت أكثر من خمسين ميلا. وكانت تتناهى إلى أسماعه وأسماع السائق دمدمة تحركات معادية، إلى يسارهما. ولم يكن لجوردون سابق عهد بما يقع في البقاع البركانية، ومع ذلك فكانت أصوات مدفعية الأعداء تطن في أذنيه كانفجارات البراكين وهزاتها. وقبيل المساء سطع وهج وردي عند الأفق، وظل يخفق عاليا حتى الفجر!

ومرا بكثير من القرى التي أصابها التدمير، وقد هجر الناس بعضها، وعاش البعض في مخابئ تحت الأرض، وكانت أنقاض البيوت أشبه بالقبور القديمة المتهدمة، فكنت تستطيع أن ترى في سهولة، الدمار الذي خلفته الحرائق، فلم تخلف سوى القفار والجدب.

وراح العجائز يجبن الأطلال والخرائب، كل منهن عند بيتها تنبش في الأتربة، وعندما تعثر على شيء تضعه جانبا.

ولمح العجائز جوردون وهو في طريقه، وكأنما كن يسألنه بنظراتهن، متى يستقر الحال، ويعود السلام إلى الحياة؟!

والتقت إحدى الدوريات– عند حلول الظلام– بجوردون والسائق، فأمرتهما بأن يتركا الطريق الرئيسي في الحال، وكان السائق يجهل الطريق الآخر، فظلا يتخبطان في سيرهما بضع ساعات.

وعند الفجر، وصلا إلى القرية التي يبحثان عنها، ولكن أحدا لم يدلهما على المستشفى الذي يقصدانه. وتبين لهما أن هناك قرية أخرى تحمل نفس الاسم. وبعد لأي شديد وصلا إلى القرية المنشودة. وقد زكمت أنفيهما– وهما يعبران طرقاتها– رائحة اليودوفورم والأدوية المختلفة. فعقد جوردون العزم ألا يقضي الليلة في القرية وأن يكتفي بسحابة النهار. وعندما أقبل المساء، مضى إلى محطة السكة الحديدية، حيث كان قد ترك أصدقاءه. ولكن ظروفا قاهرة أزعمته على البقاء أسبوعا كاملا!

وتكرر سؤال جوردون للدكتور زيفاجو كلما جلسا إلى تناول الغداء في ذلك الكوخ الذي اتخذاه لهما:

– أيمكن الحصول على خيل اليوم؟

فيجيب الدكتور زيفاجو:

– لا أمل البتة... وعلى أي حال فليس في الاستطاعة أن تتحرك من هذا المكان، فالاضطراب يسود المنطقة بأسرها، ولا نستطيع تبين الحال، لقد استطعنا أن نتغلب على جناح الجيش الألماني في الجنوب في بعض المواقع، واخترقنا

خطوطه في أماكن أخرى. ووصل إلى علمي أن التحمس شمل كثيرا من وحداتنا، فأودى بها إلى الأسر. أما في الشمال، فقد اجتاح الألمان منطقة في موقع كنا نظن أنه لا يقهر، وكان فرسانهم الذين لا يزيدون عن كتيبة في القوة، هم الذين اخترقوا الموقع. وأنهم ينسفون الآن السكك الحديدية، ويدمرون مخازن الذخيرة. وأنهم الآن يطوقونها... هذا ما يحيط بنا الآن وأنت تتحدث عن الخيل؟!

ثم أردف زيفاجو موجها الكلام للجندي:

– هيا يا كارينكو... أعد المائدة، ماذا أعددت للعشاء؟ كوارع ؟! جميل!

وكانت الوحدة الطبية قد وزعت نفسها في أنحاء البلدة التي لم يصبها أي ضرر، فكانت المساكن تتألق بنوافذها، منتشرة على الجدران، لم يتحطم من زجاجها لوح واحد.

وبدأ جو الخريف الأصفر يتحول إلى صيف قائظ، مما اضطر الأطباء إلى فتح النوافذ في النهار، ومطاردة جيوش الذباب الزاحفة إلى النوافذ. وقد اعتادوا أن يرشفوا الشاي الساخن في هذا الجو الحار وهم يتصببون عرقا.

وكانت معجزة أن تظل بعض القرى قائمة بعد هذا التخريب فبدت تلك القرى كواحات وسط الصحراء أو جزر صغيرة وسط المحيط.

ورأى زيفاجو وجوردون وهما في طريقهما إلى البيت ذات مساء في إحدى تلك القرى شابا قوقازيا أحاط به جمع مرح صاخب. وكان الشاب يقذف في الهواء بقطعة نحاسية من النقود ويحاول شيخ يهودي أشيب اللحية رث الثياب، أن يلتقطها، ولكنه يفشل وتسقط قطعة النقود في الوحل، فينحني ليأخذها. وعندئذ يضربه الشاب القوقازي بقدمه في عجيزته. فتكاد تنشق جنوب الواقفين من الضحك. وكانت هذه هي تسليتهم الفذة!

ومن كوخ عبر الطريق كانت تخرج امرأة كهلة، هي زوجة ذلك اليهودي وترفع كفيها في ضراعة وفزع. ومن نافذة الكوخ تطل حفيدتان للشيخ اليهودي، وتريان تعذيب جدهما فيرتفع صوتهما بالعويل والبكاء.

وأبطأ السائق كي يتمكن الركاب من المشاهدة، فنادى زيفاجو الشاب القوقازي وزجره ونهاه عن العبث بذلك الشيخ المسكين. فأجاب القوقازي في براءة تامة:

– أننا لا نسيء إليه يا سيدي. كل مرادنا أن نتسلى قليلا! وانطلقت العربة في طريقها إلى القرية التي يقيم فيها الصديقان.

ووقف الاثنان أمام النافذة العريضة يتحدثان. وكان زيفاجو يروي لجوردون كيف رأى القيصر حينما زار الجبهة في أول ربيع قضاه يوري في خدمة الجيش. وكان يوري ضمن وحدة تتخذ مراكزها عند منفذ في جبال الكربات، كي تسد الطريق أمام جنود المجر. وكان مركز قيادة الوحدة في ذلك الممر نفسه. وأسفل الممر تقع محطة السكة الحديدية.

وفي يوم من أيام ابريل، أنفاس صباحه رطبة الهواء. وقد خيم الضباب على الوادي مختلطا بدخان القطارات والسحاب الداكن المنخفض. اصطف حرس الشرف على رصيف المحطة في انتظار وصول جلالة القيصر الذي بات منتظرا بين لحظة وأخرى.

وبعد ساعتين من الانتظار الممل المرهق وصل في المقدمة قطاران يقلان حاشية جلالته. ومن بعدهما وصل القطار القيصري.

وفتش القيصر حرس الشرف وفي معيته الغرندوق نيقولاي. وشقت السماء هتافات الجنود كقصف الرعد. وكان القيصر يبتسم ابتسامة ترتعش على شفتيه فتنم عن القلق. وتظهره أكبر سنا مما تبدو صوره على قطع النقود وطوابع البريد. وكان

الإرهاق باديا على وجهه الشاحب المترهل، وهو ينظر إلى الغرندوق بين لحظة وأخرى كمن يسأله بالنظرات ماذا يفعل أو ماذا يقول. وكان الغرندوق ينحني أمامه باحترام ويرشده من طرف خفي إلى ما ينبغي.

وفي اليوم التالي، عندما جلس زيفاجو إلى المائدة لتناول الغداء، قال لجوردون:

– كنت تضيق بالإقامة هنا في هذا القفر وتتعجل الرحيل، وها قد نلت بغيتك. وإن لم يكن في ذلك شيء من حسن الحظ، فأي حظ حسن في أن تنصب علينا القنابل، ويطاردونا بلا انقطاع.

– وإلى أين صدرت الأوامر بالرحيل؟

– إن الضغط الكبير قادم من جهة الغرب. أما الطريق إلى الشرق فمفتوح. وكل ما أعلمه أن الأمر صدر بالاستعداد للرحيل فورا. ولكن من غير تعيين للهدف.

والتفت زيفاجو إلى جندي المراسلة كارينكو وقال له:

– اهتم بحزم ثياب جوردون التي لم يتم غسلها بعد. ولا تتعلل بأنك أعطيتها لهذه أو تلك كي تغسلها ولا تدري أين هي!

وانصرف الثلاثة إلى حزم الأمتعة على مهل. ولما أقبل المساء تعشوا ثم ناموا انتظارا لإشارة الرحيل في الصباح.

وبينما هم نيام أيقظتهم صيحات منكرة، وأصوات إطلاق النيران، ووقع أقدام تركض في كل اتجاه. فأرسل يوري خادمه ليستوضح الأمر.

وعاد الخادم ليقول أن الألمان اقتحموا خطوط الاستحكامات فأسرع زيفاجو إلى المستشفى حيث تأكد من صحة ذلك الخبر ورأى بنفسه القرية هدفا لنيران العدو. فأعد العدة لنقل المستشفى فورا، دون انتظار لأوامر القيادة بالانسحاب.

وقال زيفاجو لصديقه جوردون:

– سنجلو عن القرية قبل الفجر. وستذهب أنت مع العربة الأولى التي تهيأت للرحيل فعلا، ولكني استمهلتهم كي يأخذوك معهم. والآن أرجو لك السلامة.. بل انتظر سأذهب معك إلى العربة كي أهيئ لك مكانا فيها.

وطول الطريق في شارع القرية، كانا عرضة للرصاص والانفجارات المتوالية، يتواريان منها بالجدران والأطلال، ويركضان متى هدأت.

وسال جوردون صاحبه وهما يلهثان:

– وأنت؟ ماذا ستصنع؟

فأجاب زيفاجو قائلاً:

– سألحق بك في العربة التالية.

وافترقا عند أرباض القرية. وبدأت العربات تنتظم. ثم لوح يوري بيديه لصديقه وعاد مسرعا ليحتمي بجدران المنازل، متجها نحو بيته ليأخذ حقائبه. وعلى قيد خطوات منه انفجرت قنبلة بقربه فانطرح على الأرض وأصيب بشظية فأغمى عليه وأخذت الدماء تنزف من جراحه الكثيرة.

***

وتماثل يوري للشفاء في العنبر المخصص للضباط في مستشفى من مستشفيات الميدان في قرية تقع على الخط الحديدي، غير بعيد من مقر القيادة العامة. وكان ذلك في يوم دافئ من أيام شهر فبراير، ففتحوا له النافذة القريبة من فراشه. وأخذ المرضى يتسامرون قبل الغداء. وقد جلس على الفراش المواجه لفراش

زيفاجو الضابط جاليولين يقرأ آخر طبعة من الصحف وصلت لتوها. ويبدي تأففه من المساحات البيضاء التي حذفتها الرقابة.

أما يوري فكان يقرأ رسائل زوجته تونيا التي وصلت إليه في حزمة كبيرة. ويصل إليه لغط المرضى عن وصول ممرضة جديدة إلى المستشفى يتحدثون بجمالها، ويقولون أنها ستقوم الآن بجولتها الأولى في أنحاء المستشفى.

واستغرقت يوري رسائل تونيا، إلى أن طرق أذنيه وقع أقدام رقيقة، ثم دخلت لارا إلى العنبر!

وعلى الفور عرفها كل من زيفاجو وجاليولين. ولكن لم يدرك كل منهما أن الآخر يعرفها. وأما هي فلم تعرف أحدا منهما، لأنها لم توجه نظرها إلى أحد بالذات، بل وقفت في وسط الحجرة وقالت للجميع:

– كيف حالكم كلكم؟ ولماذا تفتحون النافذة؟ ألا تخافون البرد؟

وبدأت بجاليولين فتناولت معصمه لتجس نبضه. ولكنها سرعان ما تركته وجلست على فراشه تحملق في وجهه بدهشة. وقال لها جاليولين:

– هذه مفاجأة... كان زوجك معي في كتيبة واحدة. وقد احتفظت لك بأشيائه الخاصة.

– وهل هذا ممكن؟ يا لها من مصادفة عجيبة. هل كنت تعرف زوجي حقا؟ خبرني إذن بما حدث له. لقد قتلته قنبلة ودفنه الانفجار... أليس كذلك؟ أني أعرف كل شيء كما ترى فلا تخف أن تخبرني بكل ما حدث!

ولكن قلب جاليولين لم يطاوعه. فقرر أن يخدعها بأكذوبة تبقى لها وميض الأمل فقال:

– لقد وقع باشا أنتيبوف أسيرا في يد العدو. عزلت وحدته وحوصرت فاضطر إلى التسليم.

ولم تصدقه لارا، وخشيت أن تخونها عواطفها فتبكي، ولذا انفلتت خارجة إلى الدهليز ريثما تهدأ. وعادت بعد قليل وقد تمالكت نفسها تماما. بيد أنها تجنبت النظر إلى جاليولين، حتى لا تخونها دموعها إذا تحدثت إليه، والتفتت إلى يوري فسألته بصوت متبلد:

– وأنت كيف حالك؟

وهم زيفاجو أن يحاول التسرية عنها، بأن يخبرها أنه رآها مرتين: مرة وهو صبي صغير، والمرة الأخرى وهو طالب في الجامعة عندما حاولت أمها الانتحار. بيد أنه خاف أن تسيء فهم غرضه من ذلك الكلام، فقال في اقتضاب واضح، كي يمنع نفسه من الاسترسال:

– شكرا لك... أنا طبيب، وفي وسعي أن أعني بنفسي من غير حاجة إلى عون من أحد!

فأخذك لارا لهذه اللهجة وظنت أنه مستاء من شيء فعلته من غير أن تدري، وظلت تحملق برهة في هذا الرجل ذي الأنف والأفطس والملامح العادية التي لا تنم على شيء.

وظل الجو متقلبا نحو أسبوع. والرياح الدافئة تهب ليلا محملة بالرطوبة. وقطعت المواصلات البرقية مع بطرسبرج مرة بعد مرة. وانتشرت إشاعات مخيفة، وصار جميع الناس في كل مكان يتحدثون في السياسة.

واستمرت لارا تقوم بجولتها كل صباح ومساء. وتتبادل مع المرضى بضع كلمات للمجاملة. ولا تفتأ تقول لنفسها كلما رأت يوري:

– يا له من إنسان عجيب! لا يمكن أن يعد جميلا وله هذا الأنف المفرطح، ولكنه شاب قوي ذكي متوقد. ومهما يكن من شأنه، فلا يمكن أن يعنيني أمره. فكل الذي يعنيني الآن أن أتم عملي هنا واترك التمريض كي أعود إلى موسكو، لأخلي طرفي من التطوع وأعود إلى التدريس مرة أخرى في يوريانتين. فقد عرفت حقيقة ما حدث للمسكين باشا. ولم يعد هناك أدنى أمل، فلا معنى للاستمرار في ارتداء ثياب البطولة هذه، التي لم تكن لتمس جلدي لولا رغبتي في التعرف على مصير باشا!

وكانت قد لاحظت تغيرا شديدا في كل شيء حولها. ففي بداية الحرب كان كل إنسان يؤمن في قرارة نفسه بمجموعة من الواجبات المقدسة. فهناك واجب نحو الله. وواجب نحو الوطن، وواجب نحو الجيش، وواجب نحو المجتمع. أما الآن وقد حاقت الهزيمة العسكرية، فقد زالت القداسة عن كل شيء. ولم يعد هناك توقير أو إيمان. وماتت الروح المعنوية. وصار على كل فرد أن يتعلم من جديد كيف يعيش من غير أن يسنده في الحياة أي سلطان له احترام. ولذلك صار كل واحد متعطشا إلى مبدأ جديد أو قيمة جديدة يعيش بها.

ولارا شخصيا فقدت باشا أيضا. فقدت الحب. ولم يعد في وسعها إلا أن تكون أماً. فلم تزل لديها كاتيا الصغيرة اليتيمة المسكينة، التي تركها لها باشا لتوجه إليها كل عواطفها وكل قوتها.

وتذكرت لارا أن جاليولين كان ودودا عطوفا للغاية. ومع ذلك لم تسأله ولو مرة واحدة عن نفسه ومن عساه يكون وما هي حياته العادية قبل الحرب، فخجلت من نفسها. وفي جولة الصباح التالي قررت أن تؤدي ذلك الواجب تصحيحا لخطئها. فقص عليها موجز حياته. فكادت تصعق من الدهشة عندما عرفت عنوان بيته في شارع بريست قرب مشغل والدتها. وتذكرت دوره وهو صغير في ثورة سنة ١٩٠٥، فكيف لم تتذكر أنها قابلته؟

– عفوك أيها الملازم. كان يجب أن أتذكرك. فكيف يمكن أن أنسى تلك الذكريات الحية!

وفي هذه اللحظة اقتحم الحجرة جميع المرضى القادرين على الحركة ولو على عكازات، وفي أيديهم آخر طبعات الصحف، وهم يصيحون.

– القتال في شوارع بطرسبرج!... انضمام الحامية إلى الثوار! أنها الثورة أخيرا! أنها الثورة!

الفصل الخامس

توديع الماضي

انتقل المستشفى إلى مليو زييفو، وهي بلدة صغيرة تقوم وسط ريف خصب، فكان الغبار الداكن يخيم فوقها معظم النهار، كما كانت تحركات القوافل العسكرية تثير جحافل الجراد.

وفي هذه البلدة أضيفت إلى زيفاجو ولارا، وجاليولين، أعمال لا تمت إلى أعمالهم الطبيعية. فوقع عليهم الاختيار– مع فئة أخرى– ليعملوا إلى المجلس البلدي، وشئون الصحة، وغير ذلك. فكانوا يمارسون هذه الأعمال المتنوعة كأنها رياضة أو تسلية. على أنهم كانوا، عندما يضيقون بها، يتمنون العودة إلى أعمالهم الأصلية.

وكثيرا ما جمع العمل بين زيفاجو ولارا أنتيبوفا.

وهطلت الأمطار بغزارة، فأحالت التراب إلى وحل داكن، انتشر في الطرق التي لم يكن معظمها مرصوفا.

وكانت البلدة من الصغر بحيث يمكنك أن ترى نهايتها وأنت في بدايتها. تلفها السهول الجرداء، والسماء ذات الغمام، والريف مشتعل بحمى الثورة.

وأرسل يوري إلى زوجته تونيا رسالة قال فيها:

– أنني أتفقد الآن بعض وحدات الجيش، والفوضى تسود كل مكان رغم جميع المحاولات التي تبذل لبث النظام وتقوية الروح المعنوية، ولا يفوتني أن أذكر لك في رسالتي هذه أنه تشاركني في بعض عملي ممرضة من موسكو، تدعى

أنتيبوفا، مسقط رأسها جبال الأورال... أتذكرين تلك الفتاة التي أطلقت الرصاص على المدعي العام في تلك الليلة المروعة... التي ماتت فيها أمك. ولعلي ذكرت لك أنني وميشا كنا قد رأيناها قبل الحادث– وهي طالبة في المدرسة العليا، وكان ذلك في فندق متواضع، كان والدك قد صحبنا إليه. ولا يحضرني الآن السبب، وكل ما أذكره أنها كانت ليلة قارسة البرودة... المهم أن الفتاة كانت هي أنتيبوفا. لقد سعيت كثيرا كي أحضر، ولكن صعوبات تقف في وجهي، وليس ذلك بسبب العمل، ففي المقدور تدبير أمره، وإنما المشكلة في السفر ذاته. فالقطارات نادرة وإن وجدت، تكون مكتظة بحيث لا يجد المرء موطئا لقدم فيها. على أن هذه الحال لن تستمر طويلا طبعا يا عزيزتي. وقد عقدت العزم– بالاتفاق مع أنتيبوفا وجاليولين– اللذين استقالا من الخدمة، أن نرحل بعد أسبوع. وسنضطر إلى السفر فرادى، لأن ذلك يسهل الأمر أكثر مما لو كنا معا. ولذا فقد تجدينني أهبط عليك من السماء في أية لحظة، على أن في نيتي أن أبرق إليك قبل ذلك.

وتسلم رد تونيا قبل رحيله، وكان واضحا أمام عينيه أن العبرات كانت ممتزجة بالعبارات. ورجته في رسالتها ألا يعود إلى موسكو، بل يجعل وجهته إلى الأورال مع الممرضة الجميلة التي شاءت أن تشق طريقا تحف بها نذر وأحداث رهيبة... فأين هذه مني مهما أوتيت!... ثم استطردت تقول في رسالتها:

– لا يقلق بالك مستقبل باشا، ولن تخجل يوما منه. وسوف أنشئه على المبادئ التي عهدتها في دارنا... هذا وعد أقطعه على نفسي.

وأخذ يوري لهذا الذي كتبته فكتب إليها يقول:

– ماذا دهى عقلك يا تونيا؟ كيف يجول بخلدك خاطر كهذا؟ كيف لا تعرفين وكيف لا تشعرين في أعماقك أنني لك دون سواك، وأنني لولاك، ولولا تفكيري في دارنا، وإخلاصي لك.. لما كنت على قيد الحياة بعد هذين العامين الرهيبين من

أعوام الحرب؟... الكلام لا يجدي يا عزيزتي، وعما قريب سنكون معا، وتعود حياتنا إلى ما كانت عليه، وعندئذ سيتضح لك كل شيء. على أن ما يؤلمني من خطابك أمر غير هذا، فإني وإن كنت الذي أتاح لك أن تكتبي لي ما كتبت، فإني أعذرك، ولكنك أسأت الظن بي وبتلك المرأة... وأزيدك قولا بأننا وإن كنا نقيم- هي وأنا- في دار واحدة، إلا أنني أجهل حتى اليوم أي الغرف هي غرفتها، لأنني لم أفكر في ذلك يوما ما.

***

وفي المساء رأى لارا قائمة في حجرة الغسيل وأمامها كومة من الملابس خرجت لتوها من العصارة، وقد انصرفت إلى كيها. وكانت حجرة الغسيل بين الغرف الخلفية التي تطل على الحديقة في الطابق العلوي. وفي هذه الحجرة غلايات ضخمة تملأ منها سيمافورات الشاي. وكان من عادة نزلاء المستشفى أن يلتمسوا الدفء هناك في أوقات الفراغ، ويتواعدوا على المقابلة في تلك الحجرة!

وعلى النار كانت آلتان من آلات الكي تستخدمهما لارا الواحدة بعد الأخرى على التبادل.

وبادرته لارا بقولها.

- كيف حالك اليوم؟... أحذر أن يصيب الفحم ثيابك ونظر يوري إلى كومة الغسيل التي أمامها وقال لها:

- ما كل هذا؟ أتراك أخذت على عاتقك غسيل المستشفى كله؟

- الحقيقة أن جانبا كبيرا منه يقع على عاتقي... لقد ظللت تثيرني بقولك أنني سأبقى هنا، ولكني يا صديقي سأرحل. وقد غسلت ثيابي، وسأحزم حقائبي. ويوما ما سأكون أنا في الأورال، وتكون أنت في موسكو، وعندما يسألك إنسان

"هل تعرف بلدة صغيرة اسمها مليوزييفو؟" ستقول له "ربما. ولكني لا أذكر أني زرتها" وإذا سألك "أتعرف لارا أنتيبوفا؟" ستقول له "لا أذكر أني سمعت هذا الاسم من قبل!"

– ربما كان الأمر كما تقولين!

– ما أسرع ما تبرد هاتان المكواتان. أعطني المكواة الأخرى من فضلك. وضع هذه مكانها. شكرا!

– ما رأيك في القرى التي زرتها في هذه المنطقة؟

– كل قرية لها ظروفها الخاصة، على حسب نفسية أهلها وطبعهم. فبعض القرويين محبون للعمل مقبلون عليه، ولهذا تجد حالة قراهم غير متناهية في السوء. وفي قرى أخرى رأيت جميع الرجال من مدمني الخمر. ولهذا كانت الحالة العامة بالغة السوء في قراهم...

– هذا افتئات. لماذا ترجعين سوء الحالة إلى إدمان الرجال للخمر؟ كل ما في الموضوع أن تلك القرى مجدبة لأن كل رجالها أصابتهم قرعة التجنيد فلم يبق فيها من يفلحون الأرض. ولكني أسألك عن المجالس الثورية الجديدة. ما خبرها؟

– أمور هذه المجالس مضطربة لعدم استقرار التعليمات. وعدم وجود سلطة محددة يرجعون إليها عند الاختلاف في فهم الأوامر. وأما الفلاحون أنفسهم فلا يعينهم من النظام الجديد إلا ما يقال عن توزيع الأراضي عليهم. وقد زرت ضيعة جميلة للغاية، فوجدتهم قد أحرقوا ما فيها من الأبنية الجميلة ونهبوا ما في مخازنها. وأشعلوا النار في أشجار الفاكهة المثمرة. وكل ذلك طمعا في أدوات المائدة الفضية التي كانت تبهر أنظار الفلاحين. ولكن في المأمول أن تتحسن الحالة بعد وصول القوميسير الجديد الذي عين لهذا القطاع من جبهة القتال. وإن كان ذلك القوميسير غلاما في ثياب عسكرية. وحاول جاليولين أن يناقشه في أوامره

التنظيمية، ولكنه كان عنيدا للغاية. ومن الصعب فعلا التفاهم مع فتى مغرور من هذا الطراز.

– بلغني هذا. ولذا أتوقع أن تحدث متاعب كثيرة قريبا في هذه المنطقة. ولاسيما مع الجنود الهاربين من الجيش الذين يرفضون التسليم للمجالس الثورية. وأتمنى لك يا لارا أن ترحلي قبل أن تقع تلك الكوارث.

– أنت متشائم مبالغ في التشاؤم. ثم ليس في استطاعتي أن أحمل ثيابي وأرحل من تلقاء نفسي. فهناك عهدتي التي يجب أن أسلمها بعد جرد دقيق. فإني أكره أن أبدو كما لو كنت سارقة هاربة، مستغلة ظروف الفوضى الحالية.

– عجبا لأمرك يا لارا! ألا تفكرين إلا في الأواني والأبسطة! فلتتخطفها الأبالسة! فليس هذا وقت التفكير في هذه التفاصيل ومصير البلاد في كفة القدر.

وسكت قليلا ثم قال لها:

– ألا تتوقفين قليلا عن الكي لنتحدث بهدوء؟ ليتني قابلتك أمس. فقد كنت في حالة صفاء ذهني مواتية للحديث في كل موضوع والخوض في كل مسألة. وكنت بحاجة إلى نفض كل ما في صدري. كنت تواقا إلى التحدث إليك عن زوجتي، وعن ابني، وعن نفسي... ولكن لماذا لا يستطيع الرجل الناضج أن يتحدث على انفراد إلى امرأة ناضجة من غير أن تثور حولهما الشكوك؟ ومع ذلك لابد لي من أحد تطمئن إليه نفسي أحدثه عما يجيش في جوانحي. فإننا نجتاز اليوم مرحلة لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم! تصوري الروسيا العتيقة وقد نسف السقف من فوقها كلها فإذا أنت وأنا وكل إنسان يعيش في العراء، لا تهددنا الجواسيس. نعيش أحرارا بمعنى الكلمة فيما نقول وما نفعل، أحرارا حرية كاملة لا حرية نظرية وهمية. هبطت علينا الحرية بطريق الصدفة من السماء. وأمس مساء شهدت اجتماعا عاما في الميدان. كانت الجماهير تمثل روح الروسيا الخالدة وقد

استيقظت من غفوتها وبدأت تتحرك في قلق. وتتكلم بلا انقطاع. لأنه طال اعتقال لسانها قرونا طويلة. خيل إلي أن الناس وحدهم ليسوا هم الذين يتكلمون. بل أن الأشجار والأحجار والنجوم والديار كانت لها ألسنة. وأن هذه الألسنة كانت تخوض في فلسفة ليس لها أولا ولا آخر! ما أشبه ذلك بأيام كتابة الأناجيل. بأيام الرسل. وكأن القديس بولس انبرى يتحدث عن هذه الأيام حين قال: "بألسنة وبنبوة ستتكلم. فاطلب من الله أن يمنحك نعمة الفهم!"

ونظرت إليه لارا نظرة مدركة وقالت:

– كان هذا إحساسي أيضا...

– لقد كان للحرب فضل زعزعة أركان القديم الراسية. ثم جاءت الثورة فنسفت ما تبقى. لقد كان تأثير الحرب تأثيرا زائفا. كانت أداة تعطيل لتيار الحياة. أما الثورة فجاءت كالسيل الجارف الذي لا يوقفه شيء. جاءت إطلاقا لقوة طال اعتقالها، فلما حدثت تلك الانطلاقة شعر كل إنسان بنسمة جديدة تجري فيه. فإذا كل امرئ في الروسيا، يتطور، ويتجدد فهذه حقا هي الولادة الجديدة. فهناك ثورة في حياة كل فرد داخل تلك الثورة العامة. فما أشبه الاشتراكية بالمحيط. وما أشبه ما حدث في حياة كل إنسان من ثورة انفرادية بالجداول والأنهار وجميع الأنهار تصب في البحر. والبحر لا يمتلئ! أنه بحر الحياة الحقيقية. الحياة الحرة الخلاقة المبدعة، التي قرر الناس أن يعيشوها، لا في بطون الكتب وتحف الفن كسابق العهد،بل بصورة عملية!

وظهر الانفعال الشديد فجأة على صوت يوري. فتوقفت لارا عن الكي ورمقته بنظرة دهشة ثاقبة. فاضطرب وتلعثم برهة. ثم سرى عنه فاندفع يقول وكأنه لا يفقه ما ينطق به:

– أن هذه الأيام الفذة في تاريخ الروسيا تثير في نفسي شوقا جبارا إلى نوع من الحياة المستقرة المثمرة التي رائدها الإخلاص والصدق. ليتني أستطيع أن أكون عنصرا حقيقيا من عناصر تطورنا الجديد. لأن الفرح بالحياة الجديدة يملأ وجداني. ولكن هذا الاستبشار يموت على طرف لساني حينما أرى نظرتك الساهمة التي تفيض أسى والتياعا وحيرة. ليتني أستطيع أن انزل عن أي شيء في مقدوري لتتبدد نظرتك هذه، ويفيض وجهك بالطمأنينة والسعادة والرضا عن الحياة! ليتني أرى إنسانا أمينا يضغط على يدي ليطمئنني عليك ويؤكد لي أنك ستكونين بين يديه قريرة العين. من لي بهذا الأخ أو الزوج! ولكني حين أراه يقول لي أنه لم يعد لي بك شأن. وأن مصيرك من شأنه وحده، سأصرعه بلكمة!

وشعر بخطئه فارتبك وبدأ يعتذر، ونهض من أمامها وأطل من النافذة على الحديقة المزهرة التي لفها الظلام... محاولا أن يستعيد رباطة جأشه. وتركت لارا مائدة الكي، ووقفت خلف يوري وقالت بصوت خافت خفوت النجوي:

– لقد وقع ما كنت أخشاه. ما كان ينبغي أن يحدث هذا يا يوري... ما كان يجب... رباه! انظر ماذا جعلتني أصنع؟!

وأسرعت إلى مائدة الكي حيث أحرقت المكواة قميصا لها أخذ الدخان يتصاعد منه. ورفعت المكواة ثم عادت إلى يوري وقالت في عتاب:

– يوري اندريفتش... ثب إلى عقلك. اذهب واشرب كوبا من الماء البارد أيها العزيز، ثم عد إلى رصينا رزينا كعهدي بك. أرجوك يا يوري.

ولم تدر بينه وبينها أحاديث من هذا النوع بعد ذلك. وبعد أسبوع رحلت لارا. وبعد ذلك بمدة قصيرة رحل زيفاجو هو الآخر.

***

وأخذ القطار طريقه سرا إلى المحطة من وراء المخازن، سائرا بظهره. فإذا الناس يندفعون من كل مكان للتزاحم على الركوب، هربا من تلك المنطقة المهددة. وفي لحظة واحدة امتلأ بهم القطار وهو لم يزل سائرا في طريقه إلى رصيف المحطة. وما استقر هناك حتى كانت الجماهير تملأ السقف والسلالم بعد أن ضاق بهم جوفه.

وتمكن يوري بمشقة من القفز إلى وصلة تربط عربتين، ثم نفذ إلى إحدى العربات بطريقة لا يمكن تصورها. ثم اتخذ مقعده فوق حقائبه طيلة الطريق إلى سوخينتيشي.

وتبددت السحب، وغمر الحقول فيض من أشعة الشمس، وانتشر صفير صراصير الحقول في كافة الأرجاء، حتى كادت تحجب أصوات عجلات القطار... وتعذر على الشمس أن تنفذ إلى داخل القطار لشدة الزحام حول النوافذ.

وكان صخب الناس حول يوري شديدا، ترتفع عقائرهم بسبب بعضهم بعضا... وفي مكان آخر أخذ غيرهم يقامرون. وكلما وقف القطار يرتفع الصخب في داخله، ومن بالداخل يتضجر من ضغط من يسعى إلى الدخول.. وبلغت الضوضاء عنان السماء كأنها بركان ينفث حممه. ومن عجب أنك كنت ترى سكونا شاملا يعقب هذه الضجة، لا يمكن تعليله. فكنت تتبين وقع الأقدام المسرعة على الرصيف، والهرج والجدل وعبارات الوداع.

وهب عبير عطري مألوف لدى يوري، كأنه رسالة من حبيب، حملها النسيم من مليوزييفو، موجهة إليه هو بالذات. وانبعث العبير من مكان بجانب النافذة، وحال الزحام بين يوري وتلك النافذة، فلم يستطع رؤية الأشجار التي بعثت العبير، ولكن خياله سبح به، فصور له أنها قريبة منه، بل أنها تنشر فروعها فوق سقوف

عربات القطار، وقد كستها الأوراق الغزيرة، وتناثرت فيها الأزهار الصغيرة كأنها نجوم تزين صفحة الليل.

ولم ينقطع الزحام الصاخب طول الطريق... وأشجار الموالح المحاذية له مزهرة، وعبيرها لا ينفك عن الانتشار، يلاحق المسافرين كأنه طير يسير مع القطار جنبا إلى جنب.

وفي المساء، بلغ القطار سوخينتيشي، فقاد حمال عجوز يوري عبر بعض قضبان لا يضيئها نور، إلى قطار آخر وصل في تلك اللحظة، وكان قطارا من قطارات الطوارئ. ثم ذهب به إلى إحدى عربات الدرجة الثانية، وفتح له باب إحدى المقصورات بمفتاح معه، ثم وضع حقائب يوري فوق الأرفف وعندئذ حضر "الكمساري" وأراد أن يلقي بالحقائب إلى خارج القطار... لولا لباقة يوري في التحدث معه واسترضاؤه له، لتركه وانصرف.

وكان هذا القطار ذا طابع خاص، فكان شديد السرعة في سيره، لا يقف في معظم المحطات. وكان حارسه مسلحا. وكانت العربة التي ركب فيها يوري تكاد تكون خالية، وتضيء مقصورته شمعة ثبتت في حامل على منضدة، وراح لهبها يهتز ويتراقص تحت تأثير تيار الهواء. والشمعة تخص راكبا آخر، وليس معهما ثالث. وهو شاب ذهبي الشعر، يوحي منظره أنه فارع الطول وأطرافه في استرخاء كأنها مفككة، وهو مضطجع في ركن النافذة. وما أن أقبل يوري حتى اعتدل الراكب في جلسته في تأدب. وبرز من تحت الراكب كلب صغير، له أذنان كبيرتان متهدلتان، نظر إلى يوري وتشممه، ثم راح يذرع المقصورة جريا وقد بسط مخالبه، ولكنه تراخى عندما رأى مولاه ساكنا، وبإشارة من صاحبه، عاد إلى مكانه تحت المقعد.

ولمح يوري في هذه اللحظة جراب البندقية، وحزام الرصاص والكيس المنتفخ، وكانت كلها على الرف... وفهم أن الشاب عائد من رحلة صيد.

وكان الراكب ميالا للحديث، بل مشوقا إليه، فابتسم ليوري ابتسامة تنم عن سروره لمشاركته المقصورة. ثم اندمجا في الحديث. وكأنما لم يحفل من منظر يوري وملامحه بغير فمه الدقيق! وكان صوته رفيعا عاليا، ثقيل الوقع على الأذن!

ومهما يكن الأمر، فقد بدت لهجته طريفة ليوري، حتى أن أثر ذلك ظهر بوضوح على أساريره فقال لنفسه:

– يجدر بي أن آوي إلى فراشي!

وعلى الفور صعد إلى مضجعه، وكان سريره هو الأعلى، وأراد الشاب تجملا أن يطفئ الشمعة حتى لا تبعد النوم عن عيني يوري، فوافق هذا، وبذا ساد الظلام المقصورة.

وقبل أن يستسلم للنوم قال يوري متسائلا:

– ألديك مانع أن أغلق النافذة؟.. ما أحسبك خائفا من اللصوص؟

ولم يتلق جوابا من الراكب، فكرر السؤال بصوت أكثر وضوحا، وأيضا لم يتلق ردا في المرة الثانية. فأشعل عود ثقاب، ليتبين زميله، فلعله غادر المقصورة، وهل يعقل أن يحدث ذلك في لمح البصر وهو لم يغف بعد!.. ولكن الشاب كان لا يزال في مجلسه حيث هو، وعيناه لا تزالان مفتوحتين، وابتسم ليوري عندما أطل عليه!

وأشعل يوري عود ثقاب آخر، بعد أن انطفأ العود الأول، وأعاد سؤاله للمرة الثالثة... وعندئذ فقط أجاب الشاب.

– أفعل ما يحلو لك.. فليس معي ما يغري اللصوص... وحبذا لو تركت النافذة مفتوحة، فإن الجو قابض!

وعندئذ قال يوري لنفسه:

– أنه شخصية فذة.. أنه غريب الأطوار ولا شك.. لا يتكلم في الظلام.. يا له من أمر عجيب.

***

وانتظر يوري أن يلفه الكرى، وقد اضطجع، إذ كانت أحداث الأسبوع قد أنهكت قواه، ولأنه استيقظ مبكرا ليبدأ رحلته الشاقة اليوم.. ولكن الأرق لازمه حتى الفجر، وراحت أفكاره تتدافع في الظلام.

وكان محور أفكاره يدور نحن نقطتين لا يحيد عنهما... احداهما عن زوجته تونيا، وعن منزلهما وحياتهما المستقرة التي كان يتوجها الإخلاص والصدق والمحبة الدافقة.. وانتاب يوري قلق بشأن هذه الحياة، فكان أمله أن تظل كما هي إلى الأبد.. وكان يستشعر الحنين إليها– والقطار ينهب الأرض– بعد فراق دام عامين.

وكان في نطاق تفكيره أيضا، الولاء للثورة، بل الإعجاب بها... وكان يشعر بالارتياح إلى الأوضاع الجديدة، التي كانت تحمل الأماني التي تلوح للفكر الروسي– قبل الحرب– باعتبارها محور الفن والحياة في مستقبل روسيا بأكملها، وفي مستقبله هو... بالذات.

وكان ارتياحه للعودة إلى ذلك الجو– وقد انتهت الحرب– ليشهد استمراره وآثاره، لا يقل عن شعوره بالارتياح لأنه عائد إلى بيته وأسرته.

كذلك كان شعوره في النقطة الثانية من أفكاره، ولكنها كانت تختلف عنها في النقطة الأولى... فلم تكن الأمور الجديدة مألوفة، ولم تكن نتيجة اختيار، كما لم تكن من الواقع، بل كانت مفاجئة وكأنها بركان أو زلزال.

لقد كانت الحرب بين هذه الأمور... بما فيها من دماء ودمار، وأهوال، وتشرد، وعزلة، ومحاكمات، وتجارب وحكم أوحت بها... وكان بينها أيضا المدن الصغيرة، تلقي بك الحرب إليها، والناس الذين تلقاهم!... ثم... الثورة.. تلك الانتفاضة الجديدة، وليدة الحرب، ثورة الجنود وقد قادها المحترفون... البلاشفة!

وكانت انتيبوفا الممرضة ضمن نطاق أفكاره الجديدة، وقد احتجزتها الحرب إلى الجزء الأخير من تفكيره، مع حياتها الغامضة.. لم يبدر منها يوما أنها أنحت باللوم على أحد ومع ذلك كان صمتها.. تأنيبا محسوسا. كانت متحفظة إلى حد بعيد، غامضة في تحفظها! وراح يوري يجهد أفكاره لكي يقنع نفسه أنه لا يحبها.. يفكر من صميم قلبه، كما كانت طبيعته طيلة حياته، أن يحب الناس– كافة الناس– لا أسرته ومعارفه فحسب!

وكان القطار ينهب الأرض نهبا، فيعبث الهواء المندفع بشعر يوري، وينشر فيه الغبار. وكان يسمع الصخب والضجيج في كل لحظة، بالليل أو بالنهار، وحفيف أشجار الموالح يصفر في أذنيه، ويصل إلى سمعه أحيانا قرقعة مركبات تسير في الظلام نحو المحطة.

وكان كان صفير الهواء، وحفيف الأشجار، وقرقعة المركبات تمتزج بعضها ببعض، كانت أفكاره التي تزاحمت، وهو يتقلب متململا في سريره.. فكأنها أنباء القلق المتسع الدائرة في الروسيا.. أنباء الثورة.. الساعة الرهيبة العصبية التي تقرر المصير، والعظمة التي تتوجها.

***

ولم يستيقظ يوري إلا في الحادية عشرة في اليوم التالي، فسمع زميله يهيب بكلبه– وكان وقتئذ ينبح– بصوت لا يكاد يكون مسموعا "بيجو! بيجو!" ولم

يشاركهما في المقصورة أحد. وتجاوز القطار إقليم كالوجا، وأضحى قريبا من موسكو وقد عرف يوري ذلك من أسماء المحطات التي يعرفها.

نهض يوري، وحلق لحيته، ثم اغتسل، وكان يستشعر وهو يفعل ذلك نفس الطمأنينة التي كان يستشعرها قبل الحرب، وعاد إلى المقصورة فدعاه زميله ليشاركه طعام الفطور فكانت فرصة مواتية كي يتأمله عن كثب، ولفت نظره ميله الشديد إلى الثرثرة، إذ لم يتوقف لحظة عن الحديث. ولم يكن يتكلم ليوضح أفكارا للغير، أو ليتفهم أفكارهم، وإنما كان يتكلم لشغفه بالتكلم.. أياً كان ذلك الذي يقول. وكان يأتي بحركات غير مألوفة وهو يتكلم.. فتارة يقفز، وتارة يضحك في قهقهة عالية دون أن يكون هناك ما يبعث على ذلك، وتارة يفرك يديه في سرعة وعصبية، فإذا أعيته الحيلة في التعبير، أخذ يطرق الأرض بقدميه، ثم يغرق في الضحك، حتى تقطع أنفاسه.

ولم يتغير حديثه عما كان عليه في الليلة السابقة من حيث طابع الإلحاح إلى درجة بعيدة. فهو أحيانا يذكر أشياء خاصة عن نفسه لم يطلب منه أحد سردها، وأحيانا يتجاوز أسئلة غاية في البساطة، فلا يجيب عليها. وأخذ يفضي بأمور منوعة عن نفسه، معظمها أمور خيالية لا يستسيغها العقل. وأغلب الظن أنه كان يسعى إلى تجسيم شخصيته لدى المستمع والتأثير عليه بآرائه المتطرفة.

وأيقظ ذلك ذاكرة يوري، فتذكر أن هذه عادة "العدميين".. أصحاب مذهب "العدمية". وهو مذهب كان يهدف إلى هدم النظم الاجتماعية والاقتصادية في القرن الماضي. واعتنقتها شخصيات قصص "دوستويفسكي". وورثها في العهد القريب بعض الأبناء المثقفين، الذين أصابوا قسطاً كبيرا من التقدم الفكري.

وذكر له الزميل فيما ذكر أن عمه أحد الثوريين المعروفين، بعكس والديه، فكانا رجعيين إلى درجة متناهية.. وعلى حد قوله كانا "من عهد ما قبل التاريخ!"

وأنه نشأ في ضيعة واسعة يملكونها في منطقة مجاورة لجبهة الحرب. وقد احتدم الخلاف بين عمه ووالديه لثوريته ولرجعيتهما وطال. على أن عمه لم يأبه بذلك، فكان يساعدهما بنفوذه للخروج من بعض المآزق. وأنه اعتنق مذهب عمه، فهو متطرف في كل شيء.. وفي كل ناحية، في الحياة، أو السياسة، أو غيرهما.. وقد أوحى هذا إلى خاطر يوري طيف: "بيتر فيرخوفنسكي" أحد أعلام التطرف في إحدى القصص. وقال يوري يحدث نفسه:

– لعله يذكر لي الآن أنه من أنصار التحرر من القواعد الواقعية واعتناق قواعد أخرى تهدف إلى التقدمية.

وصدق حدسه، فما لبث الحديث أن تحول إلى هذه الناحية وكان حدس يوري يصدق قبل محور أي حديث. إذ خاض زميله الحديث في كل ناحية جالت بخلد يوري.. سباق الخيل الرياضة، والانزلاق، والمصارعة الفرنسية، وحتى في الصيد.. فذكر الشاب أنه كان في رحلة صيد بجوار ضيعة أسرته ويقول مزهوا أنه صياد ماهر لا يخطئ الهدف، وأنه لولا عدم لياقته جسديا للمع أسمه وتألق نجمه في الجيش. ثم صاح فجأة وهو ينظر إلى يوري بعين ثاقبة:

– ألم تفطن إلى ذلك؟ كنت أعتقد أنك لمست علة متاعبي!

وأردف قوله بأن أخرج بطاقتين من جيبه، قدمهما إلى يوري. أحداهما بطاقة زيارة، وكان اسمه عليها ذا لقب مزدوج: "مكسيم أريستا خوفيتش كلينستوف بوجور فشيخ"، ورجا يوري أن يدعوه "بوجور فشيخ"، تبركا وتشرفا بعمه الذي يحمل نفس الاسم. أما البطاقة الأخرى فكانت عجيبة حقا، كانت مقسمة إلى مربعات، وفي كل مربع رسم يدين متصلتين في أوضاع متباينة، وطويت الأصابع بأشكال مختلفة وقال أن هذه هي الحروف الأبجدية أو المصطلحات الخاصة بالبكم والصم.

وعندئذ أضحى كل شيء واضحا أمام يوري: كان بوجور فشيخ تلميذا موهوبا لمدرسة هارتمان أو غيرها.. وكان أبكم وأصم، ولكنه استطاع أن يرقى درجات الكمال في فن تبادل الحديث بالعين، لا بالأذن... وذلك بمراقبة حنجرة مدرسية وقد جعلته هذه القدرة الخارقة يفهم ما كان ينطق به الغير.

***

وراح الشاب، في تؤدة يلقي محاضرة، يتنبأ فيها بأحداث لها خطورتها، وانتفاضات عنيفة تشمل الروسيا في المستقبل القريب، وأمن يوري في نفسه أن ذلك أقرب إلى الحدوث فعلا، ولكن أدهشته الطريقة العجيبة الفذة التي كان يلقي بها الشاب محاضرته في اعتداد كبير وثقة مما يقول، مما كاد يذهب بعقل يوري فقاطعه قائلا:

– لحظة يا عزيزي... قد يكون ما قلته صحيحا... ولكن الفوضى السائدة والتفكك، وضغط العدو... كل ذلك يوحي بأن الوقت الحاضر ليس ملائما للتجارب... لابد من فترة انتقال بين كل انتفاضة وأخرى... لابد أن يتخلل ذلك سلام ونظام.

فأجابه بوجور فشيخ على الفور:

– هذا كلام ساذج... الفوضى التي تتكلم عنها إنما هي الوضع الطبيعي للأمور، وهو لا يختلف إطلاقا عن النظام الذي تتحمس له.. وهذا الدمار إن هو إلا مرحلة انتقالية تمهيدية لمشروع إنشائي واسع النطاق. أن المجتمع لم يتفكك بالشكل الذي تتصوره إلى درجة كافية، بل يجب أن يتحطم تماما. ثم تقوم حكومة حقيقية ثورية، تجمع هذا الحطام، على أسس جديدة، تختلف كل الاختلاف عن النظم والأسس السابقة.

وأحس يوري باشمئزاز وتقزز، وتملكه ضيق، فترك المقصورة وخرج إلى الردهة، وكان القطار قد ضاعف من سرعته، وأخذ يقترب من موسكو، وسط الغابات التي تخللها بعض البيوت الصيفية الصغيرة، وأخذ القطار يمرق أمام أرصفة المحطات الصغيرة المزدحمة التي يمر بها، فيكسو الناس بسحابة من الغبار، وصفير القطار لا ينقطع.

وفطن يوري، لأول مرة، كأن غشاوة انقشعت عن عينيه، إلى نفسه، وإلى ما يجرى حوله من أحداث، وإلى ما ينتظره.. وذلك في فترة لا تتجاوز الساعتين.

ثلاث سنين، مشحونة بالتنقلات والتغيرات، والقلق، والحرب، والثورة، والانتفاضات، والدمار، ومناظر الموت، وقصف القنابل، والجسور المنسوفة، والحدائق، والخرائب... كل هذه تحولت فجأة في مخيلة يوري إلى فضاء شاسع مقفر. وأول ما جابهه– منذ بداية هذه الأحداث– هذه العودة السريعة المذهلة، وفي قرارة نفسه أن بيته لا يزال كعهده به لم يمسه سوء، بيته العزيز لديه... حقا هذه هي النقطة الحساسة في الحياة.. هي التجربة... هي بغية كل مغامر.. العودة إلى البيت.. إلى الأسرة.. إلى النفس.. إلى استئناف الحياة!

ولم يول يوري زميله اهتماما عندما لاحت له أبراج كنيسة "يسوع المخلص"، عند سفح التل... وفي لحظات تجلت له عمائر المدينة ومداخنها، ودورها وسقوفها، فأسرع إلى المقصورة وهو يصيح:

– موسكو... آن لنا أن نستعد!

وفي هذه اللحظة، تناول بوجور فشيخ كيس الصيد، وأخرج منه بطة سمينة، قدمها ليوري وهو يقول:

– هذه لك... تذكارا لرحلتنا، فإنني نادرا ما أقضي يوما في صحبة عزيزة كهذه.

وعبثا حاول يوري أن يرفض الهدية، فلم يسعه إلا أن يقول في النهاية:

– حسنا، سأتقبلها كهدية منك لزوجتي!

فغمغم بوجور فشيخ في سرور ظاهر:

– جميل... رائع... زوجتك!

وكأنه لم يسمع بهذه الكلمة من قبل، فأغرق في الضحك، وقد أخذ جسده يهتز لشدته، حتى أن كلبه بيجو قفز من مكانه، وكأنما ليشاركه سروره.

ووصل القطار المحطة، وساد الظلام المقصورة، وكأن الليل قد أقبل... فمد الأبكم الأصم البطة إلى زيفاجو وقد لفها في قطعة من الورق.

الفصل السادس

في موسكو

بعد أن اجتازت العربة كثيرا من الشوارع ومفارق الطرق وقفت أمام منزل يوري، وهو يقع على ناصية شارعين... فملكت الرهبة يوري، وحبس أنفاسه، وأخذ قلبه يدق دقا عنيفا وهو ينزل من العربة، وما أن وصل إلى المدخل حتى رفع يده وأخذ يدق الجرس. وهاله أنه لم يسمع جوابا، فعاود دق الجرس، وظل ينتظر.. وما من مجيب! فاستمر في دق الجرس، ولا يكف إلا ريثما يبتلع أنفاسه، ويحاول أن يهدئ من قلقه.

وفيما هو كذلك إذ رأى الباب يفتح على مصراعيه، وتونيا أمامه.. فكانت مفاجأة أذهلت كليهما. على أن فتح الباب بيد تونيا نفسها كان أعظم ترحيب، بل بمثابة ضمة وعناق.. وما أن استردا جأشهما حتى أخذا يتعانقان، ثم اندفعا يتكلمان في وقت واحد:

– خبريني أولا.. هل أنتم جميعا بخير؟

– نعم يا حبيبي.. لا تقلق... الجميع في أحسن حال أرسلت لك عدة رسائل كلها ثرثرة.. معذرة، فلندع ذلك الآن. لماذا لم تبرق لي كما ذكرت؟ اترك المتاع، سيتولى شأنه ماركل. هل دهشت حين لم تفتح يجورونوفا الباب؟ أنها في الريف.

– لقد زدت نحولا يا عزيزتي تونيا.. ولكن شبابك وجمالك زادا نضرة وبهاء، لحظة ريثما أدفع أجر السائق.

– أرسلت يجورونوفا لتحضر بعضا من الدقيق. وقد استغنينا عن معظم الخدم، وليس لدينا الآن سوى فتاة واحدة لا تعرفها، اسمها نيوشا. احتفظت بها لتعني بعزيزنا ساشا وليس لدينا سواها. علم الجميع بنبأ قرب مقدمك، وجميعهم في شوق إليك: جوردون، ودودوروف والجميع.

– يهمني أن أعرف كيف حال الحبيب ساشا.

– أنه في أحسن حال. حمدا لله. لقد استيقظ الآن من النوم ولولا قدومك الآن من القطار، والحمى متفشية، لأخذتك إليه.

– وهل الوالد موجود؟

– ألم يكتب إليك أحد بشأنه؟ أنه الآن يعمل في مجلس الضاحية، يشغله العمل من الصباح حتى المساء، لأنه رئيس المجلس، نعم! ألا تصدق؟! هل انتهيت مع السائق؟ ماركل؟! يا ماركل!

كانا يتحدثان وهما واقفان وسط الطريق الذي زحمه المتاع وأخذ المارة يتمهلون ويتفحصونهما من أعلى إلى أسفل، ثم ينظرون إلى العربة وقد أخذت تبتعد، ثم يعاودون النظر إلى الباب المفتوح.

وأقبل ماركل مهرولا، تعلو رأسه قبعة البوابين وأخذ يرحب بسيده:

– رباه! أنه يورشيكا بلحمه ودمه، أكاد لا أصدق عيني! مولاي المحبوب..! آذن فنحن في موضع القلب منك ولم تنسنا. لقد كنا نصلي من أجلك ونبتهل كل صباح وكل مساء!

وحانت منه نظرة إلى الواقفين أمام الدار فأخذ يزجرهم بحدة قائلا:

– أيها المتطفلون! هل ترون عجبا؟ انصرفوا..! فيم تحملقون؟

فتحول إليه يوري وعانقه قائلا:

– كيف حالك يا ماركل؟ وكيف حال زوجتك وبناتك؟

– وماذا تظن أن يكون حالهن؟ أنهن في طريقهن إلى النضوج! أما عن الأخبار، فها أنت ذا ترى بنفسك، أننا دائبون على العمل في غيابك، نعالج كافة الأمور. وماذا نعمل؟ ارتباك وفوضى!

فقاطعته تونيا قائلة:

– يوري.. عزيزي يوري.. سأشكو إليك ماركل هذه عادته يا عزيزي أنه كثير الثرثرة، وأنا لا أحتمل ثرثرته، وها أنت ذا ترى تعليقاته اللاذعة، لا تقاطعني يا ماركل، أنني أفهمك جيدا! أنك تراوغ، يجب أن تكف عن حماقتك.

وعندئذ دخلوا إلى المنزل، وأغلق ماركل الباب وحمل الأمتعة، ثم استمر يحدث يوري:

– لقد اغتاظت تونيا مني، حتى أنها قالت لي: "يا ماركل ضميرك حالك السواد كماسورة الموقد!" أنها تقول: "أن كل مخلوق من أي جنس يدرك ما يحدث في هذه الأيام! وهذا صحيح". صدقني أو لا تصدقني أن المتعمقين طالعوا كتاب الماسونية، بعد أن ظل مائة وخمسين عاما مدفونا. في اعتقادي، بعد طول تفكير، أن شرذمة من الخونة يديرون دفتنا! ولكن هل أجرؤ أن أجهر بذلك؟.. انظر.. انظر.. أن تونيا تزجرني بهزة من رأسها.

وعادت تونيا تقول ليوري:

– ما أبلغ حكمته وأعظم براعته!!

ثم التفتت إلى ماركل وخاطبته بحدة:

– كفى سفسطة يا ماركل! اهتم بالحقائب، فهذا ما نطلبه منك، وسيناديك يوري إذا احتاج إلى شيء.

وقالت تونيا لزوجها:

– لقد انصرف، أنه مخاتل ماكر، يخيل إليك أنه أبله، ولكنه لا يكف عن الثرثرة، ولا أدري من سيكون ضحيته التالية.

– أنك تبالغين! ولعله مخمور، ولا أكثر.

– وهل يفيق لحظة؟ لقد ضقت به ذرعا، أواه.. عاد ساشا إلى النوم قبل أن تراه!.. هل في ثيابك حشرات مما تسبب الأمراض؟

– لا أعتقد، فقد كنت في عربة فاخرة، ومع ذلك فلأغتسل لألقي عني غبار السفر.. ما هذا؟ إلى أين تذهبين بي؟

– نسيت أن أقول لك أن الرأي قد استقر على أن نتخلى عن جزء من الطابق الأرضي للأكاديمية الزراعية. أن المنزل كبير كما ترى، ومن الصعب تدفئته في الشتاء. وأكثر من ذلك فإن الطابق الأعلى يزيد عن حاجتنا، لذا عرضناه عليهم، على أنهم لم يشغلوه بعد. وفقط نقلوا المكتبة ونماذج النبات والحبوب، وبهذه المناسبة أرجو ألا تهاجمنا الفئران بسبب الحبوب. لأنهم يعنون بنظافة الحجرات. هل تعلم أننا ألغينا من قاموس أحاديثنا كلمة حجرة أو غرفة، واستبدلناها بكلمة "مساحة للسكن؟" هيا لنرقى السلم الخلفي أم هل يضايقك الصعود؟ هيا، وسأريك الطريق.

– يسرني ما فعلتم، لقد كان المستشفى الذي كنت فيه من بيوت الأمراء، متتابع الحجرات، أرض بعضها من "الباركيه"، تتخللها– وراء الأسرة– أصص فيها شجيرات نخيل، تمتد أوراقها كأنها أسنة حراب، وكانت تفزع الجرحى القادمين من

ميدان القتال. فاضطررنا إلى إخراج هذه الأصص من الحجرات، وقد كانت فيها على سبيل الترف، والكماليات، والإسراف، والمظاهر، والرفاهية. أنني مسرور بما فعلتم وحبذا لو تخلينا عن حجرات أخرى.

– ما هذا الذي معك، أن منقار طير يطل منه. أوه!! أنها بطة! يا لها من مفاجأة سارة! بطة برية، من أين أتيت بها؟ أكاد لا أصدق عيني. أنها اليوم ثروة!

– أنها هدية من مسافر. لها قصة طويلة سأرويها فيما بعد. هل أدعها في المطبخ؟

– سأعهد بها إلى نيوشا، تنزع ريشها وتغسلها، يخيل إلي أن الشتاء سيزخر بالنكبات وأقساها المجاعة.

– تردد الألسن ذلك في كل مكان. هل هناك شيء يعدل في الدنيا أن يعيش الإنسان بين أسرته في سلام؟! على أن ما بعد ذلك مقدر في الغيب. أن أياما عصيبة تنتظرنا. لذلك يسعى البعض إلى النجاة بالسفر إلى القوقاز، أو إلى ما هو أبعد من القوقاز. على أنني لا أحبذ ذلك، فيجب أن يكون المرء قوي العزيمة، وأن يضحي في تحمل أعباء بلاده، وأنني أفضل ألا أزيد من متاعبك، فأبعث بك إلى مكان أمين.. فنلندا مثلا. لن نبلغ نهاية السلم لو أننا قضينا الوقت في هذه الثرثرة.

– لحظة.. لك عندي خبر مدهش: ألا تعلم أن نيقولاي نيقولايفتش قد عاد!

– ومن يكون نيقولاي نيقولايفتش؟

– عجبا!.. خالك كوليا!

– لا أصدق.. هذا مستحيل يا تونيا! وكيف يمكن أن يعود؟

– ما أقول إلا الصدق! فقد كان في سويسرا، ثم أطال الرحلة حتى بلغ لندن، وأخيرا عاد عن طريق فنلندا.

– أنك تهزلين يا تونيا.. لا شك تهزلين. هل رأته عيناك؟ أين هو الآن؟ وهل نستطيع أن ندعوه على الفور؟

– مهلا! أنه عند بعض أصدقائه في الريف، ووعد بالحضور بعد يومين، لقد تغير كثيرا، وحين تراه سيذهلك منظره ويغلبك الأسى. عند عودته عرج على بطرسبرج، وانضم إلى البلاشفة! وقد جادله الوالد طويلا، أننا نصعد ببطء.. لقد ذكرت أن أمامنا الكثير من المتاعب، والأخطار، والمخاوف!؟

– هذا هو اعتقادي، ولكن دعينا من ذلك، فقد وطنت النفس على الاحتمال، والصبر، وحين تقوم القيامة، فسيكون شأننا مثل الناس جميعا.

– يقولون أن الجدب سيغشانا، وأننا لن نجد الماء ولا النور وستلغى النقود، ولن تصلنا الأغذية. ألا نتوقف عن الحديث ونتابع الصعود؟ اسمع.. سمعت أنهم يبيعون مواقد جيدة يستعملون ورق الصحف وقودا لها، فتطبخ الطعام. وأعرف عنوان المخازن التي تبيعها، وحبذا لو اشترينا واحدا قبل نفادها.

– حسنا.. مادامت هذه رغبتك، وهي فكرة طيبة. ولكني ما كنت أتصور ما ذكرته عن الخال! أنني أكاد لا أصدق حتى الآن!

– أحب أن أخبرك بما رسمته للمستقبل: سأفرد في الطابق الأعلى جزءا من ثلاث حجرات تقريبا، متصلة ببعضها، نتخذه سكنا مع الوالد وساشا، وندع بقية الدار، ونقيم حاجزا، فيكون لنا باب مستقل خاص بنا. ثم نضع الموقد في الحجرة الوسطى، ونتولى أعمالنا بأنفسنا، من غسيل وطهي، ونخصص حجرة أخرى للجلوس، وبذلك نوفر الوقود ومن يدري فقد تتحسن الأحوال.

– لا ريب في ذلك.. ما رأيك في إقامة حفلة صغيرة، ندعو إليها الخال كوليا ليشاركنا في تلك البطة السمينة؟

– فكرة جميلة، وسأكلف جوردون أن يأتينا ببعض الكحول فعنده مصادر غامضة يظفر به منها. انظر.. هذه الحجرة التي كنت أفكر فيها.. هل تروق في نظرك؟ ضع حقيبتك وانزل لتحضر الأخرى.. يمكننا أيضا أن نوجه الدعوة إلى دودوروف وشورا إلى المأدبة.. هل تمانع؟ أظن لا! لعلك لازلت تذكر مكان دور المياه؟ اذهب وألق فيها بعض السائل المطهر. وسأذهب أنا إلى ساشا، وأبعث بنيوشا إلى المطبخ، وحين يتم إعداد المائدة.. سندعوك.

***

وكان الجديد على يوري عندما عاد إلى موسكو ابنه ساشا إذ كان قد التحق بالخدمة العسكرية فور ولادة ابنه، ولهذا فهو لا يكاد يعرفه، لأنه لم يكن قد رآه قبل أن يغادر موسكو، إلى ساحة القتال.

وكان في نية يوري أن يطلق على ابنه اسم الكسندر، أو ساشا على سبيل التدليل، تكريما لحميه. وحين سمع أصوات بكاء الأطفال في الحجرة المخصصة لهم بالمستشفى الذي تمت فيه الولادة. تميز– بالغريزة– صوتا دون سائر الأصوات، حدس أنه صوت ابنه، فقد كان الصراخ ذا طابع متميز، كأنه ينم عن معالم صاحبه ويحدد شخصيته! بل سبح به الخيال إلى أبعد مدى، فأحس أن صراخ ذلك الطفل ينسجم مع الاسم الذي سيحمله!

وكان قلب الأب صادقا في حدسه وإحساسه، فقد كان الصوت لابنه دون غيره، وكان ذلك أول عهده به. وكانت معالم التعرف التالية، الصورة الفوتوغرافية التي أرسلتها تونيا إلى يوري في ميدان القتال، صورة طفل وسيم، ذي فم دقيق، وقد

مد يديه كأنه يرقص، أتم العام الأول من عمره، وبدأ يتهادى بأولى الخطوات. وقد أتم الآن عامين، فبدأ لسانه يرسل بعض الألفاظ.

وأخذ يوري يخرج ملابسه، بعد أن وضع الحقيبة على المنضدة... ثم راح يتساءل في نفسه:

– ترى فيم كانت تستخدم هذه الحجرة من قبل؟

لقد كان شكلها غريبا عليه. ولا شك أن تونيا قد غيرت كثيرا من معالم الأثاث، كما غيرت من طريقة تنسيقها.

وطالعه البدر مكتملا من خلال عمد برج أجراس الكنيسة المواجهة للنافذة، وانتشرت أشعته على ملابسه وكتبه في الحقيبة. وفي هذه اللحظة، تعرف على الغرفة، التي كانت غريبة عليه، منذ لحظة، وعرف أنها كانت حجرة المخزن، التي كانت تحفظ بها مخلفات الأثاث القديم والتالف.

وفي هذه الحجرة أيضا، كانت آنا تحتفظ بسجلات أسرتها، والحقائب المكدسة بالملابس، وبالمتاع الزائد، وكان محظورا على الأولاد دخولها، إلا في مناسبات قليلة كالأعياد، حيث يحتشد المنزل بالأولاد.

وقف يوري صامتا يستعيد ذكرى أيام الطفولة، ثم هبط السلم ليحضر الحقيبة الثانية.

وانهمكت نيوشا، في المطبخ، في تنظيف البطة ونتف ريشها، وحينما دخل عليها، وكانت جالسة القرفصاء، قفزت في خفة ودلال، وغضت الطرف في خجل وحياء وقد توردت وجنتاها، وجعلت تنفض ريش البطة عن ملابسها وهي تبتسم له، وتهم بأخذ الحقيبة منه... فإذا به يسمع تونيا تناديه:

– يوري... في إمكانك أن تدخل الآن!

ودخل يوري، فطالعه ساشا بوجهه الصبوح، وتراءى له أنه ليس في جمال الصورة الفوتوغرافية التي أرسلتها تونيا، إلا أنه كان قريب الشبه من أم يوري المرحومة "ماريا نيقولايفنا زيفاجو" بل أن دقائق ملامح ساشا كانت أكثر تعبيرا من أية صورة يحتفظ بها لأمه!

وأخذت تونيا تداعب الطفل وتقوله له:

– هذا بابا... بابا... أشر له بيدك، ليعلم مبلغ ذكائك!

ثم مالت بالمهد، موحية إلى يوري أن يحمل الطفل بين ذراعيه ويقبله. ولكن الصغير استشعر الخوف، وبان أنه ينفر من هذا "الغريب" ذي الشعر الغزير، ومع ذلك تركه ينحني عليه... وعندئذ اعتدل وتشبثت يده بثوب أمه، وهوى بيده الأخرى على وجه يوري..! وكأنما ذعر لفعلته، فتهاوى مرتميا في حضن أمه، وأجهش بالبكاء.

ولكن تونيا نظرت إليه في حدة وأخذت تزجره وتقول له:

– أيها العنيد... لماذا تبكي يا شونكا؟ هل هذه تحيتك لأبيك!؟ ماذا يقول عنك؟ هل تريد أن يصفك بسوء التربية؟ عالج الأمر وقبل بابا... قبل بابا...

ولكن يوري قاطعها بقوله:

– دعيه وشأنه، لا تنزعجي أو تغضبي، هل يدور بخلدك أن ما حدث طالع سيئ... هذا هراء... من الطبيعي أن أرى ذلك من الطفل، فإنه لم يرني قبل الآن، وغدا يألفني، وتتوطد بيننا المحبة... وسوف ترين أننا سنصبح أصدقاء أعزاء!

ولكنه في قرارة نفسه أحس بانقباض وشعور غامض بالضيق وهو يغادر الحجرة.

عاش يوري في الأيام التالية عقب عودته في عزلة، وخيل إليه أن الذنب ذنبه، وأنه يجني ما زرع! تغيرت نظرته لأصدقائه بشكل عجيب، وانطبعت لهم في نظره صورة معتمة غامضة، وكأن صورة كل منهم ليست هي الصورة الحقيقية، في حين أنها لا تزال في ذاكرته واضحة المعالم!.. لعله غالي عند تصويرهم لنفسه.

ونتيجة لذلك لم يجد يوري لنفسه في مصاحبته للناس ملاذا يسكن إليه إلا عند تونيا وأبيها، واكتفى باثنين أو ثلاثة آخرين من الأصدقاء ذوي المهن المتواضعة الذين يقبلون عليها في عناء ولكن في سكون، دون أن يستجلبوا الرثاء أو يثرثروا.

وحان موعد المأدبة التي اقترحت إقامتها تونيا، ووافقها هو عليها، قوامها البطة والخمر. ولما كان قد قابل معظم المدعوين قبل الحفلة، فقد فقدت الصفة التي أقيمت من أجلها وهي اللقاء الأول بعد العودة.

وكان وجود بطة سمينة في الحفلة يعتبر بذخا أقرب إلى الخيال، في وقت ساد فيه الجوع، ومن عجب أنه تعذر الحصول على خبز، ولذا صار مذاقها غير مألوف. أما الخمر، وقد كانت أندر بضاعة في السوق السوداء، فقد جاء بها جوردون في زجاجة من زجاجات الأدوية، وما أن وقع نظر تونيا عليها، حتى ضمتها إلى صدرها، وكأنها طفل عزيز، وأخذت تصب منها جرعات صغيرة تخلطها بالماء، فكان هذا الخلط بالماء مبعث ضيق للشاربين لأن الخمر فقدت جزءا من تأثير تخديرها.

على أن مبعث الأسى حقا، أن هذه المأدبة جاءت في ظروف عصيبة، لا يكاد الإنسان يجد فيها ما يتبلغ به. فكانت موسكو– من خلف النوافذ– تجثم جائعة خاوية في ظلام دامس، وكأنما توقفت الحركة فيها بتأثير سحر أو خدر، فالمتاجر خالية، أما البط والطيور والفودكا، فقد نسي الناس حتى اسمها!

إذن لم تكن السعادة قسمة بين الناس، فإنها ليست سعادة... والبطة والفودكا أشياء عندما تعرف أن ليس في المدينة سواها، فإنها تفقد لذتها ومعناها...!

لهذا لم تصطبغ الحفلة بالأنس، ولم تسد الداعين والمدعوين روح الطمأنينة التي كانوا ينشدونها. وقد كانوا يستريحون إلى جوردون في أفكاره القاتمة، يعبر عنها بالنذر، وقد كان أقرب الأصدقاء إلى قلب يوري، محبوبا في المدرسة. أما اليوم، فقد غير نهجه في الحياة، فطبع حديثه بطابع الفكاهة، يتفنن في إرسال النوادر والنكات، على أنه كان غبيا في هذا الميدان، فكان يداري هذا العي بأن يردد بعد كل نكتة:

– أليست جوردون إلى الحياة لم تكن بطبيعتها تحمل هذا الطابع... طابع البهجة.

انتظر المدعوون قدوم دودوروف، وروى جوردون ما أحاط بزواجه من شائعات، والتي لم يكن يوري قد سمعها. وأكثر هذه الشائعات طرافة أن دودوروف انفصل عن زوجته بعد عام واحد من الزواج.

ومن أحاديث جوردون عن نفسه: أنه جند خطأ، وأنه كان يغفل تحية الضباط، وأنه ظل شهورا بعد إطلاق سراحه يخال أن كل من حوله ضباط! فيرفع يده بالتحية!

وازداد ذهوله وشرود ذهنه، وكاد يصاب بانهيار عصبي.. ويروي قصة عجيبة مؤداها أنه تقابل مع فتاتين أختين في إحدى المحطات على نهر الفولجا، وأن الفتاتين استقلتا الباخرة التي سيسافر بها. وقد دهمته نوبة شرود، لكثرة ما رأى أمامه من الضباط، علاوة على ما يعانيه من أثر الحرمان في مدة التجنيد، وإذا به فجأة يقع في حب إحدى الفتاتين، فيعرض عليها الزواج!...

ويعقب جوردون على هذه القصة بقوله:

– أليست حكاية مضحكة حقا؟

ولكن الكلام يحتبس في حلقه، حين يلمح بطل القصة الحقيقي يدلف من الباب... حيث يفاجئهم دودوروف بالدخول!

وكان طبع دودوروف قد تبدل، إذ كان هوائيا لا يستقر، فأضحى رزينا منصرفا إلى الدرس بجد ومثابرة.

وعندما فصل دودوروف من المدرسة، في صباه، لاشتراكه في عمل سياسي غير مشروع، ظلت تتلقفه مداس الفنون الواحدة تلو الأخرى، إلى أن انتهى به المطاف إلى كلية الآداب، فنال شهادتها إبان الحرب، بعد أن كان زملاؤه قد سبقوه وتخرجوا، فأسندت إليه الكلية منصب مدرس مادة تاريخ روسيا والتاريخ العام. وهو يؤلف الآن كتابا عن التطور الخطير في الإصلاح الزراعي، وكتابا آخر عن الدين وأحد القديسين وأصبح الآن من كبار المتضلعين في شتى النواحي الثقافية، فكان لا يترك موضوعا دون أن يتناوله بالبحث والشرح والتعليق. وكان له طابع خاص، يتحدث في هدوء، مثبتا عينيه إلى الأمام، كأنه يلقي محاضرة.

وأوشكت الحفلة أن تنتهي بعد أن بلغت ذروتها، واشتد الجدل وعلت الأصوات... وعندئذ فاجأتهم شورا شلزنجر، فأخذت تشاكسهم– على عادتها– فزادت الضجة صخبا، وتضاعف المرح والسرور.

ولم يرفع دودوروف التكليف وهو يتحدث إلى يوري، رغم أنه كان زميل الصبا، فكان يسأله في تأدب عما إذا كان قد قرأ قصيدة "الحرب والسلام" التي كتبها ماياكوفسكي، وعما إذا كان قد قرأ قصيدته الأخرى "عمودي الفقري أنبوب ناي!"

وحالت الضجة دون أن يسمع ما أجاب به يوري، فعاود سؤاله وأضاف وسأله عما إذا كان قد قرأ أيضاً قصيدة "الإنسان!".

فأجاب يوري قائلا:

– لقد أجبتك ولكنه لم تسمع، أنني معجب بماياكوفسكي... فهو بعث أو امتداد لمدرسة ديستويفسكي، بل قل أنه أبرز الشبان الثائرين من تلاميذ ديستويفسكي. خرج إلى الحياة من بين طيات كتاب لينظم الشعر، أن له موهبة فياضة تلتهم الأرواح والأفئدة. كلامه قاطع كالسيف لا نقض فيه ولا ليونة، صريح فيما يقول، وأبرز ما فيه أنه يجسم العظة والعبرة، ويقذفهما في وجه المجتمع، بل أنه يذهب إلى أبعد من ذلك...

وكانت المتعة الملحوظة في الحفلة هي التي قدمها الخال كوليا فقد ظنت تونيا خطأ أنه ليس في المدينة، في حين أنه رجع إليها في اليوم الذي عاد فيه يوري، الذي كان قد لقيه منذ عودته أكثر من مرة، وشبعا من التحدث والضحك.

وكان أول لقاء في ليلة ملبدة، ممطرة، ذهب فيها يوري إلى الفندق ليلقاه، وكانت الفنادق تجنح إلى الحذر في قبول النزلاء، ولكن سمعة نيقولاي الطيبة فتحت له أبوابها على مصاريعها.

وكان الفندق في حالة من الفوضى إلى درجة أن المرضى كانوا يتولون إدارته! يطل الناظر من نافذة الحجرة التي يكسوها الغبار على ميدان يبعث الرهبة!

وكان لقاء عاطفيا بالنسبة ليوري، إذ التقى فيه بمعبود طفولته، ورائد صباه... ولكنه اختلف الآن عن ذي قبل، فقد طغى الشيب على شعره، ورغم ذلك فقد ظل محتفظا بأناقته وحيويته. وليس بعجيب أن يشمله هذا التغير، شأنه شأن الأحداث الجارية التي جرفته في دوامتها.

وأدهش يوري أن يرى الخال كوليا يخوض أحاديث السياسة في ثقة واطمئنان، وهو رابط الجأش. ولم يكن يتوقع ذلك، إذ كان يعتقد أنه لا يوجد أحد يملك زمام نفسه وسط هذه الأعاصير العصيبة.

وتدافعت إليهما في لقائهما الأول أمور أخذتهما بسحرها، لا تمت إلى السياسة بشيء، وطغت على مشاعرهما، فأخذا يضحكان وينشجان في آن واحد، ويتبادلان العناق.

وهب الماضي من جديد يجمع بينهما– بالإضافة إلى صلة القربى– وصحت ذكرياتهما، وأخذ كل منهما يسأل الآخر عما جد في حياته، وكأنهما يتناجيان، فسبحا في عالم لا تحدده ألفة أو قربى، وإنما أصبحت الصلة فيضا روحانيا متبادلا.

ومضى أكثر من عشر سنوات لم يتحدث فيها نيقولاي عن رسالة الأدب بهذا الاسهاب والتعمق كما تحدث إلى يوري. وظل الاثنان وقد لفهما الحديث وهما يذرعان الحجرة أو يقفان. يمس كل منهما نفس الآخر بحديثه وصدق بصيرته وتعمقه.

كان هذا لقاءهما الأول، وما تلا ذلك كان مع الناس، وعندئذ كانت تنزوي شخصية كوليا، لأنه كان يحس أنه ضيف عابر ويتساءل في نفسه:

– ترى أين موطنه؟ بطرسبرج أم غيرها!

ويقف من تساؤله دون جواب حاسم.

وقد طابت نفسه وازداد زهوا لما يلقاه من حسن استقبال وحفاوة باعتباره علما من أعلام السياسة المبرزين في الصالونات.

وكان يعاتب صديقاته، حينما يزورهن، في أسلوب رقيق، لتمسكهن في حياتهن بالرجعية وعدم مسايرة الزمن.

وقيل أنه أنشأ وهو في سويسرا علاقة غرامية، تركها معلقة، لم تبلغ نهاية مداها، كما خلف هناك آمالا كبارا له، وكتابا لم يتم تأليفه... وأنه حضر إلى موسكو، لينضم إلى معترك الحياة فيها، وأنه يزمع الانطلاق- لو أمكنه ذلك- إلى جبال الألب الحبيبة إلى قلبه.

وعرف كوليا بمشايعته للبلاشفة فكان يعتبر اليساريين مشاركين له في آرائه، وهنا يعترض عليه الكسندر الكسندروفيتش بحدة قائلا:

– أنك غير كوليا الذي نعهده، لقد تغيرت بشكل فظيع.. وصدعتنا بسخف ما تتحدث عنه.

فيرد عليه نيقولاي:

– أنك تخطئ فيمن أتحدث عنهم! ففيم الاعتراض؟

ويشتد الجدل تبعا لذلك، فيقول نيقولاي:

– لماذا تجادل؟ الأمر واضح للعيان، لقد رسف الشعب تحت نير الذل قرونا، وجميع النظم السائدة، سواء أكان نظام الرأسمالية أم الإقطاع أم الرق، كلها نظام فاسد وغير عادل أو طبيعي. فأخذ المرجل يغلي لينبثق نورا إلى الشعب، ويصحح الأوضاع كما ينبغي أن تكون.

– الترميم لا يجدي، وإذا أريد الإصلاح فليكن من الأساس، ومعنى ذلك الهدم ثم البناء من جديد.

– هذه ليست هي المشكلة، وليس هذا ما أتحدث عنه.

وهنا غلى مرجل الكسندر الكسندروفيتش، وفقد رباطة جأشه واشتد الجدل عنفا، فصرخ قائلا:

– أن أصدقاءك.. بوتبوري وميروتسكا وغيرهما لا ضمير لهم، أنهم يفعلون غير ما يقولون. أن حديثك هراء، ومنطقك غير طبيعي، لحظة، وسأريك شيئا..

وهنا يبحث عن صحيفة فيها مقال أوله يناقض آخره، وبعد أن يفتح أحد أدراج المكتب، يغلقه بعنف، ليطبع موقفه بطابع البلاغة والفصاحة، وهو إنما يفعل ذلك ليستر تلعثمه.

وكان يوري يزهو ويحس متعة في الاستماع إلى حميه، ويحب لهجته وهو يتحدث.

***

وصلت شورا شلزنجر ليلة المأدبة متأخرة، فقد كانت في اجتماع، وحضرت وهي ترتدي لباس الرجال وقبعتهم، وأخذت تتحدث عند دخولها وهي تصافح الأيدي التي امتدت إليها.

– كيف أنت يا تونيا؟ كيف حالك يا الكسندر؟ أنني ساخطة... موسكو كلها تعلم أنه عاد... ولا يخبرني أحد منكم! الست جديرة باهتمامكم؟... أين هو يوري؟ أريد أن أصل إليه.. كيف حالك يا عزيزي.. كيف حالك يا نيقولاي؟ سأعود إليك بعد لحظة يا عزيزي يوري، لأنني أرغب في التحدث إليك، طبتم مساء يا صغاري... أأنت هنا يا جوشكا... يا بطة!

وهو شخص من أسرة جروميكو، يعجب بكل نجم يتألق في المجتمع، يطلق عليه أصدقاؤه اسم بطة تفكها لبلاهة ضحكاته. ثم تستمر شورا في كلامها:

– طبعا أكلتم وشربتم، هنيئا، وسألحق بكم سريعا، أتدرون ماذا ضاع عليكم أيها الأعزاء... أنكم لا تعلمون ماذا يجرى وماذا يدور. ألا تحضرون اجتماعا للعمال... عمال وجنود.. آدميين.. ليسوا صورا في كتب.. أنهم متحمسون.. آه يا عزيزي يوري! لو كنت حاضرا لأخذتك الدهشة... يا لها من حماسة... يا له من شعور رائع!

وأخذ الحاضرون يقاطعونها، ولكنها لم تأبه بهم، بل شقت طريقها إلى يوري، وضغطت على يده، ووجهها يكاد يلمس وجهه، وقد علا صوتها كالهدير الصاخب:

– تعال معي يا عزيزي يوري، أريد أن ترى الشعب على حقيقته، ينبغي أن ترى ما يدور وأن تحس به... لماذا تنظر إلى هكذا؟! لقد شاب شعري في الجهاد! أنني تلميذة جامعة بستوزيف... دخلت السجن، وحاربت في الشوارع خلف المتاريس... حقا ما أقول! ماذا تظن بي؟ أنك تجهل حقيقة الشعب، ولكنني قادمة لتوي من اجتماع، وقد عقدت العزم على أن أنشئ مكتبة ينتفعون بها!

وكأنما أدارت الخمر رأسها، وكذلك يوري، فقد أصابه دوار، وألفى نفسه يعتلي إحدى الموائد، كأنما يتهيأ على غير وعي منه، لإلقاء خطبة، ولكنه تريث قليلا ريثما يسود الصمت والهدوء.

– سيداتي! سادتي!... أود قبل أن أقول شيئاً... لا تقاطعني يا ميشا.. أصمت يا جوشكا.. ما هذا يا تونيا؟ أنهم لا يصمتون... سيداتي... سادتي.. كلمة واحدة... أننا نجتاز تجربة ليس لنا بها عهد، ولم تخطر على بال أحد، بل يكاد لا يتصورها العقل. وقبل أن يحل المقدور.. أتمنى ألا نفقد أعزاءنا، ولا أرواحنا.. دع الهتاف إلى النهاية يا جوشكا، فأنا لم أفرغ بعد مما أريد أن أقول... أجدر بك أن تستمع أولا... لقد أصبحت عقيدة الشعب تؤمن بأن الفارق بين من هم في جبهة القتال، وبين من تخلفوا سيزول أن عاجلا أو آجلا. فإن الدم سيكون أنهارا تفيض

وتعم الجميع وسيغوص فيها من تخلف. الثورة هي هذا الفيضان أو هي البركان، وحين يحدث ذلك، سيخيل إليكم كما خيل إلينا ونحن في الميدان، أن الحياة قد توقفت وأن كل فرد أصبح معدما. وأن الحياة قتل وموت ولا سواهما، ولو طال بنا الأجل إلى المستقبل الذي يكتب فيه التاريخ أحداث حاضرنا، فإننا سنرى أننا مررونا بتجارب في سنواتنا العشر هذه تفوق ما مر بكافة الشعوب في أكثر من قرن، هل سيهب الشعب من تلقاء نفسه ويزحف كالسيل، أم يتم ذلك على أيدي أناس يفوضهم الشعب؟ وإذا كان الأمر كذلك، فسنضع الثقة فيهم.. أن الأحداث الجسيمة يا أعزائي لا بداية لها، بل نصطدم بها فجأة، فإذا هي تشملنا وكأنها صاعقة هبطت علينا من السماء.. أنني أؤمن بأن الروسيا ستكون أول دولة اشتراكية في العالم، وسيصيبنا الذهول فترة من الزمن قد تطول، وقد لا ندرك بعض ما حدث عندما نثوب لرشدنا، سيمحى من مخيلتنا نصف ذكرياتنا، ولن نجشم أنفسنا مشقة البحث لمعرفة الأسباب، فسيلفنا النظام الجديد ونألفه كما نألف أي شيء، سيزول ما عدا ذلك وينمحي، ولا يبقى له أثر...

وكأنما عاد يوري إلى نفسه بعد ذلك، فتملك زمام نفسه، ولكنه حين جلس اختلط عليه ما يقال، ولكنه أحس أن الجميع غمروه بحبهم، ومع ذلك شعر بانقباض هصر قلبه، فعاد يقول:

– شكرا لكم، شكرا لعواطفكم النبيلة، التي لست أهلا لها، احتفظوا بها ذخرا لمستقبلكم.

وهنا ظنوا أنه يداعبهم فعلا الضحك والتصفيق. ولكنه كان في واد آخر غير ما ظنوه، فقد كان يفكر في نذر الخطر، يشعر بالعجز عن التحكم في المستقبل، وفي قرارة نفسه كان يحن إلى عالم يسوده الصفاء.

وبدأ الضيوف ينصرفون، وعلى وجوههم أمارات التعب والإعياء، من أثر السهر، فكانوا يتثاءبون! وودع أهل الدار ضيوفهم، ثم أخذوا يفتحون النوافذ، فلاح لهم فجر شاحب، وأخذت السماء ترسل دموعها مطرا يتخلل سحبا ملبدة، فعلق أحد الضيوف على ذلك بقوله:

– لم نفطن للزوبعة التي هبت ونحن غارقون في ثرثرتنا!

فقالت شورا:

– غمرني المطر وأنا في طريقي إليكم، وكادت تقتلعني العاصفة!

وكان الظلام لا يزال يخيم، وقطرات المطر تتساقط فيختلط صوتها بزقزقة العصافير وقد بللها المطر، ودوي الرعد، كأنه أفواه مدافع تنطلق في الميدان، وفجأة أعقبه سكون، ثم زمجرة رتيبة أخذت تتكرر وأضاء البرق، فشمل جزءا من الحجرة التي امتلأت بدخان التبغ، ثم بسطت الطبيعة جناحيها، الهواء، والماء، التعطش إلى الجذل...

وازدحم الشارع بالضيوف المنصرفين، وعلت أصواتهم يكملون نقاشهم... وشيئاً فشيئاً.. خفتت الأصوات، وهي تبتعد، حتى تلاشت.

قال يوري يخاطب تونيا:

– لقد طالت بنا السهرة.. هيا بنا إلى الفراش... هل تعلمين يا تونيا أن أحب الناس إلى قلبي في العالم أجمع... أنت ووالدك؟

***

وأقبلت الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر، وأصبح الشتاء قاب قوسين أو أدنى، والناس يعيشون في هلع وفزع، سيدركهم الموت ولا ريب، والشتاء يدعوهم إلى

خزن المؤن. وفجأة، في هذه الأيام انتقل تفكيرهم من الماديات إلى المعنويات، لقد نبذ الناس التفكير في الطعام وتوفير المؤن. وصار من المفروض على السكان– ولا حيلة لهم– أن يواجهوا القدر المجهول، الذي اكتسح ما أمامه، وخلف الدمار... ومن عجب أن يكون هذا المجهول وليد التقدم والمدنية.

وصار الناس يتعثرون بخطى ثقيلة.. إلى مصيرهم، ويخدعون أنفسهم. ولكن يوري أدرك حقيقة الأمر، وأن لا مفر من الهلاك، وأنه قدر له أن يتحطم مع الآخرين. لأن المحن تنتظرهم، بل لعلة الموت نفسه سيتلقفهم، وأن الأيام أضحت معدودة، وأنها تجري كما ينساب الماء في الجدول.

وأراد يوري أن ينسى ذلك الذي حوله، فتشاغل بالحياة الخاصة، بعمله، وزوجته، وابنه، والسعي وراء كسب القوت.

وأدرك أنه قطرة في بحر خضم بالنسبة للمستقبل الغامض. أنه يرنو إلى المستقبل ويخافه في الوقت نفسه، ولذ له أن يجمع بين عاطفتين تناقض كل منهما الأخرى، فأخذ يسرح ببصره– وكأنها نظرة وداع– إلى الناس، والسحب، والطرقات، ومناظر موسكو.. المدينة الروسية الجبارة، وقد نكبتها المحن... وتمنى أن يضحي بنفسه في سبيل صلاح الحال، ولكن ماذا في مقدوره أن يفعل؟!

قبل ذلك، كانت المناظر التي يمر بها تستحوذ على جماع مشاعره، بعكس ما يراها الآن، فشتان بين أيام وأيام، بين حال وحال، بين محن وسلام.

وعندما عاد، استأنف عمله بنفس المستشفى، الذي بقى اسمه كما هو "مستشفى الصليب الإلهي". ووجد أن موظفي المستشفى اعتنق كل منهم مذهبا يخالف الآخر، وكان يمقت فيهم غباءهم، أما هم فينظرون إليه كشخص له خطورته. وفريق آخر لا يثق في إخلاصه لمذهبهم، لذلك لم يرض عنه الجميع.

وتولى أعمال الإحصاء، علاوة على عمله، فكان لا يفرغ من هذا العمل الإضافي الجديد، إذ كان عليه أن يحصي كل دقائق أعمال المستشفى، من وفيات وأمراض، ومرتبات، وعقائد الموظفين وعدم كفاية الوقود والغذاء والأدوية...

وأصبح لزاما على يوري أن يأخذ مجلسه إلى مكتبه، في حجرة الأطباء، وقد تكدست فيها الخرائط والمصورات، جمعها يوري في ركن من أركان الحجرة. وكان يختلس بعض اللحظات، يتفرغ فيها لكتابة مؤلفه "صغار وكبار"، يدون فيه مذكراته الخاصة، بأسلوب يتميز بالأسى والانقباض، عن أحداث الأيام التي يعيشها، وكان يروق له أن يصوغ ذكرياته شعرا إلى جانب النثر. وقد استشعر أن نصف العالم على الأقل أضحى ولا كيان له، وقد أخذته الحيرة نحو الدور الذي يلعبه في الحياة!

وأقبل الخريف، وغمرت شمسه أرجاء حجرة يوري، فضاعفت من بهاء جدرانها البيضاء. وكان عيد العذراء قد انقضى، وأخذت الثلوج تتجمد في شكل طبقة على سطح الأرض وانطلقت الطيور إلى الغابات متنقلة بين الأشجار. وإذا السماء في أوج سمتها، وينبثق ضوء أزرق يشق الهواء. أن كل شيء أضحى ظاهرا للعيان في هذه الأيام، بل أن الأصوات أصبحت واضحة، حتى البعيدة منها. إشراق يأخذ بالألباب. تقبلته النفوس لأنه قصير العمر، وما أقصر أيام الخريف.

لقد كان الضوء الذي غمر الحجرة هو ضوء الشمس عند الغروب، في مقتبل الخريف، التي تبكر في غروبها، أنه ضوء هادئ، ضرجته الحمرة كأنه تفاحة!

وجلس يوري يفكر ثم يكتب، ويكتب ثم يفكر، تداعبه أشباح طيور بظلها وهي تمر أمام النافذة.

وبينما هو جالس إلى مكتبه هكذا، إذ دخل عليه أستاذ الكيمياء، وكان رجلا بدينا فيما مضى، ثم تبدل حاله إلى نحول جعل جلده يتهدل وقال:

– لقد سقطت أوراق الشجر كلها إلا قليلا... أنها لم تحتمل قوة الرياح وقسوة الأمطار!

وتلفت يوري نحو النافذة، وعندئذ أدرك أن ما خالها أشباح طيور تداعبه بظلها، ليست إلا أوراق الشجر المتساقطة تسبح في الهواء لحظة ثم تسقط، كأنها نجوم تهوي فوق العشب.

وعاد الأستاذ يسأله:

– هل أغلقت النوافذ وأحكمتها بالملاط؟

فرد عليه يوري دون أن ينقطع عن الكتابة:

– لم يتم ذلك!

– ألم يحن الوقت لذلك؟

ولم يرد عليه يوري لأنه كان مستغرقا في الكتابة.

فعاد الأستاذ يقول:

– ما أفدح خسارتنا بفقد تارسوك، لم ندرك قيمته إلا بعد أن فقدناه، فقد كان يقضي كل حوائجنا، وعلينا الآن سد النوافذ بأنفسنا.

– ليس لدينا ملاط.

– أليس في مقدورك أن تضع شيئاً منه، سأدلك على الطريقة.

وأخذ يوضح له كيف يضع مسحوق الطباشير والزيت، وأخيراً قال:

– لن أزعجك أكثر من هذا، سأتركك لكي تنصرف إلى عملك.

ويمم شطر النافذة وتفحص نماذجه وقنيناته، ثم عاد يقول:

– لقد حل الظلام، والكتابة تضر النظر، هيا إلى بيوتنا.

– سأنتظر ربع ساعة أخرى.

– هل عرفت أن زوجة تارسوك تشتغل ممرضة هنا؟

– نعم.

– لا يعلم أحد أين هو، أنه ينتقل كالفراشة. حضر مرتين في الخريف ليرى زوجته، ثم ذهب. أنه عضو عامل لإقامة دعائم النظام الجديد. لقد ازدحمت الشوارع والقطارات بالجنود البلاشفة، وتارسوك واحد منهم، يتقن أي عمل يقوم به، وفي الجيش، تعلم القتل فأصبح يجيد الرماية، أن أعصابه من فولاذ مصقول، جيدة التقدير، والتناسق تام بين بصره ويده، لذلك منح وساما، لا للشجاعة أو الذكاء، بل لإصابة الهدف والمرمى! وهو بغريزته وطبيعته يستحوذه كل عمل يتولاه، فيبرز فيه ويتفوق، حتى القتل! والبندقية في ساعده تضفي عليه قوة وسلطانا، وتبرزه على غيره، وهو يحب ذلك ومن يحمل البندقية يختلف عن غيره. فيما مضى ينقلب بعضهم إلى قطاع طرق. ولكن حاول أن تنزع البندقية من تارسوك! فإذا من ينادي:

– أديروا السلاح صوب أسيادكم!

فيطيع تارسوك الأمر. هذه هي الماركسية على حقيقتها.

– هذا أمر عادي من صميم الحياة. أليس كذلك؟

ولكن الأستاذ تركه وعاد إلى تجاربه الكيميائية، وبعد فترة عاد ليقول:

– ماذا فعلت مع خبير المواقد؟

– شكرا إذا أرسلته إلى. أنه رجل فذ، قضى ساعات يحدثني عن هيجل، وكروتشي.

– وهل في ذلك ما يدعو إلى الدهشة! أنه يحمل دكتوراه من جامعة هيدلبرج، هل أعجبك الموقد؟

– إلى حد ما.

– هل ينفث الدخان؟

– بلا انقطاع.

– لعله أخطأ في وضع المدخنة، إذ لابد أن تمر ماسورتها من الداخل إلى الخارج خلال كوة. ألم يفعل ذلك؟

– نعم، ومع ذلك فالدخان لا ينقطع.

– إذن فالخطأ في طريقة خروج الهواء، لو أن تارسوك هنا!

ومع ذلك فسيصلح حال الموقد. أن العالم لم يخلق في يوم واحد، وإصلاح الموقد يحتاج إلى بعض البراعة. هل حصلت على الحطب؟

– ومن أين لي ذلك؟!

– سأعرفك ببواب الكنسية، فهو بارع في الحصول عليه بطرقه الخاصة، يهدم الأسوار ويحولها إلى قطع صغيرة، ولكن لابد من أن تساومه. آه.. تذكرت. هناك امرأة عجوز أفضل منه، تفننت في هذه التجارة، تشتري المبنى من أجل خشبة.

وخرجا بعد أن ارتديا معطفيهما، وكان الظلام حالكا، فنبهه أن يكون حذرا في سيره وقال:

– قبل الآن، كان في مقدوري أن أسير بك وأنا معصوب العينين إلى أي مكان في حينا هذا، لأنني أعرف كل شبر من أرضه، أما وقد بدءوا يهدمون الأسوار، أصبحت لا أكاد أعرف الطريق حتى في وضح النهار... حتى لكأنني في غير موطني. أضف إلى ذلك أن مباني لم تكن ظاهرة للعيان تكشفت للأنظار بعد هدم الأسوار، منازل من العهد القيصري، بقيت بطابعها الخاص، أمام أبوابها مناضد، وفي حدائقها مقاعد رأيت عندما مررت بأحد المنازل عجوزا شمطاء، في يدها عصا تنقب بها، لعلها جاوزت المائة من عمرها، فسألتها:

– هل عن الديدان تبحثين يا جدتي من أجل صيد السمك؟

قلت ذلك على سبيل المزاح ولا شك، ولكنها ظنتني جادا فيما سألت.

فأجابت:

– لا عن الديدان أبحث، بل عن عش الغراب، لقد أصبحت المدينة وكأنها مستنقع تستنشق فيها العطن.

فقال يوري معقبا:

– أنني أعرف المنزل الذي عنه نتحدث، وهو يقع على ناصية شارعي الفضة والصمت. أليس كذلك؟ تطالعني أشياء عجيبة حين أسير هناك. ويشاع أن ذلك المكان غير مأمون، فهو بمسالكه الضيقة المتشابكة ينتهي إلى مأوى قديم للصوص. وقد تجد نفسك وأنت تسير هناك وقد وقعت في قبضتهم دون أن تدري، فيجردونك من الثياب ويتركونك عاريا، ثم يلوذون بالفرار!

– لا تكاد المصابيح تضيء الشارع، حاذر أن تصيب رأسك بطحة لحلوكة الظلام.

***

كثيرا ما صادفت يوري حوادث على ناصية ذلك الشارع.. شارع الفضة، فقبيل معركة شهر أكتوبر، في ليلة باردة حالكة لمح رجلا منطرحا على الرصيف في حالة إغماء، وقد انفرجت ذراعاه وساقاه، ومال برأسه على عمود النور. وحاول يوري أن ينبهه أو يوقظه، فأخذ الرجل يئن ويتألم، وأخذت شفتاه تتمتم بكلمات متقطعة، عن شيء كان في جيبه. وفهم يوري أن اللصوص دهموه وضربوه بعد أن سرقوه، ولكنه تبين أن عظامه لم تصب، فاتصل يوري بالمستشفى تليفونيا من إحدى الصيدليات وطلب عربة الإسعاف، فحضرت على الفور وحملت الرجل إلى المستشفى.

وعرف يوري بعد ذلك أن هذا الرجل من رجال السياسة المبرزين، فعنى به، وباشر علاجه بنفسه، فحفظ له الرجل هذا الجميل، ورده إليه فيما بعد، بعطفه عليه، وإنقاذه من مآزق شديدة عديدة، وما كان أكثرها في تلك الأيام.

***

اكتفت الأسرة بحجرات ثلاث في الطابق الأعلى من المنزل، لتمضية فصل الشتاء. وكان يوما من أيام الآحاد، قارس البرد شديد الريح، وقد تلبدت السماء بالسحب الكثيفة. وهو يوم الراحة عند يوري، لا يذهب فيه إلى المستشفى.

وعند الصباح، أشعل الموقد، فأخذ ينفث الدخان. وعانت نيوشا كثيرا لإيقاد الخشب المبتل. وأخذت تونيا، وهي غير خبيرة بالمواقد، ترشد نيوشا إلى ما يجب أن تفعله بأقوال يناقض بعضها الآخر. فأراد يوري، وهو الخبير في ذلك، أن يوضح

الأمر، ولكن تونيا نظرت إليه، ثم أمسكته في دلال ودفعته خارج الحجرة وهي تقول له:

– ما لك وشئون المطبخ. لا تزج بنفسك فيما ليس من شأنك، ستزيد المشكلة تعقيداً! وستكون كمن يلقي على النار ما يزيد اشتعالها!

– ما هذا الذي تقولين! أين النار التي تتحدثين عنها.

– هل تسخر مني؟ أم تمزح! ليس هذا وقت المزاح يا عزيزي.

وخيب الموقد آمال الجميع، فلم ينجز أحدهم ما كان يريد أن يعمله، وحل الظلام، وتأخر موعد العشاء، ولم تغسل تونيا شعرها.

واشتدت الريح، فدفعت الدخان المتزايد إلى داخل البيت، فأخذ ينعقد في الحجرة في شكل سحابة كثيفة قاتمة.

واضطر يوري أن يدفع تونيا ونيوشا خارج الحجرة، وأخرج كثيرا من الحطب المكدس في الموقد، ثم رتب الباقي في أوضاع متباعدة، تتخللها بعض النشارة والشظايا الصغيرة.

واهتزت الستائر في هذه اللحظة لاندفاع الرياح إلى الحجرة وطارت أطرافها نحو النوافذ، وانتشر الورق الذي كان فوق المكتب، وانصفق الباب في شدة وعنف، وأخذت الرياح تطارد الدخان، كأنها وحش يطارد فريسته! وساعدت الريح على اشتعال الحطب، وأخذت النار ترسل أصواتها وتبرز ألسنتها كأنها جمرة ملتهبة حمراء. ثم ران الهدوء، وشمل الحجرة هواء بارد لطيف، فتكاثف البخار على زجاج النوافذ، التي كان يوري قد أحكم إغلاقها بالملاط، فتصاعدت رائحة دهنية، كما انبعثت من الحطب الذي بجوار الموقد رائحة نفاذة من تأثير قربه من النار، رائحة معطرة.

ودلف نيقولاي نيقولايفيتش مندفعا إلى الحجرة وصاح:

– هل أنتم مستغرقون في النوم؟. القتال عم الشوارع، وطلبة المدرسة الحربية يقاتلون في صف الحكومة المؤقتة ضد الحامية الموالية للبلشفيك، والمناوشات تسري في كل الأرجاء والمراكز التي يتحصن فيها المتمردون مجهولة، وصادفتني أخطار شديدة وأنا في طريقي إليكم، عند شارع ديمترونكا، وعند بوابة نيتسكي، وقد حظر المرور والتجول، وعلى الإنسان أن يقطع طرقا ملتوية طويلة لكي يصل إلى هدفه! هيا يا يوري، ارتد المعطف، وتعالى معي.. لكي ترى ما يجرى. التاريخ يصنع نفسه على مرأى منا، وهذا حدث نادر الحدوث، بل هو لا يحدث إلا مرة في العمر!

ومع ذلك فقد مكث يتحدث في الحجرة ساعتين كاملتين، وتناولوا بعد ذلك العشاء، وحينما حان موعد عودته إلى داره، هم بأن يصحب يوري معه، وإذا بهم يفاجئون بجوردون يدخل مندفعا إلى الحجرة، كما اندفع هو قبل ذلك، يحمل نفس الأنباء التي أتى بها هو.

على أن الحوادث كانت قد تطورت، فأضاف جوردون أن اطلاق الرصاص قد تضاعف، وأن كثيرا من المارة قد قتلوا، وأن حركة المرور قد توقفت تماما، ولكنه استطاع الحضور بمعجزة.

ولم يصدق نيقولاي ما قاله جوردون، فخرج يعدو، على أنه ما لبث أن عاد مسرعا ليقول أن الرصاص ينهال كالمطر وينثر أمامه نتفا من طوب الجدران وطلائها.

في ذلك الأسبوع، أصيب ساشا بنزلة برد حادة فقال يوري معلقا على ذلك ومؤنبا:

– لقد حذرت المرة تلو المرة، بأنه لا ينبغي أن يلعب قريبا من الموقد، ها هي ذي نتيجة ذلك!

وارتفعت حرارة ساشا، وأصيب حلقه بالتهاب، وكان بطبيعته يفزع من المرض. وقد حاول يوري أن يفحص ما به، فزم شفتيه وضغط أسنانه، وأخذ يصرخ ويكاد يختنق، واستعمل يوري معه شتى الطرق، تارة بالتهديد وتارة بالإغراء دون جدوى. على أنه، دون أن يفطن، فتح فمه ليتثاءب، فانتهز يوري هذه الفرصة، ودس ملعقة صغيرة في فمه، وأخذ يضغط على لسانه وبذلك تمكن من فحص حلقه الملتهب، وكان شديد الحمرة، كما رأى اللوزتين المتورمتين، وقد ظهرت عليهما بقع بيضاء، وقد أقلقته رؤية هذه البقع!

وفي مرة أخرى أمكنه أن يأخذ عينة من هذه البقع، وبفحص العينة، عرف أن الطفل ليس مصابا بالدفتريا.

وأسقط في يد يوري، عندما أصيب ساشا بتشنج عصبي في الليلة الثالثة، وقد ارتفعت حرارته إلى درجة مخيفة، وأصبح تنفسه سريعا. فلم يجد حيلة في تخفيف آلام الطفل وقال لتونيا والأسى يهصر قلبه:

– الطفل يحتضر.

وأخذ الاثنان يتناوبان حمله ويسيران به في الحجرة، يذرعانها ذهابا وإيابا، ومن عجب أن هذه الحركة من جانبهما أفادت الفتى، فتحسنت حالته.

ولم يكن في البيت لبن وصودا، وهما الغذاء اللازم للطفل في هذه الحالة، وكان القتال لا يزال مستمرا في الشوارع، وقد بلغ ذروته، ولم تنقطع نيران البنادق والمدافع، وحتى لو تمكن يوري من الخروج وسط هذا الخضم الرهيب، فإنه لن يلتقي بإنسان يجد عنده بغيته، لأن الحركة في المدينة قد توقفت إلا من القتال إلى أن يتقرر مصير المعركة!

وكان هذا المصير متوقعا، فقد تواترت الأنباء أن العمال مسيطرون على الزمام، وأن طلبة المدرسة الحربية لا يزالون يقاتلون، في جماعات متفرقة، وجميعهم منعزلون عن مركز قيادتهم.

احتلت بعض وحدات من الجنود حتى سيفتسيف، وشقت طريقها إلى قلب المدينة، كما استطاع بعض الجنود من جبهة القتال في ألمانيا، يعاونهم شبان من العمال، أن يحفروا خندقا في أحد الشوارع الجانبية، حيث توارو فيه، وما لبثوا أن ألفوا السكان فأخذوا يمازحون من يطل منهم من الأبواب، وبذلك بدأت الحركة تعود رويدا إلى المدينة.

وظل جوردون ونيقولاي نيقولايفيتش أسيرين طيلة ثلاثة أيام في منزل زيفاجو، لا يستطيعان مبارحته، وبعد هذه الأيام الثلاثة، حصلا على حريتهما. وقد سر يوري ببقائهما معه بالمنزل أثناء مرض ساشا، وتغاضت تونيا عما سببه وجودهما من فوضى بالمنزل، بل غفرت لهما ذلك، وقد ظن الاثنان أن خير ما يردان به جميل أصحاب البيت باستضافتهما أن يعملا على تسليتهم بالثرثرة، التي سببت ضيقا وإعياء ليوري، فسره أن يشيعهما إلى الباب!

***

وصل الضيفان إلى منزليهما دون أن يصيبهما سوء، وتلقى يوري رسالة تتضمن ذلك، ولم يكن معنى ذلك أن الأمن قد عاد إلى المدينة.. فإن القتال كان لا يزال دائرا في بعض الأحياء. ولم يتمكن يوري من الذهاب إلى المستشفى، وكان قد استشعر شوقا إلى العمل، وإلى دفتر المشاهدات الطبية، وإلى الكراسة التي يدون فيها مذكراته الخاصة، وكان قد تركها في درج مكتبه بالمستشفى.

وعندما كان الناس يخرجون في الصباح، لقضاء بعض حاجياتهم، وشراء الخبز، كانوا لا يبتعدون كثيرا عن بيوتهم، وإذا رأوا شخصا في يده زجاجة لبن، كانوا يسألونه في دهشة من أين ظفر بها؟!

وتتجاوب أصداء أصوات إطلاق النار في المدينة بين الحين والحين، ثم تسري إشاعات أن هناك مفاوضات. وأن رحى القتال تشتد أو تتوقف تبعا للأنباء وسيرها في طريق الإخفاق أو النجاح.

وأراد يوري أن يزور أحد زملائه، فخرج ذات ليلة من شهر أكتوبر، ولم تكن هذه الزيارة لأمر هام، فوجد الشوارع مقفرة، لا يسير فيها أحد، فأسرع في سيره، وقد أخذ الثلج يتساقط فوقه، وتلفحه الرياح، وأخذ يجتاز مسالك خلفية لا عداد لها، حتى لقد نسى عددها. وبدأ سقوط الثلج يتزايد، واشتدت الرياح فانقلبت إلى عاصفة، وأضحى صوتها كالصفير الحاد، وهي تضطرب يمنة ويسرة، كأنها ضلت طريقها. ومن هنا وهناك تسمع طلقات الرصاص منبعثة من مراكز خفت مقاومتها، ومن فوهات المدافع، ينبعث لهيب محتضر، يرتفع ثم يتبدد. وكان الثلج فوق الأحجار التي تطؤها قدما يوري ينبعث منه بخار كالدخان.

وعلى ناصية شارعين، جرى نحوه صبي، يحمل على ذراعيه بعض صحف خرجت لتوها من المطبعة، والصبي يصيح، دون أن ينقطع عن الصياح:

– آخر الأنباء! آخر الأنباء!

فناوله يوري قطعة من النقود، وتناول الصبي صحيفة دفعها إليه، ثم اختفى وسط العاصفة الثلجية.

وانتحى يوري جانبا تحت المصباح، وأخذ يقرأ العناوين الضخمة في لهفة! وكان الصحيفة التي اشتراها من الصبي، ملحقا صدر في ساعة متأخرة يحمل آخر الأنباء، وأهمها خبر رسمي من بطرسبرج بأنه قد تم تأليف المجلس الأعلى للسوفييت، وأن سلطة السوفييت قد استتبت دعائمها كما توطدت دكتاتورية الطبقة العاملة. ثم أعقب ذلك أول مراسيم الحكومة الجديدة وبضعة أنباء متفرقة.

وتلفح الرياح العاصفة عيني يوري، فتكسو الصحيفة بنتف دقيقة مغبرة، ولم تكن الرياح هي التي حالت دون متابعته القراءة، بل كان ذلك من تأثير الهزة التي افترست روحه، وإحساسه بطغيان تلك الأحداث الجسام على مشاعره، وعلى فؤاده، ودفعته إلى التفكير في عواقبها لقرون عديدة قادمة!

وكان لابد له من متابعة القراءة، فصار يتلفت هنا وهناك، باحثا عن مكان أكثر ضوءا، وأوفر وقاية من المطر. وأدهشه أن يجد نفسه واقفا على ناصية شارعي الفضة والصمت، وأمامه منزل من خمسة طوابق، ذو باب زجاجي بداخله ردهة يغمرها الضوء. فدلف من الباب ووقف تحت مصباح، وعاود قراءة الأنباء. وطرقت سمعه أصوات وقع أقدام من أعلى، ثم رأى شخصا ينزل على مهل، ثم يقف في منتصف الدرج، كأنه يراجع نفسه، ثم فجأة يرتقي الدرج عائدا إلى الطابق الأول. ثم سمع– ولا يدري من أين سمع– صوت باب يفتح، وتلا ذلك صوتان يصيحان، لم يتبين ألفاظهما، ولم يستطع أن يميز هل هو صوت رجل أو امرأة، وأعقب ذلك انصفاق الباب بشدة، وصوت نزول شخص في خطى سريعة!

وكان في نية يوري ألا يرفع بصره، لأنه كان مستغرقا في قراءة الصحيفة، ولكن توقف النازل فجأة عند أول الدرج، جعله يتوقف عن القراءة، وينظر إلى النازل.

ورأى أمامه صبيا لا يتجاوز الثانية عشرة، يرتدي قبعة ورداء من الجلد الوبري، وقد جعل الوبر إلى الخارج شأن أهل سيبيريا، وجهه شديد السمرة وعيناه ضيقتان حادتان، تنمان على أنه من ولاية قرغيز، ويدل مظهره على الارستقراطية، نظرة شاردة، ورقة غير متكلفة تنطق بالزهو، وهي صفات اختص بها ذوو الدماء الموروثة من أجناس مختلفة!

وقد تولت الصبي حيرة، إذ خيل إليه أنه يعرف يوري، ولكنه لم يجسر على مخاطبته، فقرر يوري أن يحسم الأمر، فرشق الفتى بنظرة باردة، فازداد الفتى ارتباكا، ولكنه سار نحو مدخل البيت، ونظر خلفه، ثم خرج بعد أن دفع الباب بشدة.

وتبعه يوري فخرج بعد لحظات، وقد أخذت الأخبار التي قرأها بمجامع فكره، فنسى ما كان من أمر الفتى، بل نسى الزميل الذي كان مزمعا زيارته، وقفل راجعا إلى بيته، وبينما هو في طريقه، تعثرت قدماه بكومة من الخشب، هي بقية حطام منزل، وكان يقوم على حراستها جندي مسلح. وهتف بيوري خاطر، فغافل الجندي، وجذب من الكومة عرقا من الخشب، وساعدته الريح التي أثارت في تلك اللحظة سحابة حجبته، وتسلل بما غنم وهو يتستر بظل الجدران، إلى أن وصل بغنيمته إلى داره.

وبادر يوري لتوه وكسر العرق قطعا صغيرة، وضع منها جزءا في الموقد، ثم أشعله وجلس أمامه. وإذ رأى الكسندر الكسندروفيتش ذلك، دفع بكرسيه إلى جدار الموقد يلتمس التدفئة، وقدم له يوري الصحيفة التي اشتراها وقال:

– أرأيت؟ أخبار هامة، انظر!

وظل يوري في جلسته، يقلب الحطب في الموقد، وأخذ يتكلم كأنما يناجي نفسه:

– يا لها من عملية! بمشرط تستأصل العناصر الخبيثة بسهولة، والظلم وهو وحش جبار عتيد، كانت تنحني له الرءوس تبجيلا... يحكم عليه الآن بالإعدام! أنها شجاعة، بل أنها جرأة اختص بها الدم الروسي، تصورها لك مؤلفات بوشكين، الذي يمضي نحو غايته مندفعا كالسهم... وفي مصنفات تولستوي وقد تجلى إيمانه بالواقع لا بالخيال!

فقاطعه الكسندر الكسندروفيتش وقد ظن أنه يخاطبه:

– سمعتك تذكر اسم بوشكين! دعني أفرغ من القراءة أولا فإني لا أستطيع القراءة والاستماع إلى ما تقول في وقت واحد!

ولكن يوري لم يتنبه إلى ذلك، واستمر في مناجاته:

– أن الدليل قاطع وظاهر للعيان على براعة من تولوا هذه الأمور، إذا طلبت من إنسان مثلا، أن يقيم عالما جديدا، ذا نظم جديدة، فإنه يشترط أن تمنحه مجالا يتحرك فيه ويعمل، ثم يترقب شيخوخة النظم القديمة واحتضارها، وعندئذ يبدأ، شأنه في ذلك شأن المؤرخ الذي يسجل التاريخ في أمانة وإخلاص... أن هذا الجديد، أعجوبة التاريخ، التي تفجرت وسط خضم الحياة، في أية ساعة، ودون تحديدها، فهذه هي العبقرية، والعظمة!

***

وحل الشتاء المألوف، ولم يكن رهيبا كسابقيه، ومع ذلك كان لا يختلف عنهما، أيام قاسية، جوع وبرد، تحطيم الماضي، وتغيير النظم! وقد اختلطت أحداث السنوات الثلاث، فأصبح من العسير تمييزها.

ولم يكن هناك أي تقارب بين العهد الجديد والنظام القديم، لأن الصراع بينهما لم يبلغ أقصى ذروته.

وفي ظل النظام الجديد، صارت تجري الانتخابات، للمشرفين، وأولى الأمر، واختير لكل منصب قوميسير. وهم رجال يرتدون سترات من الجلد سوداوات، أطلق لهم عنان السلطة، ذوو عزائم من حديد. الإرهاب ديدنهم والمسدس سلاحهم، لا ينامون إلا لماما، لا يخطئون البرجوازيين المتوارين، ومتوسطي الحال، فكانوا يعاملونهم في قسوة، وعلى شفاههم ابتسامة الختل والخداع.

هذه كانت حال رجال حكومة النظام الجديد، (يبلشفون) الشركات، والمؤسسات، وقد غير اسم مستشفى الصليب الإلهي، فجعلوه مستشفى الإصلاح، كما بدلوا كثيرا من نظمه ومعالمه، فاضطر كثير من موظفيه إلى ترك العمل أو الاستقالة بسبب انقاص مرتباتهم.

وهجر المستشفى نفر من أطبائه، اكتفاء بالعيادات الخاصة بهم، التي كان يؤمها كثيرون من أهل الطبقة الراقية الموسرين، يجزلون لهم العطاء والمحبة، وقال هؤلاء الأطباء أنهم تركوا المستشفى احتجاجا على ما آل إليه أمره، وأخذوا ينفرون ممن بقي بالمستشفى من الأطباء، وكان يوري أحدهم.

وكان يوري وتونيا يقتلان الوقت بالأحاديث المختلفة، فقال يوري:

– سنأخذ كيسين من البطاطس، من مبنى نقابة الأطباء، وسيكون ذلك يوم الأربعاء، فتذكري ذلك!

– دع ذلك الآن، الوقت متأخر، وأحب أن تستريح، هيا إلى فراشك.

– لقد انتشرت الأمراض، وأرى دلائل الإعياء على صحتك وصحة والدك. أننا لا نعني بأنفسنا، ماذا في مقدوري أن أفعل؟ هل غلبك النعاس يا تونيا؟

– كلا.

– لا يهمني من أمر نفسي شيء... ومع ذلك، إذا أصابني مرض، فعليك أن تحتفظي برباطة جأشك! عديني بذلك يا تونيا، وعندئذ لا تتمسكي ببقائي في الدار، بل اذهبي بي إلى المستشفى.

– يوري... هذا هراء، دعك من ذلك. أني أدعو لك بالصحة والعافية.. أنني واثقة أننا سنجتاز ما يصادفنا من مآزق.

– لا تخدعنك الظواهر يا تونيا... فلم يبق في الدنيا شرفاء أو أصدقاء. لا يعلم أحد حاضره أو مصيره. وإذا ألم بنا أمر، فلا تثقي بأحد سوى بيتشوزكين، إذا كان وقتئذ حيا! لقد غلبك النعاس! يا لهم من زملاء متشدقين، أولئك الذين تركوا المستشفى، حتى أن الواحد منهم لا يصافح أحدنا إذا قابله، اللهم إلا أن كانت إشارة أو إيماءة، وكأنهم يسخرون مني لبقائي، ولكني أفخر بهذا الحرمان.

***

اقتصر طعام الناس على الحبوب المسلوقة، وحساء رءوس السمك، والسمك نفسه، وأحيانا يصنعون من الشعير ثريدا، وقد وطنوا أنفسهم على أن ذلك طعامهم لسنين عديدة.

وتعلمت تونيا عجن الخبز، وكانت ترمي من رواء ذلك، أن تبيع جانبا منه لتشتري بثمنه حطبا للموقد الكبير، إذ كان جهاز الطبخ لا ينقطع عن نفث الدخان.

وأجادت تونيا صنع الخبز، ولكنها لم تلق توفيقا في البيع والشراء، فصرفت النظر عن ذلك، وأضحى الحال إلى الرثاء.

وذات يوم، خرجت تونيا في الصباح، بعد أن ذهب يوري إلى المستشفى، وقد ارتدت معطفها القديم البالي، الذي تفكك قماشه، حتى أصبح لا يدفع عنها قسوة البرد. خرجت لتنقب عن حطب، فقد أوشك ما بالدار منه أن ينفد. وسارت على غير هدى تجوب المسالك، علها تعثر على فلاح جاء ليبيع خضروات أو بقولا، وهو في هذه الآونة عرضة للقبض عليه. وسرعان ما عثرت على بغيتها، إذ صادفت شابا معه خطب في زحافة، ما لبث أن تبعها بحذر إلى دارها. وأعطاها جزءا من الحطب، أخذ بدله صوانا صغيرا، ليقدمه لزوجته، وقال لها وهو يهم بالخروج:

– لدي كمية من البطاطس! ترى كم ثمن هذا البيانو الذي أراه؟

ولكنها لم تجبه كأنها لم تسمع ما يقول.

وعاد يوري، ورأى الصفقة التي حصلت عليها تونيا، ولكنه لم ينبس بكلمة. لقد كان في الإمكان أن يحول الصوان إلى حطب، ولكن من العسير أن يفعل ذلك بنفسه. وعند عودته قالت له تونيا:

– هل رأيت الرسالة التي على المنضدة؟ لقد وصلت منذ قليل.

– أنها من المستشفى، وقد بلغني أمرها، أنهم يطلبونني لعيادة مريض، سأذهب، ولكن بعد فترة كي أستريح. خاصة وأن المريض يسكن بعيدا، بالقرب من قوس النصر.

– أقرأها لتعرف الأجر الذي يعرضونه، زجاجة من الكونياك أزوجا من الجوارب! أي صنف من الناس هؤلاء، أنهم لا يدركون حياتنا، ويظنوننا أغنياء!

– لا ريب أنها من أحد الموردين.

والموردون والكلاء!... مصطلحات أصبحت تطلق على بعض المؤسسات بعد أن ألغت الدولة نظام التجارة الفردية.

احتسى يوري كوبا من الماء المغلي الممزوج بالسكر الصناعي، عليه قليل من اللبن، وخرج ليعود المريض.

وكونت الثلوج طبقة كثيفة فوق الشوارع، ترتفع أحيانا إلى مستوى النوافذ، وهنا وهناك كانت تلوح أشباح باهتة، وبين الحياة والموت، تحمل نزرا من طعام.

واحتفظ بعض المحلات التجارية بلا فتاته القديمة، وأن انقطعت الصلة بين ما تعلن عنه هذه اللافتات، وبين ما تبيعه الجمعيات التعاونية التي حلت محل هذه

المتاجر، فكانت الحوانيت جميعها خاوية، بل مغلقة، ونوافذها موصدة، وأبوابها مقفلة بالعوارض الحديدية!

ولم يكن سبب ذلك عدم وجود البضائع أو توفيرها، ولكن السبب الحقيقي، أن تنظيم نواحي الحياة، بما فيها أعمال التجارة، بقي حبرا على ورق، ولم يخرج إلى حيز التنفيذ، ولم يتناول كيفية تموين تلك الحوانيت المغلقة.

***

يقع بيت المريض في شارع برست، عند نهايته، بالقرب من بوابة تغير، وهو بيت مبني من الحجر، يتوسطه فناء كبير، وبذلك يشبه إلى حد ما ثكنات الجنود، له سلم خشبي دائري.

وعقد نزلاء البيت اجتماعا فيه، كانوا قد حددوا موعده من قبل. وحضرت الاجتماع امرأة مندوبة من مجلس السوفييت بالمدينة.

وأثناء الاجتماع، جاءت لجنة عسكرية للتفتيش عن السلاح غير المرخص به، وطلبت إلى المجتمعين أن يعودوا إلى مساكنهم، انتظارا لدورهم، على أن رئيس اللجنة قال أن التفتيش لن يطول، وأن في مقدورهم بعد ذلك استئناف اجتماعهم.

وفي الوقت الذي وصل فيه يوري، كانت اللجنة على وشك الانتهاء من عملها، ولكنها لم تكن قد فتشت الطابق الذي به المريض. واعترض يوري جندي يحمل السلاح ويرابط عند مدخل الطابق، وبلغ صوت جدالهما مسامع رئيس اللجنة، فأصدر الأمر بتأجيل التفتيش إلى أن ينتهي الطبيب من مهمته.

وطالع يوري عندما فتح الباب، شاب تنم نظرته على أدب جم، ذو وجه شاحب وعينين خيم عليهما الحزن. ولكنه ثائر الأعصاب بسبب ما يدور حوله، من

مرض زوجته، وهذا التفتيش وهو المقصود به، ومجيء الطبيب، وكان لزاما عليه أن يستقبله في حفاوة، لأنه يكن تقديرا عميقا للطب والأطباء.

وارتبك وهو يحاول أن يصور للطبيب حالة المريض في سرعة، فلم يفهم الطبيب من كلامه شيئا.

وبنظرة شاملة، تبين يوري أن المسكن يجمع بين نقيضين: سمة البيوت الفخمة، وبساطة البيوت العادية. وأن أثاثه مكون من أجزاء متفرقة وأنواع مختلفة.

ويعتقد الشاب أن صدمة عصبية أصابت زوجته فسببت مرضها، ويرجع ذلك إلى حكاية غريبة مؤداها أنه اشترى ساعة أثرية، وكأنها لحن موسيقى راقص، اشتراها بثمن بخس لأنها تالفة– وذهب به إلى حجرة مجاورة ليريه الساعة– وأنه ذات يوم، فجأة، إذا بالساعة تعزف لحنها، ثم تسكت، فاستولى الفزع على زوجته، وأخذ منها الرعب، فدار في خلدها أن هذا الحدث نذير بدنو أجلها، فأخذت تهذي، لا تأكل ولا تشرب، ولا تعرف أحدا، حتى زوجها!

ولم يكن يوري قد رأى الزوجة حتى تلك اللحظة، فسأل الشاب كمن يشك فيما حدثه به:

– أتعتقد أنها صدمة عصبية؟ دعني أرها!

وقادة الشاب إلى حجرة، يضيئها مصباح مدلى من السقف، بها فراش عريض، بجانبه منضدة من الخشب. وعلى حافة الفراش، رقدت امرأة ضئيلة الجسم، ذات عينين سوداوين واسعتين، وقد احتواها لحاف، وما أن رأتهما، حتى أشارت لهما بذراعها أن يتركا الحجرة ويغربا عن وجهها. وانحسر قميصها عن إبطها عندما لوحت لهما بذراعها، ثم راحت– كأنها وليس معها في الحجرة أحد– تنشد بصوت لا يكاد يسمع أغنية حزينة، وكأنما أثارت الأغنية أشجانها، فانخرطت في

بكاء كطفل صغير، تتضرع أن يعيدوها إلى البيت!... وتقدم يوري نحوها خطوتين، فما كان منها إلا أن أدارت له ظهرها، ورفضت أن يمسها، وعندئذ قال يوري:

– لابد لي من أن أفحصها. أنها مصابة بالتيفوس، وقد اشتدت بها العلة، مسكينة هي! أنها تعاني وطأة المرض، يجدر بك أن تذهب بها إلى مستشفى. أنني على يقين أنك معني بها كل العناية، ولكنها– معذرة– تحتاج إلى رعاية طبية متواصلة في الأسابيع الأولى. هل يمكنك تدبير إحدى وسائل النقل، عربة مثلا، وينبغي على كل حال أن يلف جسدها بدثار، وسأناولك تصريحا بدخول المستشفى.

– سيدي، سأجتهد، ولكن هل تعتقد أن هذا هو مرضها حقا؟ إن كان الأمر كذلك، فهي مصيبة ولا شك!

– ثق يا عزيزي أنني أجابهك بالحقيقة... مع الأسف.

– سأفقدها إذا ذهبت، أضرع إليك أن تتولى علاجها هنا، وأنا على استعداد أن أجزل لك العطاء.

– ليس هذا بيت القصيدة، المهم أنها في حاجة إلى ملاحظة طبية دائمة، استمع إلى نصيحتي، فهي في مصلحتك ومصلحتها هيا أبحث عن عربة، وسأحرر التصريح، سأكتبه في حجرة الاجتماع، فلابد من ختمه بخاتم إدارة المنزل، كما أن هناك إجراءات أخرى لابد منها.

***

أخذ السكان، وهم يتدثرون بالشيلان والمعاطف السميكة، يعودون فرادى إلى القبو البارد، الذي كان فيما مضى مخزنا للبيض، واتخذته لجنة المنزل مكانا لانعقاد مجلس الإدارة، يتوسطه مكتب حوله بضعة كراسي لا تتسع للمجتمعين،

فاستعانوا ببعض الأقفاص. وفي ركن آخر من المكان تكومت أكوام من نشارة الخشب اختلط بها صفار البيض المكسور، فجذبت إليها الفئران التي راحت تجري هنا وهناك، حتى أفزعت إحدى الموجودات، فأخذت تولول في ارتياع، وكان لصراخها بدورها رد فعل لدى الفئران، إذ أزعجتها فبرزت أسنانها كأنها تهم بالنهش، وخيل للمرأة أن الفئران ستهاجمها وتندس في ثيابها، فراحت ترفع ثيابها وهي تصرخ!

– أنني مرتاعة... غضوا النظر إليها السادة. معذرة... لقد نسيت أننا رفقاء... لا سيد ولا مسود!

وراحت المرأة– على بدانتها– ترتعش، وقد تهدلت ذقنها، وانحسر المعطف عن ثدي ممتلئ وبطن ضخم، وكانت قبل ذلك ملكة جمال لدى جماعة من التجار والكتبة، وذهب عنها اللقب، بعينيها الضيقتين وأجفانها المتورمة، لأن منافسة لها قذفتها بماء النار، وأصابها منه رذاذ ترك آثارا طفيفة على وجهها.

وانتخبت مندوبة مجلس المدينة رئيسة لمجلس الإدارة، فاتخذت مجلسها أمام المكتب، ثم وجهت الكلام إلى المرأة التي تولول:

– كفى صياحا يا كرايوجينا!

ولم يكن المنزل غريبا على المندوبة، فقد كانت تعرف الكثيرين من سكانه، ومن بينهم العمة فاتيما... خادمة المنزل من عهد بعيد، وكانت تعيش في ركن منه مع زوجها وأولادها، وتعيش الآن مع إحدى بناتها، في مسكن في الطابق الأول.

وسألتها المندوبة:

– كيف حالك؟

فأجابتها فاتيما شاكية:

– أكاد لا أستطيع أن انهض بعبء المنزل– وهو كبير كما ترين– بمفردي، وسكانه العديدون لا يعاونونني، ولو بتنظيف درجات السلم!

– مهلا يا فاتيما! سنعرفهم واجبهم! لماذا إذن هذه اللجنة؟! أنهم أناس لا خير فيهم. أنهم خليط من المجرمين ومن المشكوك في أخلاقهم، سنتخلص منهم جميعا، ونقضي عليهم، وسننتخب لجنة جديدة، وسأعينك مديرة للمنزل... على شريطة أن تكتمي السر!

فتوسلت فاتيما أن تعفيها من ذلك، ولكن المندوبة أبت أن تصغي إليها. وأجالت نظرها في الحجرة، ثم قررت أن عدد الحاضرين يكفي لعقد الاجتماع، وأشارت إليهم بالصمت، ثم افتتحت الجلسة بخطبة قصيرة، ثم أنحت باللائمة على لجنة المنزل لإهمالها وتقاعسها، وصرحت بأنه ستنتخب لجنة جديدة، وأن على من يرغب أن يرشح نفسه أن يتقدم، ثم انتقل بها الحديث إلى مواضيع أخرى، وأخيرا قالت:

– أن هذا المنزل كبير أيها الرفاق، أنه يصلح فندقا، أننا لا ندري كيف نؤوي هذا العدد الضخم من المندوبين الذين يفدون إلى المدينة لحضور المؤتمرات. ولهذا تقرر الاستيلاء على هذا المنزل، ليكون مأوى لأعضاء مجالس الضواحي والزوار والوافدين من الأقاليم، وتقرر أيضا أن يطلق عليه اسم "فندق تيفرزين" تمجيدا لذكرى الرفيق تيفرزين، الذي كان يتخذ هذا المنزل سكنا له قبل أن ينفى... كما تعلمون! هل يعترض أحد على ذلك؟ والآن فلننتقل إلى بحث موعد الاستيلاء، ولا داعي للعجلة... وأمامكم عام بأكمله. سنتولى توفير مساكن للعمال، أما الآخرون فعليهم أن يبحثوا بأنفسهم عن الأمكنة التي تؤويهم، ومهلة عام تكفي ولا شك!

وهنا تعالى الصياح من أرجاء الحجرة.

– كلنا عمال... كلنا عمال...

وامتزج هذا الصراخ بصوت باك يقول:

– هذا تفريق بين قوم وقوم!

وتعالت أصوات أخرى تقول:

– هذه طبيعتنا من زمن: الدس والوقيعة! كل الأقوام متساوون، أننا نعلم من تقصدين!

ولكنها أجابتهم بحزم:

– أرجوكم... لا تتكلموا جميعا في آن واحد... أجيب على من أولا؟ أيها الرفيق فالدركين: ما شأن القوميات هنا؟ نظرة إلى كرايوجينا! هل تزعم أنه كان للقومية دخل في تقرير وضعها؟ سنخرجها ولا شك من المنزل.

فصاحت كرايوجينا:

– هل ستفعلين ذلك حقا؟ أريني ما في مقدورك! أيتها العجوز الشمطاء!!

واتبعت ذلك بسيل من الشتائم، ثم حولت نظرها إلى المجتمعين تستجدي عطفهم، وتناديهم بأسماء مختلفة على سبيل التدليل.

فقاطعتها العمة فاتيما قائلة:

– ألا تخجلين أيتها الشيطانة!

وهنا قالت المندوبة:

– ليس لك شأن بهذا يا فاتيما... أنني أعرف كيف أتدبر الأمر، الصمت ياكرايوجينا، أنني أعرف ماضيك، صوني لسانك وإلا أحلتك إلى السلطات توا، قبل أن يقبضوا عليك بتهمة صنع الفودكا سرا، وجعل مسكنك مأوى للصوص!

وبلغت الفوضى والضجة ذروتيهما، وفي هذه اللحظة، دخل يوري الحجرة وسأل أول من صادفه وقبل أن ينصت إليه، أن يرشده عن أحد أعضاء لجنة المنزل، فإذا بالرجل ينادي بصوت عال:

– جاليولينا... تعالي هنا!

ورأى يوري، لدهشته، امرأة نحيفة، تقوس ظهرها قليلا، هي العمة فاتيما– لأن الاسم الذي نادى به الرجل اسم تدليل للنساء– فقال يوري لنفسه، حين رأى المرأة المتغضنة الوجه:

– هذه ليست جاليولينا... بل أم جاليولين.

ثم قال لها:

– توجد حالة تيفوس في هذا المنزل– وذكر اسم المريضة– ولابد من إجراءات لمنع انتشار الوباء، ثم يتحتم نقل المريضة إلى المستشفى، وسأحرر تصريحا بذلك، تختمه لجنة المنزل بخاتمها، أين يمكن أن افعل ذلك؟

وظنت قاتيما أنه يقصد: كيف تنتقل المريضة إلى المستشفى، فقالت:

– قريبا ستصل عربة من مجلس المدينة إلى الرفيقة ديمينا، رئيسة الاجتماع، وهي طيبة القلب سأنقل إليها الخبر، وأنا واثقة أنها ستسمح بالعربة للمريضة، لا تقلق أيها الطبيب المواطن... اطمئن سوف تنقل المريضة إلى المستشفى ولا شك.

– هذا جميل، ورائع، إنما قصدت أن أعرف أين يمكنني أن أحرر الترخيص؟ وما دام لديكم عربة فهذا توفيق كبير.. ألست والدة الملازم جاليولين؟ لقد كنا معا في كتيبة واحدة في ميدان القتال.

فأخذتها الدهشة، وشحب وجهها، وحملقت فيه، ثم أمسكت يده وقالت:

– تعالى معي... أريد أن أتحدث إليك في الفناء!

وخرجا من الباب، فبادرته بقولها:

– لا ترفع صوتك، وإلا فإن الهلاك مصيري! لقد أساء ابني اختيار طريق حياته، يا له من غبي! لقد كان من زمرة العمال، وهؤلاء هم من تحسنت حالهم الآن... أليس ذلك ظاهرا للعيان؟ ربما كان رأيك غير ما أرى، ولكنه مخطئ على كل حال، سامحه الله. لقد قتل أبوه حينما كان جنديا وكانت ميتته شنيعة.

وتهدج صوتها، وسكتت كي تهدأ، ثم عادت تقول:

– أنني أعرفك، وسآتي لك بالعربة، حضر ابني في أجازة قصيرة، وعلمت منه أنك تعرف لارا، أنني أذكر هذه الفتاة الطيبة، فقد كانت تتردد علينا، ولكني لا أعلم من أمرها الآن شيئا، وعلى كل حال أعلم أن الأسر الكريمة تعطف على بعضها. ولكن ابني إنسان شاذ، يخطئ دائما، هيا بنا لنرى أمر العربة، وأنا على ثقة أن الرفيقة ديمينا لن تمانع... أتعرف من هي؟ أنها أولجا، كانت تحترف الخياطة فيما مضى، وكانت أم لارا عميلة عندها، وهي من سكان هذا المنزل... هيا بنا.

***

أسدل الليل أستاره، وبدأ الظلام يغشى الكون، ويلفه، وتقدمت ديمينا الجمع الذي سار خلفها، وفي يدها مصباح صغير يبعث ضوءا ضئيلا، كان يربك الجمع

ولا يهديهم، وقد انفضوا من المنزل، الذي عرف الكثيرون من سكانه لارا، وقيل أن زوجها باشا انتيبوف نشأ فيه.

وقال ديمينا ليوري في لهجة الممازحة، كمن تظهر له فضلها بضوء المصباح الذي تحمله:

– هل يمكنك أيها الرفيق الطبيب أن تسير في هذا الظلام؟! إليك المصباح لو أردت، أنني أحمل أجمل الذكريات لهذه الفتاة... لارا، فقد كنت أشتغل في مشغل تفصيل الملابس الذي كانت تملكه أسرتها. وقد رأيتها أخيرا، حين قطعت رحلتها وتخلفت في موسكو، ونصحتها بأن تبقى معي ونعيش معا، ووعدتها بأن أجد لها عملا. ولكنها ركبت رأسها، ولم تقبل... شأنها في كل تصرفاتها، فقد تزوجت باشا بعقلها لا بقلبها! ومنذ ذلك الحين وهي تتعثر في الحياة.

– وما رأيك فيها؟

– يا لهم من دهماء! كم نبهتهم ألا يقذفوا الماء على الأرض، تمهلوا في السير فإنها زلقة. تسألني رأيي! ماذا تقصد؟ هل في إمكاني أن أبديه الآن؟ آه! هنا مسكني، لقد أخفيت عنها أمرا هو أن أخاها أعدم رميا بالرصاص، أما أمها، وقد كنت صبية عندها في المشغل، فإنني أكن لها الإعزاز، وها هي ذي قد وصلت، والآن وادعا... فإنني سأدخل.

وبذلك افترقا، وقد تراقص ضوء مصباحها فكشف عن جدران المنزل القذرة وسلالمه المعتمة. فاضطر يوري إلى السير في الظلام، إلى يمينه شارع وإلى يساره آخر، تسكوهما الثلوج حتى لكأنهما دربان في غابة.

وصل يوري إلى منزله، فوجده دافئا يعمه الضوء، وسألته تونيا بلفهة:

– لماذا تأخرت هكذا؟ أريد أن أحدثك بأمر حدث.

وقبل أن يجد الفرصة للتكلم، استطردت تقول:

– كسر الوالد المنبه، وقد تألم لذلك، لأنه دليلنا الوحيد لمعرفة الوقت، بعد أن تلفت جميع ساعاتنا، وقد أخذ يعالج إصلاحه دون جدوى، وطلب الساعاتي أجرا باهظا لإصلاحه، أقة من الخبز، وهو ما ليس في مقدورنا... وفجأة، دون سابق إنذار، طرق آذاننا رنين جرس المنبه، وعاد إلى دقاته المتتابعة!

فلم يتمالك يوري نفسه من الضحك، وعلق على ذلك قائلا:

– تماما كما دقت ساعة المريضة!

وروى لتونيا خرافة دقات ساعة المريضة!

***

انقضى على ذلك زمن طويل، مرض بعده يوري بالتيفوس، وكانت الأسرة قد بلغت أقصى طاقتها من الفاقة، فعز الطعام، وانشب الجوع أنيابه، وخطرت ليوري فكرة، لماذا لا يذهب إلى الرجل الذي صادفه مرة، وأنقذه من الموت، حين دهمه اللصوص؟! ونفذ الفكرة فورا، وقد قدم له الرجل أقصى ما يستطيع من العون، وحالت الحرب الأهلية، وكان قد استعر أوراها، دون تقديم المعونة بعد ذلك، لاضطرار الرجل إلى مغادرة موسكو، علاوة على أنه كان يعتقد أن الحرمان الذي عم الشعب أمر لا مفر منه.

واضطر يوري إلى اللجوء إلى الشاب المورد، زوج المريضة التي كان قد عادها، ولكنه لم يجد الشاب، لأنه كان قد اختفى، فلم يعرف أحد من أمره شيئا، حتى زوجته!... ثم قصد جاليولينا، فلم يجدها هي الأخرى، بل طالعته وجوه جديدة في المنزل، حتى ديمينا، علم أنها رحلت إلى ميدان القتال.

ووصله إخطار– ذات يوم– بأنه قد جعل له حمل من الحطب، يمكنه الحصول عليه بالثمن الذي حددته الحكومة، يتسلمه من محطة فندافا، فهرول إلى داره، وعينه تكاد تلتهم سائق عربة النقل التي تحمل ذلك الكنز الثمين! وتراءى له أن الشوارع قد تبدلت، كما أخذ يترنح وكأن قدميه لا تقويان على حمله! فأخذ يحدث نفسه!

– أنها هي بعينها! لا ريب أنني ساصاب بالتيفوس!

ثم سقط على الأرض، فحمله السائق وأرقده فوق الحطب.

ولفته دوامة من الهذيان مدى أسبوعين... ورأى في أحلامه، أن تونيا تضع على مكتبه شارعين: شارع حديقة العربات عن يساره، وشارع حديقة النصر عن يمينه، وهما الشارعان اللذان قد مر بينهما عند عودته من عيادة المريضة، وأنها– أي تونيا– أضاءت مصباح المكتب، فعم الشارعين ضوء أصفر دافئ، وأنه استطاع عندئذ أن يكتب...

كتب ما كان يريد أن يكتبه من وقت بعيد، وحالت دونه حوائل، وأتيح له ذلك الآن، فأقبل على الكتابة بحماس... على أن فتى أخذ يقاطعه، فتى تتوسط وجهه عينان ضيقتان كعيون أهل قرغيز، يرتدي معطفا من الجلد، وبره إلى الخارج، شأن سكان الاورال.

ودخل في روعه أن الفتى رسول الموت، أو أنه الموت قد تجسم في صورة فتى، ولكن كيف يكون ذلك وهو الآن ينظم قصيدة! هل في الموت نفع؟ أو منه يستمد الإنسان عونا؟

وكانت قصيدته عن الفترة بين الدفن والبعث، وعنوانها المعترك، كم أحب أن يصور في قصيدته الأرض الداكنة الهوجاء، وهي تهاجم رمز الحب الذي لا ينفى،

وتقذفه بالحصى، بينما تعلو الأمواج، ثم تهجم على الشاطئ ويردد ذهنه شطرين من القصيدة:

ما أسعدنا أن نكون جوارا

وأن يحين أوان اليقظة

... وتمثل على القرب منه، جهنم، والضلال، والانحلال، والموت... كما تمثل على القرب منه في نفس الوقت، الربيع، ومريم المجدلية، والحياة... وأنه قد حان وقت اليقظة حقا، وقت النهوض، والبعث!

***

وأخذت صحته تتحسن... وقد كان كالطفل مستسلما لا يذكر من أمره شيئا، ولا يميز بين أمر وآخر، بل لا يثيره شيء.

واقتصرت تونيا في تغذيته على الخبز الأبيض والثريد والشاي، والسكر، ثم سمحت له بالقهوة، وكان قد غاب عن ذهنه أن هذه الأصناف منعدمة، فأخذ يحتسيها ويتذوقها كمن يقرأ قصة خرافية، على أنه شيئا فشيئا بدأ يفكر، فسأل تونيا:

– من أين لنا كل هذا؟

– جاء بها جرابنا.

– ومن جرابنا هذا؟

– جرابنا زيفاجو!

– تقولين جرابنا زيفاجو؟

– نعم... أخوك يوفجراف، وقد جاء من أومسك. أخوك غير الشقيق، وقد داوم على زيارتنا يوميا طيلة مرضك.

– هل يرتدي معطفا من الجلد؟

– هو بعينه، إذن لقد رأيته، مع أنك كنت في غيبوبة! وقد قال فيما قال: أنه صادفك على السلم في أحد البيوت ذات مرة، وأنه عرفك، وود أن يحدثك، ولكن تملكه منك خوف شديد! أنه معجب بك ويقرأ كل ما تكتبه! لقد غمرنا بأفضاله: من أرز وسكر، وفواكه مجففة. أنه فتى مدهش، تحوطه هالة من الغموض، واعتقد أنه على صلة بالسلطات. وقد أشار علينا أن نرحل عن هذه المدينة الكبيرة لبضع سنوات، نعود فيها إلى الأرض، وجال بخاطري أن نذهب إلى كروجر. وعندما استوضحته رأيه في ذلك حبذ الفكرة حيث يتيسر لنا هناك أن نزرع الخضر ونعيش بدلا من أن نستسلم هنا للموت.

ورحل يوري زيفاجو وأسرته، في شهر ابريل من ذلك العام إلى ضيعته القديمة في فاريكينو، بالقرب من يوريانتين، في الأورال.

الفصل السابع

رحلة

أقبلت الأيام الدافئة، في نهاية شهر مارس، حتى ليخال المرء فيها أن قد حل الربيع، ثم تخيب ظنهم موجة برد شديد، تعقب الدفء. وأخذ آل زيفاجو يتأهبون للرحيل، في تكتم، لذا كانوا يذيعون بين الناس أنهم إنما ينظفون المنزل استقبالا لعيد الفصح.

واعترض يوري على الرحيل، وهو يعلم أن اعتراضه لن يجدي، وسنحت له فرصة أبدى فيها رأيه صراحة لتونيا وأبيها، فسألهما:

– ألست على صواب؟ هل تصممان على السفر؟

وأجابته تونيا:

– أنك تقول أنه يجدر بنا أن ندبر أمورنا، فترة طويلة من الزمن، إلى أن تستقر الأمور فيما يتعلق بملكية الأرض، ونستطيع الحصول على مساحة من الأرض، نزرعها. ولكن كيف نقضي الفترة حتى يتم لنا ذلك؟ هذه مسألة جوهرية، وحيوية، لم تتناولها في حديثك!

ورضخ يوري لرأيهما قائلا:

– حسنا!... ولكن ما يقلقني أننا سنذهب إلى المجهول، نتخبط كما يتخبط الأعمى. لقد ماتت أمي وكذلك جدتي، وإذا كان جدي على قيد الحياة، فهو معتقل ولا شك. وهؤلاء هم الثلاثة الذين تربطني بهم الروابط في فاريكينو! ألا تعلمان أن جدي، قبيل نهاية الحرب، تصرف ببيع المصانع والغابات، فانتقلت ملكيتها إلى

شخص آخر، ولذلك لا ندري الآن لمن الضيعة... ومن المسئول عنها؟ ومن الذي يقوم على إدارتها؟ وهل تعمل المصانع؟ وهل العمل سائر في قطع الأخشاب؟ وبعبارة أدق نريد أن نعرف من هو صاحب السلطان في ذلك المكان، إن قدر لنا أن نعيش فيه! ومن يدري إذا كان المدير العجوز، ميكوليتسين– الذي تضعان فيه ثقتكما– لا يزال يقيم في ذلك المكان؟ بل من يدري إن كان لا يزال حيا! ماذا تعرفان حقا عن ذلك الرجل؟! لن استرسل في سرد العراقيل والمتاعب، مادام هذا قراركما، وقد قبلته، ولا داعي للإبطاء، ولنتدبر أمر السفر، في هذه الأيام.

وقصد يوري محطة ياروسلافسكي، ليستعلم، فرأى حشدا لا يحده البصر من المسافرين، يسيرون هنا وهناك، من بينهم من ارتدى معاطف الجيش الرمادية، كانوا يسعلون ويبصقون، ويتمرغون على الأرض، وقد علت أصواتهم، كأنه لا يوجد في المحطة سواهم.

ومعظم هؤلاء كانوا من مرضى التيفوس، الذين أخرجتهم المستشفيات منها لازدحامها، فور زوال الخطر عنهم. وكثيرا ما لجأ يوري إلى ذلك عندما كان يزاول عمله كطبيب، ولكنه لم يكن يتصور أن تصل الحالة إلى هذا الحد الرهيب.

وحينما سأل أحد الحمالين عما جاء من أجله، أجابه الحمال:

– يتحتم عليك الحصول على تصريح يمنحك الأسبقية على سواك، وعليك أن تحضر يوميا لتسأل عما إذا كان ثمة قطار، لأن القطارات نادرة المجيء... وأنت وحظك!

وحرك الحمال أصابعه في حركة ذات مغزى، ثم استطرد يقول:

– لا تنس أنه لابد من بعض الدقيق... فالعجلات لا تسير بغير زيت، وأخال أن ذلك لا يخفى على فطنتك.

ثم استطرد يقول في لهجة أشد في التعبير عن مغزاها:

– هل يمكن الحياة بغير قليل من الفودكا!؟

***

دعي الكسندر الكسندروفيتش، أكثر من مرة، ليكون مستشارا للمجلس الاقتصادي الأعلى، كما دعي يوري لمعالجة عضو من أعضاء الحكومة، أصيب بمرض خطر، وأصابا من ذلك عملة تعتبر في ذلك الحين ممتازة: أذون صرف على أحد متاجر السلع التي أنشئت حديثا، يقع بالقرب من دير القديس سيمون، ولكي يصل الطبيب والعالم إلى المتجر، كانا يضطران إلى اختراق ساحة الدير، وساحة التكنة التي يقع المتجر في أحد مخازنها، ثم يجتازان بابا حجريا منخفضا إلى قبو تحت مستوى الأرض، وأخيرا يصل بهما المدخل المنحدر إلى منضدة، يقف إليها عامل، يتولى عملية البيع، فيسلم السلع في هدوء، وكلما نفدت بعض السلع، أتى بغيرها من الداخل.

ولم يجدا زحاما بالمتجر، فحصلا على بغيتهما دون عناء، بمجرد أن قدما أذون الصرف، وطلب إليهما تقديم الأكياس، وكانت أكياس وسائد، ملئت بالمؤن المختلفة، من دقيق، ومكرونة، وسكر، وحبوب، ودهن، وصابون، وثقاب، ولفافات من الورق بها جبن.

وأخذتهما الدهشة لكرم العامل، فأسرعا يضعان الأكياس داخل بعضها، ليجعلا منها كيسين فقط، يحمل كل منهما واحدا، ثم غادرا القبو والفرحة تملأ جوانحهما، لا لما حصلا عليه فحسب، بل لزهوهما بأنهما شخصان نافعان، يستحقان المديح الذي كانت تسبغه عليهما تونيا.

وشغلت تونيا نفسها بتفقد مقتنيات الأسرة، في الوقت الذي يخرج فيه الرجلان، لعدة أيام، يتنقلان فيها بين المكاتب الحكومية، سعيا وراء الحصول على

ترخيصات السفر، والحصول على وثيقة تبيح لهم الاحتفاظ بالمنزل، ليعاودوا الإقامة فيه، إذا عادت الأسرة إلى موسكو. وكانت تونيا تتنقل بين الحجرات الثلاث، لترى ما ستأخذه الأسرة معها في سفرها. وكان من الطبيعي أن المتاع الذي يستخدمونه في حياتهم قليل، وأن الباقي يصح أن يستخدم كعملة يبتاعون بها ما يلزمهم أثناء سفرهم، وفي الأيام الأولى لوصولهم.

أخذ النسيم يتسلل من النوافذ، يحمل عبير الربيع، بينما أخذ الأطفال يمرحون ويتصايحون في ساحة الدار، وقد اختلط صياحهم بأصوات الديكة وهي تصيح. وأخذ الهواء يثير رائحة النفتالين الذي وضع بين الملابس.

وكان لابد من إتباع نظم خاصة لاختيار ما يحمل في السفر، على ضوء ما أشار به من رحلوا، ثم اتصلوا بأصدقائهم، وخيل إليها أن هاتفا يهتف بها من خلال أصوات الأطفال وتغريد الطيور فيقول لها:

– فليكن ما تأخذينه من الأقمشة أثوابا كاملة، ولما كان التفتيش دقيقا على الأمتعة، والأقمشة مبعث الخطر فيها، فلابد أن يراعى أن تظهر وكأنها ثياب مصنوعة، ولا داعي للحقائب، فلا يوجد حمالون، ولهذا لا تأخذي شيئا لا فائدة منه. كما تحزم الأمتعة في حزم صغيرة يسهل حملها. والتبغ والملح من الأصناف المحفوفة بالأخطار، وكذلك النقود. أما المستندات والوثائق فهي أصعب ما يمكن اصطحابه في أمان!

وفي اليوم السابق لليوم الذي حددته الأسرة للرحيل، هبت عاصفة ثلجية شديدة، فتجمعت سحب من الثلج، ترتفع نحو السماء بشكل حلزوني، ثم تعود فتهبط إعصارا، يندفع في الشارع المظلم، وكأنه غلالة بيضاء.

وانتهت الأسرة من حزم المتاع، ثم عهدت بالمنزل وما تبقى فيه إلى رعاية رجل مسن وزوجته، وكان الرجل يعمل في متجر أحد البدالين، من أقرباء يجوروفنا،

قبل أن تتقدم به السن، وكان بينهما وبين تونيا صفقات مقايضة، في الشتاء السابق، أخذت فيها تونيا بطاطس وخشبا مقابل ثياب وأثاث.

وطافت تونيا بالزوجين حجرات المسكن، وصارت تضع المفاتيح في الأبواب، وتغلق الأدراج، وتلقي إليهما بما يعن لها من تعليمات، وقد صفت المقاعد والمناضد إلى جوار الجدران، كما نزعت الستائر، وازدحمت أركان الحجرات بالحزم والربطات، فكان منظر المنزل بحالته هذه يبعث الأسى والانقباض، وحرك ذلك من أشجان يوري، فراح يفكر في أمه، كما راحت تونيا والكسندر الكسندروفيتش يتذاكران وفاة أنا وجنازتها، وشعر الجميع بأن هذه ليلتهم الأخيرة في الدار، وأنهم لن يروها بعد ذلك، ومع أن هذا الخاطر دار بخلدهم جميعا، فلم يجسر أحد أن يصارح الآخر بما يشعر به، لكيلا يزيد كل منهم آلام الآخر، واشتدت عليهم وطأة التفكير، وشملهم ألم مضن، راحوا معه يكافحون انهمار العبرات.

وبذلت تونيا جهدا كبيرا لتحتفظ برباطة جأشها، وراحت تتلهى في حديث مستمر مع زوجة الرجل المسن، وقدرت لها ولزوجها جميل معروفهما، وأرادت أن تعبر عن ذلك التقدير، فقدمت إليها بعض الهدايا من بلوزات وأقمشة حريرية موشاة بالزخارف. وكما بدا للأسرة من أمر البيت، بدا لها الشارع أيضا، وقد لفه الظلام، تتخلله نقوش من نتف الثلج.

***

انقضى الهزيع الأكبر من الليل، ولاحت تباشير الفجر، فبارحت الأسرة المنزل، وقد ظنوا أن السكان الآخرين يغطون في نومهم، ولكن واحدة منهم، واسمها زيفورتينا، كانت مولعة بالأحداث والمناسبات الاجتماعية، وما أن رأت الأسرة تغادر الدار، حتى أخذت توقظ السكان وهي تصيح:

– انظروا!... انظروا!... هلموا يا رفاق!... هيا لتقوموا بواجب الوداع لآل جروميكو السابقين!

وما أن سمع السكان صياحها، حتى هرولوا ناحية الباب الخلفي للدار، لأن الباب الأمامي كان قد أوصد بالواح من الخشب، ووقفوا على شكل نصف دائرة، وهم يرتجفون من البرد، ويتثاءبون، ويتدثرون بالمعاطف، وأخذوا يدقون الأرض بأقدامهم.

وكان ماركل، العجوز، وهو الذي عهدت إليه الأسرة برعاية المنزل، قد تناول قدرا كبيرا من الخمر الرديئة، لا يدري أحد كيف عثر عليها في تلك الأيام، فألقى بجسمه على سياج درجات السلم، وهي أقرب إلى الانهيار، وأخذ ينظر إلى ما يجرى. وأظهر ماركل استعداده لمعاونة الأسرة بحمل أمتعتهم إلى المحطة، ولكنهم لم يوافقوا، فتألم لذلك، ثم تركوه وخرجوا إلى الشارع، وكانت الرياح قد هدأت، ولكن الظلام كان مازال مخيما. وازداد سقوط الجليد.

وعندما وصلوا إلى شارع أربات، خفت وطأة الظلام، ولكن الثلج استمر في السقوط، حول سيقان السائرين، حتى خيل إليهم أنهم لا يسيرون، وأنهم في أماكنهم جامدون، كمعالم للزمن!

وكان الطريق خاليا من المارة سواهم، ولكنهم لم يلبثوا أن صادفتهم مركبة يجرها جواد صغير أبيض، ويقودها حوذي كان ككتلة من القطن المندوف، وعرضوا عليه أن يقلهم إلى المحطة وبعد مساومة قبل لقاء أجر خيالي، وركب الجميع العربة، عدا يوري الذي ألح أن يقطع المسافة سائرا على قدميه.

ولما وصل يوري إلى المحطة، رأى تونيا واقفة هي ووالدها ضمن صف من تلك الصفوف الطويلة التي امتلأت بها المحطة. أما نيوشا وساشا فكانا يلتهيان بالتجول، وينظران من حين إلى آخر ليريا هل حان الوقت للانضمام إلى صفوف

الكبار. وكان للصغيرين رائحة غريبة ثقيلة الوطأة، هي رائحة زيت البرافين الذي طلبت به رقبتاهما وأذرعهما وسيقانهما، لحمايتهما من الحشرات الوبيلة.

وكانت قبلة جميع الصفوف هي أبواب المحطة المفضية إلى الرصيف. ولكن الركوب لم يكن عند الرصيف، بل كان على الركاب أن يسيروا أكثر من نصف فرسخ بمحاذاة الخط الحديدي إلى أن يصلوا للقطار.

وكان السبب في ذلك طريفا حقا. وهو أن المحطة خلت في المدة الأخيرة من عمال النظافة، فتراكمت الأوساخ وغطت القضبان في منطقة المحطة. فصار على القطارات أن تقف خارج المحطة وأن يسعى إليها الركاب هناك.

وأشارت تونيا إلى يوري فاقترب منها، وأرشدته إلى الموضع الذي يجب أن يذهب إليه كي يختم إذن السفر بختم المحطة. فلما انتهى من ذلك قالت له:

– أرني ماذا كتبوا لك؟

فأعطاها الأوراق من فوق الحاجز الذي يفصل بينهما. ودفع الفضول الرجل الذي يتلوها في الصف أن ينظر من فوق كتفها إلى جواز السفر، وعندئذ هتف بدهشة:

– هذا تصريح بالسفر في العربة الخاصة!

ولم يفهما شيئا من مدلول هذه الكلمة، فتطوع الرجل الذي يسبق تونيا في الصف بالشرح، وكان رجلا من العارفين ببواطن التعليمات الحديثة، ويأخذون بها مأخذ التسليم، فقال:

– هذا التصريح يخول لكم الحق في مقاعد بالعربة المخصصة للركاب، وذلك طبعا في حالة وجود عربة ركاب بالقطار!

فاشترك كل من في الصف في التعليق على هذا القول:

– عربة الركاب؟ ومن ذا الذي يطمع في ذلك؟ فلتحمدوا ربكم إذا أتيح لكم مكان في دهليز القطار في هذه الأيام!

فغضب الرجل الذي تولى شرح التعليمات وقال:

– اسكتوا. سأشرح الأمر لهما. لقد ألغيت جميع القطارات المتميزة وأصبح هناك نوع واحد من القطارات للشعب والجنود والبحارة والحيوانات بغير تمييز. ولكن في كل قطار عربة خاصة للركاب. وتصريحاتكما تبيح لكما استخدام هذه العربة.

فانفجر الناس صائحين في وجهه:

– لماذا تغرر بالرجل! ألا تنظر إلى سحنته قبل أن تقول له من حقك ركوب العربة الخاصة: العربة الخاصة لا يركبها إلا البحارة. وفي أيديهم بنادق وعيونهم يقظة حتى لا يركب معهم أحد ليس على شاكلتهم. أما هذا الرجل فمن طبقة الملاك. وأسوأ من هذا أنه طبيب. يعني من الأسياد السابقين! وسفره انسحاب من الميدان!

وقضوا في القطار ثلاثة أيام. ولكن هذه الأيام الثلاثة لم تبعدهم كثيرا عن موسكو. وكان الجو شديد البرودة، مما جعل قضبان القطارات والحقول والأشجار وسقوف البيوت التي تبدو من نوافذ القطار مغطاة بطبقات سميكة من الثلوج.

وكان الحظ في جانب آل زيفاجو، فاستطاعوا الحصول على ركن كامل في الصف الأعلى من أسرة النوم، أمام النافذة الطويلة التي تقع تحت سقف القطار مباشرة. فكانوا طول المدة في دائرة عائلية خاصة بهم. وهذه كانت أول مرة تسافر

فيها تونيا في قطار من قطارات البضائع. وهذه القطارات شديدة الارتفاع عن الأرض، مما يجعل الصعود والهبوط شاقا جدا ولاسيما على النساء.

وخيل إلى تونيا أن هذه العربة ليست إلا حظيرة ماشية ركبوا لها عجلات ملفقة كي تتحرك فوق القضبان. ولذا كانت خائفة طول الوقت أن تحدث كارثة وتقع الحظيرة من فوق العجلات. بيد أن ذلك لم يحدث. وظلوا يهتزون إلى الأمام والخلف طيلة الأيام الثلاثة، والعجلات لا تكف عن الضجيج المزعج من تحتهم، كأنما هي طبول تعمل بطريقة آلية. وبمضي الوقت أخذت تونيا تثق في متانة العربة وترى مخاوفها على غير أساس، ماداموا قد ظلوا سالمين حتى هذا الحين.

وكان القطار مؤلفا من عربات يبلغ عددها ثلاثا وعشرين عربة. وآل زيفاجو في المنتصف تقريبا، أي في العربة الرابعة عشرة. وحينما يقف القطار في أية محطة، كانت العربة الأولى منها فقط هي التي تتخذ مكانها أمام الرصيف. وأحيانا يقف القطار بعد المحطة، وتكون العربة الأخيرة هي المحاذية للرصيف. أما بقية العربات فالصعود والهبوط منها وإليها أمر شاق للغاية.

وعند ترتيب الركوب في القطار كان البحارة في العربات الأمامية. والركاب المدنيون في العربات الوسطى. أما العربات الثمانية الأخيرة فمخصصة للعمال الذين تم تجنيدهم بأمر تكليف عسكري. وعدد هؤلاء العمال يقرب من خمسمائة، متفاوتة أعمارهم وبيئاتهم وحرفهم.

فركاب القطار على العموم تشكيلة عجيبة جدا، فمنهم المحامون، وسماسرة البورصة الأثرياء المتأنقون، والحوذية وخدم المنازل والمحلات، وعمال الحمامات العامة، وتجار الأثاثات المستعملة، ومنهم هاربون من مستشفيات المجاذيب، ورهبان هجروا الأديرة، وتجار صغار أصحاب حوانيت. وجميع هؤلاء كانوا يدخلون تحت عنوان الطبقة البورجوازية المستغلة!

أما العمال المجندون فكان عددهم أكثر كثيرا من العربات التي خصصت لهم، ولذلك سمح لبعضهم بالركوب في عربات الركاب المدنيين. ومن هؤلاء فريق كبر احتل العربة الرابعة عشرة التي احتل ركنا منها آل زيفاجو.

***

وكان من عادة تونيا كلما وقف القطار أن تعتدل في ضجعتها على الفراش وتجلس بحذر حتى لا يرتطم رأسها بسقف العربة وتنظر من وصاوص النافذة الطويلة لتتبين المكان، وهل يستحق أن تجشم نفسها عناء النزول فيه.

وكان هذا التقدير ينبني على أهمية المحطة وحجمها والمدة المقررة لوقوف القطار فيها، وإمكانيات قيامها بعقد صفقات على طريقة المقايضة البدائية!

وفي هذه المرة كانت تونيا نائمة حين أبطأت حركة القطار فنبهتها. ولاحظت أن السيمافورات كثيرة والتحويلات بين القضبان متعددة، مما يوحي بكبر حجم المحطة. فبادرت تونيا إلى تسوية شعرها وفرك عينيها. وفتشت في لفائف الثياب ثم أخرجت من إحداها منشفة مطرزة بأشكال ملونة لطيفة. وأيقظت يوري من نومه فساعدها على الهبوط من السرير المرتفع إلى أرض العربة.

ومن فتحة الباب أبصرا أكشاك التحويل والمصابيح الخضراء والحمراء، والأشجار العالية التي كساها الثلج بحلل بيضاء..

ولم ينتظر البحارة وقوف القطار تماما، بل راحوا يقفزون إلى الرصيف ويتسابقون إلى رحبة خلف بناء المحطة، فهناك مكان متفق عليه بين الناس لتجمع الفلاحات كي يبعن الأطعمة الريفية بأسعار السوق السوداء خلسة. وكان زي البحارة الأسود، والأشرطة الملونة التي يعبث بها الهواء، والمدلاة من قلانسهم تدفع الناس إلى الخوف من هجومهم الطائش فيفسحون لهم الطريق وهم منطلقون في سرعة مستهترة.

وفي الرحبة وقفت الفتيات والنساء متداخلات في وجل، يدفعهن الأمل في الكسب، وكل منهن تحمل بضاعتها الريفية من الجبن الخالي من الدسم، واللحم المسلوق، والفطير الساخن والخضر.

وبادرهن البحارة بالمزاح والنكات المكشوفة، فتضرجت وجوههن بحمرة الخجل، ووراين أعينهن بأوشحتهن. وزال خوفهن منهم. لأن البحارة بالذات هم الذين تتألف منهم عادة فرق الأمن للسوق السوداء، ولكن بعد قليل أقبلت جموع الركاب المدنيين وبدأت حركة المقايضة تنشط، فذهب الخوف عن الفلاحات.

وأقبلت تونيا تنظر في سلع الفلاحات، وقد وضعت على عاتقها منشفتها الزاهية الألوان كانها تنوي الذهاب إلى مضخة الماء خلف المحطة لتغسل وجهها. وما رأت الفلاحات المنشفة حتى أخذن يهتفن بها.

– ماذا تريدين في مقابل هذه المنشفة؟

فصمت أذنيها عن هذه الأسئلة، وواصلت سيرها بين سلال الفلاحات ويوري من خلفها. وفي نهاية المطاف كانت هناك فلاحة عليها شال أسود مطرز بنقوش حمراء. وما أن رأت هذه الفلاحة منشفة تونيا حتى تلفتت حولها بحذر ثم أسرعت تلتصق بها وكشفت لها عن بضاعتها هامشة:

– انظري! أنه شيء لم يره الناس منذ زمن طويل. خذيه قبل أن يستأثر به غيرك. أعطني منشفتك مقابل نصف واحد منها!

فسألتها تونيا:

– ماذا تعنين بالضبط؟

– معي أرنب مشوي. أرنب جبلي كبير. خذي نصفه مقابل منشفتك.

وجعلت تونيا تحملق في الأرنب المشوي الكبير الحجم، فصاحت بها الفلاحة:

– لماذا تحملقين هكذا؟ أتظنينه لحم كلاب؟ لا تخافي. فزوجي صياد ماهر وهذا أرنب جبلي ما في ذلك شك.

وبسرعة عقدت تونيا الصفقة في شيء من الخجل، لأنها أعتقدت أنها غشت الفلاحة الساذجة. أما الفلاحة فكانت شديدة الاغتباط. وأسرعت عائدة إلى القرية. وكأنها لا تصدق حسن حظها.

وفي هذه اللحظة قامت ضجة شديدة خلف يوري وتونيا، فالتفتا وإذا فلاحة عجوز تصرخ قائلة:

– إلى أين أنت ذاهب أيها الخنزير؟ أين نقودي؟ أمسكوا اللص! أدركوني أيها الرفقاء! أكل البضاعة وهرب!

– من هو؟

– ذلك الرجل الحليق الذي يضحك هناك.

– ماذا فعل؟

– أخذ الفطير فأكله. وتناول اللبن فشربه. وبعد أن ملأ بطنه أولاني ظهره، ومشي من غير أن يدفع الثمن. اجروا خلفه.

– نجري خلفه؟ أنه مطوق بأحزمة الرصاص حول صدره وبطنه. هو الذي سيطاردك أيتها العجوز لو حاولت مطاردته.

وكان من بين العمال المجندين ركاب العربة الرابعة عشرة، الفتى فاسيا. وهو يتيم قتل أبوه في الحرب فبعثت به أمه إلى بطرسبرج ليتعلم على يد عمه أصول

حرفته. وفي ذات صباح دعى العم إلى مقر مجلس السوفييت المحلي. ولكنه أخطأ الباب، فدخل حجر لجنة اختيار فرق العمال المجندين. وبمجرد دخوله لم يسمحوا له بالخروج وقيد مع بقية المجندين إلى الثكنات، وفي الصباح التالي ذهبوا بالجميع تحت الحراسة إلى المحطة لترحيلهم.

وفي المحطة تجمع أسر المجندين لتوديعهم. ومن بين الحاضرين كان فاسيا وزوجة عمه. وأخذ العم يتوسل إلى الحارس كي يسمح له بالنزول فيودع زوجته. ورفض الحارس ما لم يقدم رهينة. فقدم إليه فاسيا الذي احتجزه الحارس داخل العربة مع العمال المجندين وترك العم ينزل ليودع زوجته. فلم يقع عينا فاسيا على عمه وزوجته بعد ذلك!

وعندما اتضح الأمر أخذ المسكين يبكي ويتمرغ تحت قدمي الحارس فورنيوك، ولم يستطع الحارس أن يخلي سبيله، لا لغلظة كبده، بل لأنه كان مسئولا بحياته عن عدد من تحت حراسته. وهكذا كتب على فاسيا المسكين أن يذهب إلى معسكرات السخرة.

وكان بين العمال المجندين أيضا موظف تعاوني سابق اسمه كوستون كان محترما من الجميع، ومن الحراس أيضا. فلفت نظر رئيس القافلة إلى مأساة فاسيا. واقتنع الرئيس أن المأساة فظيعة حقا. ولكنه لا يستطيع أني فعل شيئا من أجل المسكين إلا بعد وصول القافلة إلى هدفها وهناك يحاول بكل وسعه أن ينصف الفتى.

وكان فاسيا وسيما خفيف الروح أشبه بصور الملائكة أو وصفاء القصر الإمبراطوري. صافي النفس طاهر السريرة بصورة خارقة. فكان يقضي وقته مقعيا تحت أقدام من هم أكبر منه سنا، وقد عقد ذراعيه حول ركبتيه منصتا إلى أحاديثهم

ومسامراتهم. وكان من السهل عليك أن تفهم مضمون الأحاديث من مراقبة قسمات وجه ذلك الفتى الوسيم وهو يغالب الضحك أو يكاد يشرق بالدمع!

***

وصنع آل زيفاجو بنصف الأرنب الجبلي الكبير وليمة عشاء. ودعوا إليها التعاوني كوستويد. فانقض على ورك الأرنب الجبلي ينهشه متلذذا متلمظا بصوت مسموع. حتى إذا انتهى منه جعل يلعق أصابعه ثم جففها بمنديله وتنحنح ثم قال:

– أن الأرانب الجبلية المشوية طعام فاخر حقا. ولكن ليس معنى هذا أن طبقة الفلاحين تعيش في يسر!

فقال له يوري:

– على رسلك! فنحن نمر بجميع المحطات، ونرى الأشجار كلها قائمة، وأسوار الحدائق كذلك. وهو في حد ذاته دليل على أن الحاجة والفاقة لم تصلا بسكان الريف إلى حد الانقطاع عن استعمال الوقود كما فعلنا في المدن. وفي كل لحظة نجد أسواقا وأرزاقا تباع ونسوة غير شاحبات الوجوه. وهذا كله يدل على أن الحياة تسير هنا سيرا عاديا. وأن الناس لا يرزحون تحت أعباء الشقاء.

– الأمر كما تقول فعلا. ولكن ليس ١٠٠٪ فأنت تنظر إلى الريف من نافذة قطار. تنظر إليه من الخارج ولا تتوغل إلى الداخل. فلو توغلت إلى أي موضع في الريف يبعد خمسين ميلا أو مائة ميل عن الخط الحديدي، لوجدت الفلاحين هناك في ثورات مستمرة. ثورات غير مذهبية. لأنهم يقاتلون الحمر والبيض على السواء. يقاتلون أي معسكر يتولى الحكم. فهم ضد السلطة بكافة أنواعها. لقد سئموا أن يكونوا محكومين.

– ذلك لأنهم لا يدرون ماذا يريدون...

– عفوك يا دكتور. كلا. بل أن الفلاح يعرف تماما ماذا يريد. فعندما فوجئ بنشوب الثورة بعد طول العنت والاستبداد، قام برأسه أن حلمه الجميل القديم قد سنحت الفرصة لتحققه أخيرا. وتسألني ما هو هذا الحلم الذهبي القديم، فأقول أنه حلم بسيط يتلخص في أن يعيش الفلاح مالكا للأرض التي يزرعها بيديه. وألا تكون هناك أية حكومة مسيطرة عليه تتدخل في شئونه. وألا تكون عليه تكاليف ولا ضرائب يطالبه بها أحد. فهو يزرع الأرض ويأخذ ما تخرجه من ثمرة عرقه! ولكنه صدم بأن النظام الجديد لم يزد على أن استبدل بالطغيان القديم طغيانا جديدا، فبدلا من المالك الإقطاعي الذي يأخذ ثمرات الأرض، جاءت مجالس السوفييت التي تجمع المحصول كله ولا تترك للفلاح شيئا. فكأن السلطان الجديد أشد صرامة من القيصر. فهل تعجب بعد هذا أن تكون جميع القرى في حالة غليان؟ وهل بعد هذا تقول يا عزيزي الدكتور أنهم سعداء؟ ما أكثر الأمور التي لا تعرفها يا عزيزي، وأظنك أيضاً لا تريد أن تعرفها!

– أوه! افرض أنني لا أريد أن أعرفها! فما الذي يحتم على أن أجشم نفسي معرفة كل شيء. فمن صنعوا التاريخ لم يستشيروني قبل أحداث هذه التغييرات الجذرية. وقد وطنت نفسي على الرضا بالوضع الجديد أيا كان شكله ولونه. فلماذا إذن لا يحق لي أن أتجاهل من الحقائق ما لا يناسبني؟.. أنك قد تسمي ذلك سلوكا هروبيا يبتعد بي عن الواقع. ولكن خبرني أين الحد الفاصل بين الواقع والوهم في روسيا اليوم؟ أن الحقيقة لم يعد لها وجود في روسيا الآن. ومن الخير لي أن أعتقد أن الفلاحين سعداء وأن أهل الريف ميسورو الحال، لأني إن لم أعتقد ذلك، فماذا بوسعي أو بوسع أمثالي أن يفعلوا لتغيير الحال؟ إن من واجبي أن أعتقد بأن كل شيء على ما يرام كي أتمكن من مواصلة العيش. وقد تسأل وما جدوى مواصلة العيش؟ فأقول لك لأن لي زوجة وأبناء يجب أن أعيش من أجلهم.

ثم أشاح بيده ووجهه يائسا، وترك المناقشة تدور بين التعاوني وحميه، وأطل من فوق الفراش ليرى ما يجرى بين الركاب من أحاديث. وكان القطار يقترب من مسقط رأس فاسيا، فأخذ المسكين يردد في نشوة أسماء القرى ويصف الطريق من المحطة إلى قريته، وكأنه واقع تحت سحر. ثم انثنى إلى الحارس فورونيوك.

– أستحلفك بالمسيح يا عمي فورونيوك أن تطلق سراحي لأعود إلى أمي وإلى أختى آليا وأختي آريا. أتوسل إليها يا عمي فورونيوك!

– وبعدها معك؟ ماذا تبغي من كثرة ترديدك عمي عمي؟ أنا لست عمك؟! وهبني كنت عمك ماذا يمكنني أن أفعل؟ هل أنا مجنون كي أطلق سراحك وتطير رقبتي في الهواء؟. هل ينفعني قولك يا عمي يا عمي حين يوقفونني أمام جدار قديم عليه آثار البول ليطلقوا على الرصاص؟

وأقبلت عشيقة أحد المسخرين وأخذت تربت على رأس فاسيا وتقول له:

– أهدأ بالا ولا تفاتح فورونيوك على مسمع من الجميع في هذا الموضوع. اصبر وسيكون كل شيء على ما يرام في النهاية.

ولما أوغل القطار متجها إلى الشرق أخذت الأحوال تتبدل. فإذا عصابات وثورات وفرق مسلحة تسيطر على الحالة. وكثيرا ما كان القطار يقف في الخلاء من غير أن تكون هناك محطات ثم تصعد جماعة من الجنود لفحص جوازات سفر الركاب وأمتعتهم.

وفي ذات مرة وقف القطار ليلا من غير أن يصعد إليه أحد. ولم يستيقظ أحد لوقوفه فتعجب يوري وبارح القطار ليرى سبب التوقف وهل حدث حادث. وكان الظلام سائدا. وكان كل شيء هادئا على جانبي الخط الذي تحف به أشجار عالية. ولم يلبث ركاب آخرون أن هبطوا وراحوا يتخبطون في الظلام وأحذيتهم الثقيلة ترن فوق الجليد. ويظهر أنه لم يكن هناك سبب لوقوف القطار سوى أن

السائق راق له أن يتوقف بحجة أن المنطقة خطرة. وأن القضبان غير مضمونة السلامة، فلابد من اكتشافها أولا بواسطة الترولي. وتوجه هؤلاء الركاب إلى السائق ليناقشوه في قراره وليلتمسوا الدفء عند القاطرة. وانضم فريق من البحارة إليهم. ولهم من النفوذ ما يخولهم فرض رأيهم على السائق.

وبينما كان يوري في الطريق إلى القاطرة رأى على ضوء المصابيح الكشافة، جملة أشخاص يجرون نحو مقدم القاطرة، وفي مقدمتهم السائق نفسه. وهناك اختفى كأنه مسحور واختفى معه البحارة الذين يلاحقونه.

فتعجب يوري ومن معه من المسافرين ركاب العربة الرابعة عشرة، وأسرعوا إلى مقدمة القاطرة، فإذا منظر غريب: إذا بركة عميقة وسط الجليد وقف فيها السائق إلى جوار الخط الحديدي. وغاص معه فيها مطاردوه من البحارة، ووقف الآخرون في حلقة حول البركة. والمسكين يصرخ.

– ما هذا الأمر الغريب؟ بحارة يطاردون بالبنادق عاملا مسكينا؟ احكموا بيني وبينهم أيها الرفاق الركاب. هل هذه منطقة يسير فيها قطار ليلا؟ هل نأمن من وجود عصاة أولاد حرام فكوا مسامير القضبان؟ اذهبوا إلى جهنم جميعا فإني توقفت حفظا على حياتكم! فهل يكون هذا جزائي؟ هأنذا فارموني بالرصاص أن شئتم ولكني لن أتحرك مجازفا بحياة الركاب.

وانبرى عملاق من بين البحارة أحمر الشعر فقال للمسافرين:

– لا تتجمهروا. فالبرد قارس هنا. عودوا إلى مقاعدكم ثم التفت إلى السائق وقال له:

– كفاك هياجا أيها الرفيق السائق. فاخرج من الثلج واحشد البخار في قاطرتك وسر على مهل وأنت مفتوح العينين.

– لن أسير قبل طلوع النهار!

وفي اليوم التالي واصل القطار سيره في بطء. لأن القضبان كانت مكسوة بالثلج الذي ظل يتساقط طول الليل. وليس هناك من ينظفها. وبعد قليل وقف القطار أمام أطلال محترقة هي كل ما تبقى من محطة كلنس السفلي. وخلف هذه الأطلال قرية أتت عليها النيران أيضا. وفي شوارعها حطام الأثاث والزحافات المحطمة. ولكن القرية لم تكن خالية من الناس تماما. فهناك نفر قليل من أهلها هبط إليهم السائق، الذي خف لاستقباله ناظر المحطة.

– هل شب هنا حريق أخيرا؟

– مرحبا بك. شب هنا حريق فعلا. ولكن كان أسوأ من ذلك أن أهل القرية رفضوا تقديم جياد للجيش الأحمر. وعصوا قرار التعبئة العامة وحلوا لجنة الفلاحين. فكان ذلك كافيا كي ينزل الجيش بهم عقوبة التدمير والتخريب والحريق.

– ولكن كيف؟

– حضر إلى هنا قطار مصفح فأمطر القرية والمحطة بالقنابل وتلفت السائق نحو البحارة البحارة مذعورا ثم قال:

– حقا هذا شيء فظيع. ولكنه ليس من شأننا.

– هناك شيء من شأنكم على كل حال. وهو أنكم لا تستطيعون استئناف السير قبل يومين على الأقل.

– غير معقول. فأنا أحمل مجندين مطلوبين لجبهة القتال.

– ليس الأمر بيدي. لأن العاصفة الثلجية ظلت تهب علينا أسبوعيا بأكمله فتراكم الجليد على الخط الحديدي ولم يبق في القرية سكان يستطيعون تنظيف الخط. فمن لم يهربوا أقلية يلزمهم يومان على الأقل للقيام بذلك العمل.

– يا للشيطان! وهل الجليد كثيف؟

– طبعا. ولكن ليس في مستوى واحد. وهو يمتد من هنا حتى الغابة. وهناك ستجد أن أشجار الغابة حمت الخط الحديد من تراكم الجليد.

– يا لها من ورطة! أفكر في تجنيد الركاب لتنظيف الخط.

– هذه فكرة جميلة.

– ولكني لا أستطيع تسخير البحارة. وفيما عدا ذلك عندنا أكثر من سبعمائة عامل مجند عدا المسافرين بالمجان.

– هذا عدد أكثر من اللازم. ولكن يجب الانتظار ريثما تأتينا المجارف من القرى المجاورة.

– عقبة أخرى! يا له من نحس!

***

وظل العمل قائما في إزاحة الجليد عن القضبان مدة ثلاثة أيام. واشترك في هذا العمل جميع آل زيفاجو بما فيهم نيوشا. فكانت هذه الأيام الثلاثة أسعد أيام الرحلة لما فيها من تسلية. فالطبيعة المهيبة تبدو من حولهم كأنها منظر خرافي.

وقد قسم الركاب إلى مجاميع. وعزل العمال المسخرون عن الركاب المدنيين. ووقف الحراس حول العمال المجندين لمنع محاولات الهرب. وقسم الخط إلى مراحل لكل مرحلة فرقة. ويظل الجميع في العمل طول النهار فلا يعودون إلى العربات إلا للنوم. فساعد العمل الشاق على تدفئة الأجسام وبعث اللذة والتسلية في النفوس. لاسيما وأن قلة عدد الرفوش والمجارف جعلت العمل بالتناوب ساعات قصيرة.

وفي المنطقة التي كان يوري يعمل فيها رأى على قمة تل بيتا تعصف حوله الرياح من كل جانب، وتحيط به الأشجار العالية الوارفة. ويحف به جدول ينحدر على سفح التل. فجعل يوري يتساءل:

– ترى من الذي كان يعيش في هذا البيت؟ وأين هم الآن؟ هل هربوا إلى خارج البلاد أم قتلهم الفلاحون؟ أم لعل سترلينكوف قوميسير المنطقة السياسي ودكتاتورها سمح لهم بالحياة؟

ولكن صمت البيت لم يحمل جوابا على أي لغز من هذه الألغاز. ولم يكن من المأمون في هذه الظروف أن يلقي الإنسان بأسئلة من هذا القبيل. ولو ألقاها لما وجد من يجسر على الإجابة عنها.

وفي المساء كانت تصرف للجميع أرغفة كبيرة من خبز طازج ساخن لا يدري أحد من أين يأتون به. ولكن قعور تلك الأرغفة اللذيذة كانت مزدانة بذرات صغيرة من الحصى والفحم!

وبعد أن تمت العملية صار القطار على أهبة التحرك. وتغير الجو وتغيرت المناظر بعد برهة قليلة، ودخل القطار منطقة جبلية متعرجة. وكفت ريح الشمال الباردة عن الهبوب وحلت محلها رياح جنوبية دافئة كأنها خارجة من أتون متقد. وفوق الربوات نمت أشجار عالية كثيفة. فكان منظر القطار وهو يمر بديعا حقا.

وقضى يوري الأيام الطويلة راقدا في سريره يغفو ويستيقظ ويفكر ويصغي. ولكن الأحاديث التي كانت تصل إلى سمعه لم تكن تستحق عناء الإنصات. فكان يكتفي بالتلذذ بدفء الربيع ومراقبة ذوبان الجليد من النافذة والمياه تتجمع في سيول تتدفق من قمم المرتفعات وتملأ الوديان بالبحيرات، ويتكاثف البخار المتصاعد منها. حتى خيمت السحب المنخفضة على المرتفعات. وأخذ المطر

ينهمر دافئا محملا برائحة التربة الندية كي يغسل الأشجار والجبال من بقايا الثلج الأسود.

كل ذلك كان يلذ ليوري الشاعر أن يرقبه وهو يتمطى.

ولما اقتربوا من منطقة المناجم ظهرت آثار العمران وتقاربت المحطات التي ينبغي على القطار أن يقف فيها. وكثر عدد الركاب النازلين والصاعدين وصار همهم حين يقتربون من المحطات أن يتخذوا أماكن قرب الأبواب. ومن أحاديث هؤلاء القوم من الركاب الجدد، فهم يوري أن هذه المنطقة استطاع البيض فيها أن يحرزوا انتصارات. وأن قواتهم هناك بقيادة ضابط اسمه جاليولين. فرجح أنه صديقه القديم. ولم يشأ أن يفضي بتلك المعلومات إلى أعضاء أسرته حتى لا يثير مخاوفهم من المعارك الناشبة في المنطقة.

وبعد موهن من الليل استيقظ يوري فوجد القطار واقفا لا يتحرك. وأحس بأشخاص يسيرون فوق الرصيف بجوار العربات وهم يتكلمون بأصوات خافتة ويخففون الوطء. فتعجب يوري لهذا التهذيب الشديد والترفق براحة المسافرين النائمين، وهي آداب كانت مفهومة قبل الحرب. فماذا جرى للناس؟

ولم يكن يوري على صواب في هذا العجب. فالضجة والأصوات المرتفعة كانت على حالها. ولكن وجود شلال مائي قرب المحطة ابتلعت ضجته أصوات الناس. ومهما يكن من أمر، فقد استسلم يوري للنوم على خرير ذلك الشلال وكأنه تعاطى مخدرا. ولم يصل إلى سمعه إلا صوت شخصين من ركاب القطار يتحدثان من أسفل فراشه. وهما من الركاب الذي استقلوا القطار في المحطة السابقة.

– لقد ضربوا تجار الغلال ضربة قاسية. أعدموا نفرا منهم ليكونوا عبرة. فأسلس قياد الباقين وجادوا بما في مخازنهم من أقوات. ومع ذلك فرضت عليهم غرامة كبيرة.

– ما مقدارها؟

– أربعون ألف كيل من الحنطة. من أجود الأنواع.

– مقدار باهظ. ولكن الأرض هنا خصبة والمحصول جيد. وكلما أوغلت زادت جودة الأرض وضخامة المحصول. وكثر تجار الغلال الأثرياء.

– لا ترفع صوتك هكذا حتى لا توقظ الناس؟

– معك حق. هيا بنا كي ننام.

وظل القطار ساكنا. ولكن مرق بجواره قطار آخر له ضجة كقصف الرعد. فقال أحد المسافرين:

– هذا قطار مصفح.

– لابد أنه قطار سترلينكوف!

– لا ريب!

– هذا الرجل وحش مصاص دماء، إذا قورن بخصوم الثورة الحمراء.

***

في صباح اليوم التالي قالت تونيا ليوري:

– أنك عجيب الأطوار يا يوري!.. أحيانا توقظك نسمة، فيجفوك النوم، ويصيبك الأرق، ولكنك هنا تغط في النوم رغم كل هذا الصخب! حتى أنني لم استطع أن أوقظك! هل تصدق أن بريتولييف قد هرب، وكذلك فاسيا، وتياجونوفا، وأوجريسكوفا! هل تتصور هذا؟ وليس ذلك فقط.. فقد هرب فورونيوك أيضا! أراك لا تصدق! ولكنها الحقيقة... لست أدري كيف تسنى لهم ذلك، وهل كانوا معا؟ أم

هربوا فرادي؟ ومن صاحب الفكرة؟ ومن ابتدأ بالهرب؟ كل ذلك أحاج وألغاز يلفها الغموض! أن ما استطيع إدراكه أن فورونيوك أراد أن ينجو بنفسه، بعد ما رأى فرار الآخرين! ولكن ما يحيرني حقا!.. أنني لا أعرف هل اختفى الباقون بمحض إرادتهم؟ أم أن يدا اختطفتهم! أما من جهة المرأتين، تياجونوفا، وأوجريسكوفا، ترى من منهما قتلت الأخرى؟!

وأخذ قائد فرقة المجندين للعمل يتنقل في عربات القطار كمن أصابه مس من الجنون وراح يصرخ:

– باسم القانون، آمركم بألا يتحرك أحدكم، حتى ألقى القبض على السجناء!

فتذمر قائد القطار، ورد عليه بأعلى صوته:

– ألا تعلم أن المهمة خطرة، وأنني أنقل جنودا لجبهة القتال، ما شأننا وشأن رجالك القذرين، لن انتظرهم!

وأعقب ذلك أن ذهب الاثنان إلى كوستديد وأخذا يوبخانه بقولهما:

– أنك نقابي، متعلم، فكيف تسمح بمثل هذا الاستهتار من جندي جاهل؟ وتزعم بعد ذلك أنك شعبي!

فحنق كوستويد، وتولاه الغضب وقال:

– ما أعجب هذا! هل انقلبت الأوضاع، فأصبح على السجين أن يحرس حارسه! يا للعجب! لكأني أرى اليوم الذي يحمل فيه الرجل ويلد بدلا من المرأة!

ثم عادت تونيا تحدث يوري وهي تهزه بكل قوتها:

– يوري، استيقظ! حادث فرار!

وذهب جهدها أدراج الرياح، فلم يستيقظ.

وعادت تونيا تقول:

– انظر يا أبي، انظر يا يوري.. ما أبدع ذلك!

وراحت توجه النظر خلال ثغرة في النافذة، كي يروا الريف وقد غمرته فيضانات الربيع، حيث فاض أحد الأنهار، فانهارت ضفتاه، وانطلق انسياب الماء حتى بلغ الخط الحديدي، وكان لون الماء في زرقة السماء، وأخذت الشمس ترسل أشعتها الذهبية، وخلال هذا الطوفان كان هناك خط ضيق طويل من الأرض، فيه صف من الأشجار، لا يحد البصر عددها، وقد انعكست صورها على الماء، وكأنها معلقة بين الأرض والسماء!

وحانت من الكسندر الكسندروفيتش التفاتة وما لبث أن قال:

– هل تريان هذه الأسرة العجيبة من البط؟

– أين هي؟

– أنها قريبة من الجزيرة.. إلى يميننا، يظهر أننا أخفناها فقد طارت!

فقال يوري:

– نعم. أنني أراها.. أريد أن أحدثك يا الكسندر الكسندروفيتش، في وقت آخر. يغمرني السرور لفرار المجندين والمرأتين، وأنا أعتقد أنهم فروا بسلام، وانطلقوا كما ينساب الماء!

ولاحت تباشير الفجر، وقاربت تلك الليلة نهايتها، وأصبح كل شيء واضحا للبصر: الغابة، والجبال، والأخدود وقد شقه الماء، ولكنها جميعا كانت كالأطياف، أو كأنها عناصر قصة من قصص الخيال!

واكتست أشجار الكريز بالأوراق، وقد نبتت براعمها، وهي تنمو تحت هضبة على لسان ضيق من الأرض ينتهي بهاوية. وامتزج الفرح والخوف، واستبدا بفاسيا، أحد الهاربين، وهو يطيل النظر إلى ذلك المنظر.

وكان الشلال بهديره وزمجرته، رهيبا، باعثا على الخوف، كأنه وحش ضار، يفترس ما أمامه.

وفي منتصف مهبط المسقط، كان الماء يرتطم بصخرة ناتئة، ينساب الماء هادئا قبل أن يصل إليها، ثم يتأرجح بعد ذلك في فرعين.

استلقى فاسيا فوق معطفه، على حافة الغابة، وحلق طائر ضخم فوق الغابة، ثم استقر على شجرة، قريبا من فاسيا، فذعر هذا، وما لبث أن ردد اسم هذا النوع من الطيور: رونجا، وما لبث أن نهض ثم حمل معطفه ليقول لزميلته:

– هلمي يا بوليا! لقد أثر البرد على جسدك، فيم تحملقين؟ هيا بنا ننطلق.. لنجد مخبأ في إحدى القرى، لقد قتلنا الجوع، وسنهلك إذا بقينا هنا. أنهم ولا شك يفتشون عنا، فمن الطبيعي أن فورونيوك قد أثار ضجة شديدة! ماذا يضنيك أيتها العمة، أنك ولا شك لم تقصدي إلقاء كاتي من القطار، كاتي أوجريسكوفا، ولكنك اصطدمت بها عفوا، فقد رأيت ذلك بعيني، وأنا واثق أنها ستلحق بنا هي وبريتوليبيف، فيلتئم الشمل، كفى حزنا وهما، وفكي عقال لسانك!

ونهضت تياجونوفا ثم قالت:

– هيا يا عزيزي!

***

كانت الأنفاس قد بعثت الحرارة في جو العربة، وازداد تصبب العرق، فتعذر النوم، وهبط يوري عن سريره في حذر حتى لا يوقظ أحدا، وفتح أبواب العربة،

فلفح وجهه هواء رطب، فشعر بالرطوبة، وتناهت أثناء سير القطار، أصوات هزيم إلى أسماع يوري، جعلته يرهف أذنيه ثم يقول لنفسه:

– المدفعية! نعم، أننا الآن في الجبهة!

وسار بضع خطوات، فرأى نفسه في نهاية القطار، ولدهشته وجد أن بقية العربات قد فصلت، واختفت مع القاطرة. ومعنى لك أنه كان لدى المسافرين شعور بأنهم سيلقي بهم في جبهة القتال فور وصولهم.

وأراد يوري أن يعبر الخط الحديدي، ليرى المحطة، فاعترضه حارس وقد شهر سلاحه وسأله:

– إلى أين؟ ألديك جواز مرور؟

ولكن يوري سأله عن اسم هذه المحطة فأجابه الحارس بجفاء:

– فلتكن ما تكون ما شأنك ومن أنت؟..

– أنا طبيب من موسكو، مسافر ومعي أسرتي، وهاك أوراقي...

– سحقا لأوراقك.. هل تظنني غبيا... ما شأني بالأطباء، من الخير لك أن تعود من حيث أتيت، فلم يحن موعد القضاء عليك.

ورضخ يوري للأمر، وعاد من حيث أتى، حتى لا يصيبه ما توعده به.

سار يوري بطول القطار، وشعر أن قدميه تغوصان في الرمل، ووقف يتبين– خلال الضباب– الأشكال التي أمامه، فلمح هياكل مراكب، ونهرا كبيرا قد أقيمت بجانبه أكواخ الصيادين.

وواجهه حارس آخر يحمل سلاحه بادره بالسؤال:

– هل معك تصريح بالسير في هذا المكان؟

فتجاهل يوري سؤاله وبادره بقوله:

– ما اسم هذا النهر؟

ولكن الحارس الأول وصل في هذه اللحظة، وكان يسير في حذر مقتفيا أثر يوري، فاشترك مع زميله في توجيه عبارات السخرية إلى يوري.. ثم سأل زميله:

– إلى أين نتوجه به أولا: إلى القطار أم إلى حاجز المياه؟.

– بل إلى القطار، لنعرض أمره على الرئيس.

ثم فجأة صرخ في يوري:

– أين أوراقك؟

واحتواها بيده، ثم وكل حراسته إلى شخص آخر، وسار مبتعدا مع زميله نحو المحطة.

وكان الشخص الثالث صيادا فقال ليوري:

– أنت حسن الحظ، فلعل في عرض أمرك على الرئيس نجاتك.. أنهما يؤديان عملهما، والسيادة اليوم للشعب، وهذا أفضل ولا غرو.. لقد ظن الحارسان أنك عدو الطبقة العاملة، الذي يبحثان عنه.. فعليك أن تصر على مقابلة الرئيس، فإن هذين الحارسين لا يتورعان عن القضاء عليك، وعندما يعودان، ويطلبان منك الذهاب معهما، تمسك بأنك تريد مقابلة الرئيس!

وعرف يوري من الصياد أن النهر هو نهر ريفنا، وأن المحطة التي إلى جانبه، هي التي يهبط فيها من يقصد يوريانتين، وأنه حرام ارتياد المدنيين لهذه البقعة، كما

علم أيضا أن بعض العربات استخدمت كمراكز لقيادة الجيش، وخصص بعضها للقوميسير سترلينكوف، الرئيس الذي ذهب إليه الحارسان.

وبعد فترة قصيرة أقبل حارس ثالث من الاتجاه الذي سار فيه الآخران، يجر بندقيته من خلفه، وأحيانا يدفعها أمامه، فصحب يوري إلى القوميسير.

***

سمعت ضحكات تنبعث من إحدى العربتين اللتين صحب الحارس يوري إليهما، بعد أن نطق بكلمة السر، وسكتت الضحكات عندما أقبل الحارس ومعه يوري، حيث اقتاده خلال ردهة إلى مقصورة واسعة، وكانت أرضية المكان مكسوة بالفللين، فلا يصدر صوت من أقدام السائرين فوقها، كأن أحدا لا يسير، وهذا سر السكون الذي أحاط به.

وفرشت عربة الإدارة ببساط سميك، وقامت فيها بضعة مكاتب، وسمع ضابط شاب وقف عند الباب يقول:

– لحظة واحدة!

ثم صرف الحارس بإشارة، فخرج هذا، وأبصر يوري أوراقه موضوعة على أحد المكاتب في ركن قصي، جلس إليه رجل مسن، خبير بالإحصاءات، أخذ يغمغم بكلمات غير مسموعة، وهو يفحص بعض المراجع، ويدرس خرائط الميدان ويحصي، ويضع بعض أشياء في سجل خاص.

ورأى يوري كهربائيا يصلح بعض الأسلاك، وموظفا انهمك في إصلاح آلة كاتبة، وقف بجواره الضابط الشاب متأملا، وما لبث الرجل المسن أن انضم إليهم، فبعث هذا المنظر الاطمئنان في نفس يوري، فهل من المعقول أن يشغل هؤلاء بمثل هذه التوافه، وأمامهم رجل يدركون سوء مصيره!

وأراد أن يحول أفكاره، فأرسل بصره عبر الحجرة، وراح يحملق خلال النافذة.

كان في مقدوره أن يرى الخط الحديدي، والمحطة، وضاحية راز فيليبي، وعلى بعد رأى مخزنا للقاطرات القديمة، وقد وقفت بجوار بعضها فخيل ليوري أن مداخنها كشواهد قبور الموتى فقال في نفسه:

– هنا مقابر القاطرات، وهناك مقابر الآدميين.

تحول يوري بنظره عن النافذة، وإذا به يرى سترلينكوف يقبل في خطي رتيبة قوية، ويقف وسط الحجرة، وتساءل في نفسه:

– كيف لم تسمح له المقادير بلقاء شخصية كهذه من قبل؟!

وعرف لأول وهلة أن هذا الرجل نموذج للإرادة والعزيمة، كان رجلا كاملا، للوضع الذي اختاره لنفسه، رجلا نموذجيا. برأسه الجميل الشكل، المتناسق، وخطوته القوية، وساقيه الطويلتين، وحذائه الطويل النظيف، وزيه العسكري الدقيق في كيه.

وهكذا تأثر يوري بهذا المنظر، الخالي من التكلف والافتعال، مما يوحي بأنه ذو موهبة فذة وشخصية قوية.

لم يبد على سترلينكوف أية دهشة أو استياء لوجود يوري ثم راح يخاطب رجاله، وكان يوري واحدا منهم:

– أهنئكم.. فقد استطعنا أن نصدهم، وأن نردهم على أعقابهم، في سهولة كأننا نلهو بلعبة وليس في ساحة حرب وقتال.. أنهم مثلنا ينتمون للروسيا ويتعلقون بها، ولكن رءوسهم محشوة بالسفاسف.. التي يتمسكون بها، ونعالج نحن طردها من رءوسهم.. كان قائدهم صديقا لي، وقد نشأنا في بيت واحد، وغمرني بأفضاله،

وأنا مدين له بذلك أصلح الأسلاك بسرعة يا جوريان، لأن التليفون معطل، والرسائل والبرقيات لا تجدي.. هل تشعرون بوطأة الحر.. أنني رغم ذلك ظفرت بساعة نوم!

والتفت إلى يوري، وقد تذكر أنه أوقظ من النوم ليفحص أمره، وحدجه بنظرة ثاقبة، ثم قال لنفسه:

– هذا الرجل.. لا شيء.. أنه لا يشبه الآخر.. يا لهم من حمقى!...

وقهقه ضاحكا وقال ليوري:

– معذرة أيها الرفيق، فقد ظنوك شخصا آخر يبحثون عنه، أن حراسي أغبياء، يرتكبون كثيرا من الأخطاء! يمكنك أن تنصرف.. أين بطاقة عمك أيها الرفيق؟.. تذكرت.. ها هي ذي أوراقك، سألقي عليها نظرة.. زيفاجو.. زيفاجو.. دكتور زيفاجو، من موسكو، حسنا، أريد أن أقضي معك لحظة في غرفتي، فهذا مقر السكرتارية... أما أنا فأقيم في العربة المجاورة، هل تسمح بمرافقتي، ولن أستبقيك طويلا!

فمن عساه يكون سترلينكوف؟

أنه مدرس سابق في الأقاليم، اشترك في الحرب، وأسر، وأذيع رسميا أنه مفقود، واعتقد الجميع أنه قتل. ولم يعد من ألمانيا– حيث كان أسيرا– إلا منذ مدة وجيزة. وزكاه لدى الحزب الثوري عامل في السكة الحديدية متطرف الآراء هو "تيفرزين". وسرعان ما احتل مكانة عظيمة لحماسته الثورية ومقدرته الخطابية الفائقة، وأظهر كفاءة عظيمة في التحقيق وتصريف الأمور الإدارية. حتى استطاع بقسوته وحزمه وقف فرار الجنود جماعات، وأقبل الناس على التطوع في الجيش الأحمر بهمة فائقة.

وكان والده عاملا سجن لاشتراكه في ثورة عام ١٩٠٥، وكان يومئذ صغير السن للغاية. وبعد أن تخرج في كلية الآداب، تاقت نفسه إلى العلوم والرياضيات وعمل مدرسا، ولما أعلنت الحرب تطوع في صفوفها، وأسر. ولما سمع وهو في الأسر نبأ اندلاع الثورة في عام ١٩١٧ هرب من الأسر وعاد إلى وطنه ليسهم في الثورة بحماسته وجده واستقامته ونزاهته.

ونظر سترلينكوف في أوراق زيفاجو ثم جعل يسخر منه لتركه خدمة الجيش وركونه إلى الإقامة في الريف، فقال له زيفاجو بهدوء:

– لقد جرحت مرتين، وتقرر تسريحي لحاجتي إلى النقاهة!

– اسمع.. سأطلق سراحك هذه المرة، ولكنها المرة الأخيرة التي افلتك فيها. فاحذر أن نلتقي ثانية!

وهم زيفاجو أن يرد عليه، لولا أن جرس التليفون قطع عليهما الحديث، فرفع سترلينكوف السماعة وقال لمحدثه:

– شكرا لك.. والآن أرجو أن ترسل شخصا يرافق الدكتور زيفاجو إلى قطاره.. ولا أريد حوادث من هذا القبيل مرة أخرى.. ثم هناك طالب جاءوا به مع الأسرى، وضماده قذر، وهو بحاجة إلى إسعاف طبي... ومن العار أن تهملوه هكذا!.

الفصل الثامن

نهاية الرحلة

وقف القطار الذي يقل عائلة يوري (زيفاجو) على الرصيف، تحجبه عن المحطة بضعة قطارات أخر، وكانوا حتى هذه اللحظة يعتبرون أن اتصالهم بموسكو قد انتهى، وأنهم في طريقهم إلى بلاد أخر ريفية لها طابعها الخاص. وأبرز صفات سكان هذه البلاد التعاطف والتآخي.

وكانت المنطقة قد أخليت من المدنيين، وأحاطت بها وحدات الجيش الأحمر، وبالرغم من ذلك كان المسافرون يقدحون أفكارهم فتتفتق عن وسائل عجيبة للتسلل إلى العربات، ثم يتدافعون من الأبواب، ويتنقلون بين مقدمة القطار ومؤخرته، في جماعات.

وأخيرا لمح المسافرون يوري يعود وبرفقته خفير بسلاحه، وقد ضربت الشمس بأشعتها سطوح العربات والقضبان، وأضفت على بقع الزيت لونا أصفر، فامتدت الأيدي خارج العربة ترحب بعودته وتساعده على الصعود، فقدر يوري لهم شعورهم، وقال:

– شكرا... سأصعد إليكم.

وفي خفة الغزال قفز إلى العربة، وكان أول ما فعله أن عانق تونيا (انتونينا)، وفي لهفة قالت له:

– حمدا لله... انتهى الأمر بسلام، لقد كنا نشعر من أعماقنا بذلك.

– وهل كنتم على علم بما جرى؟

– كنا على علم بكل شيء خطوة خطوة!

– وكيف كان ذلك؟

– وهل كان في مقدورنا أن ننتظر، لولا أن أخبرنا الخفراء. لقد كدنا– أنا والوالد– نفقد صوابنا! أترى كيف راح في سباق عميق، ولا يمكن إيقاظه، فقد أرهقه الضيق. سأعرفك بمن جد من المسافرين، هل تعلم أن الجميع لا حديث لهم سواك، وهم يهنئونك؟!

وفجأة استدارت وعادت تقول لزوجها:

– هذا أحد المسافرين الجدد الذين حدثتك عنهم.

فقدم المسافر نفسه، قائلا:

– سامديفياتوف.

ذكر اسمه وهو يشق طريقه نحوهما، وقد رفع قبعته

ثم عاد يقول:

– هل أخذتك الرهبة وتملكك الخوف من سترلينكوف؟ قل الحق!

– كلا! فقد كان حديثنا وديا، أن شخصيته فذة وقوية!

– أغلب ظني أنه من موسكو، وليس من هذه الجهات.

وقطعت تونيا حديثهما حين قالت ليوري:

– ها هو ذا أنفيم أفيموفيتش، يقول أن لديه معلومات عنك وعن أبيك، كما يعرف جدي، بل يعرفنا جميعا.

ثم أردفت:

– أظن أنك تعرف أنتيبوفا أيضا... المعلمة!

فقال سامديفياتوف دون أن يعطي اهتماما لملاحظتها:

– ماذا تقصدين؟

على أن يوري لم يشترك في هذا الحديث، فاستطردت تونيا موجهة الكلام إلى زوجها:

– يوري... أرجو أن تعلم أن أنفيم أفيموفيتش بلشفي، ويجب أن تكون حذرا عندما تتحدث بقربه.

– لقد ظننت أنه مجرد فنان، ولم يدر ذلك بخلدي حقا!

***

لم تنقطع الحركة في المحطة، فكانت تقطر عربات، وتفصل أخر، والقطار ينقل من خط إلى آخر. والمدينة أمامهم تمتد على مدى البصر، يحجب الريف المنبسط بعض معالمها، ولكن سطوحها العالية كانت تظهر للعين، وكذلك أبراج الكنائس بصلبانها ومداخن المصانع، وقد لمح القوم إحدى الضواحي تحترق وقد امتدت ألسنة الدخان من عل.

وجلس يوري وسامديفياتوف على أرض العربة، وقد سرح سامديفياتوف ببصره، وجعل يوضح ليوري ما يرنانه، وكانت زمجرة القطار تطغى على صوته، فيضطر إلى الانحناء نحو أذن يوري، الذي يقاطعه هو الآخر:

– هذه دار سينما، أحرقوها، وقد كانت محتلة ببعض ضباط الاحتياط الذين استسلموا، ولكن القتال لا يزال دائرا... هل ترى تلك البقع القاتمة التي تعلو قبة الكنيسة؟. أنهم رجالنا يمطرون التشيكيين برصاصهم.

قال سامديفياتوف، وقد غابت عن ناظره ملامح المدينة المحترقة، والخزانات وعمد التلغراف، وطالعته مناظر التلال والإحراج:

– هيا بنا نعد إلى مقاعدنا، فبعد قليل سأغادر القطار، كما أن محطتكم بعد المحطة التالية، حاذر أن تفوتك.

– لعلك ملم بدقائق هذه المنطقة!

– كما أعرف كل شبر في بيتي، أن عملي كمحام يجعلني كثير التنقل.

– حتى الآن.

– نعم.

– وهل توجد أعمال في هذه الأيام؟

– صفقات قديمة لم تنته بعد، أعمال تجارية، مقاولات، عندي منها الكثير!

– ألم يقض النظام الجديد على هذه الأعمال؟

– اسميا لا فعليا، والناس يمارسون نشاطهم، وفي كثير من الأحيان بطريق المقايضة. أممت كل المؤسسات، ولكن مجلس السوفييت المحلي في حاجة إلى الوقود، والمجلس الاقتصادي يحتاج إلى ما ينقل عليه المؤن، وكل فرد يريد أن يعيش. أنها فترة انتقال، هناك فرق بين النظريات والتطبيق، وهذا الوقت يحتاج إلى كل ماهر، وبارك الله فيمن يغضي، أنني مازلت أذكر كلمة قالها والدي "لكل ضر

سبب" اسمع يا عزيزي.. أن أغلب أهالي المقاطعة يعتمدون على الماثل أمامك في معيشتهم.. قد أكون ذا فائدة لكم في فاريكينو، فإن صلتي بآل ميكوليتسين طيبة.

– أتدري لماذا نحن ذاهبون إلى هناك، وماذا سنفعل؟

– إلى حد ما... حنين الإنسان لمسقط رأسه، والأمل في الحياة بعرق الجبين.

– ألا يروق لك ذلك؟

– أمر يدل على السذاجة، أتمنى لكم الحظ والتوفيق.

– هل يمكنك أن تخبرني كيف سيستقبلنا ميكوليتسين، قوميسير المنطقة؟

– أسوأ استقبال! سيمنعكم من الدخول، بل سيطردكم ويلهب ظهوركم بالعصي، وهو في ذلك محق! فهو في محنة، والحالة كما ترى: مصانع مقفلة، عمال عاطلون، لا طعام ولا شراب، ثم تأتون. لئن قتلكم فلا يلام.

– هذا رأيك... أنك بلشفي، ومع ذلك تقرر أن ما يجرى الآن ليس حياة، بل أنه كابوس وجنون.

– لا شك أنه كذلك، ولكنه أمر محتوم مكتوب علينا، ويتحتم علينا نقبله.

– ولماذا تقول محتوم ومقدر؟ ألا يمكن تجنبه؟

– أتتكلم بلغة الأطفال، أم أنك تتظاهر بذلك؟ هل أنت قادم من المريخ؟ الرأسماليون الجشعون يقفون خلف صفوف العمال الخاوية بطونهم ويقذفون بهم إلى الموت! ولكن هل تظن أن الأمور ستبقى هكذا، دون أن تتطور إلى ما هو أشد سوءا، هل غاب عن ذهنك أن الشعب محق في غضبته ونزوعه للعدالة والمساواة؟ أم تظن أن تغييرا شاملا يمكن أن يحدث بالطرق البرلمانية؟

***

نزح ميكوليتسين من بطرسبرج، واستوطن هذا المكان منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما، وكان في ذلك الوقت طالبا في المعهد الصناعي، ثم أبعد ووضع تحت الرقابة. فلما حط رحاله، اشتغل مديرا لأملاك أحد أصحاب الضياع يدعى كروجر الذي كان له في ذلك الوقت أربع أخوات، اشتهرن بالجمال، مما جعل الشبان يتهافتون عليهن، وقد تزوج ميكوليتسين أكبرهن سنا.

وبعد فترة رزقا بولد، خلع عليه أبوه– لحبه للحرية– اسما غريبا. إذ سماه "ليبريوس" أو ليفكا، وقد شب مشربا بالشراسة، ولكنه ماهر في كل ما يفعله. كان في الخامسة عشرة عندما نشبت الحرب، فذهب إلى الجبهة متطوعا بعد أن زور شهادة ميلاده، ولقد ماتت أمه عند اندلاع الثورة إذ لم تحتمل تلك الصدمة.

ووضعت الحرب أوزارها، وعاد ليبريوس إلى داره "بطلا" برتبة ملازم، تزين صدره أوسمة ثلاثة، وطبيعي أنه تشرب بالبلشفية.

– هل سمعت عن "إخوان الغابة"؟"

– لا أظن.

– إذن لا داعي لسرد القصة، لماذا تحدق هكذا خارج النافذة؟ ماذا يدهشك في مناظر الطرق العامة؟ الأنصار... أنهم عصب جيش الثورة في هذه الحرب الأهلية، أن أهم ما تتسم به قوة هذا الجيش: التنظيم الذي استولى على زعامة الثورة، والجندي الذي رفض بعد الحرب الأخيرة إطاعة السلطات السابقة. ومن هذين العاملين ولد جيش الأنصار ومعظمهم من الفلاحين الرقيقي الحال ولكن كان معهم بعض الرهبان المجردين من كهنوتهم، وبعض الفوضويين، وأناس ليس لهم لون سياسي، وبعض الطلاب الذين فصلوا لسوء سلوكهم، وكذلك أسرى حرب من الألمان والنمساويين غرر بهم ووعدوا بالحرية والعودة إلى الأوطان. وإحدى

وحدات هذا الجيش المختلط تدعى "إخوان الغابة" وعلى رأسهم الرفيق ليبريوس بن أفيركي ستيبانوفيتش ميكوليتسين.

– هل تعني ما تقول؟

– تماما، دعني أتابع القصة. فقد ماتت زوجة أفيركي ستيبانوفيتش، فتزوج مرة ثانية... تزوج ايلينا بروكلوفنا، وكانت لا تزال طالبة، طيبة إلى درجة السذاجة. وكانت صغيرة السن، ورغم ذلك كانت تتظاهر بأنها أصغر مما هي. فتفعل مثلما تفعل الفتيات الصغيرات. وعندما تراك تبادرك بأسئلة غاية في الغرابة، وسترى كل ذلك بنفسك بعد لحظات. أما الرجل العجوز فله طباعه، وقد درس الهندسة البحرية، وهو يواظب على حلق ذقنه، وغليونه لا يفارق فمه، ولذا يتكلم من بين أسنانه، فكه الأسفل بارز بشكل ملحوظ، وهو بالإضافة إلى ذلك ثوري اشتراكي، انتخب نائبا عن المنطقة في الجمعية التأسيسية.

– إذن فالوالد والولد عدوان سياسيان!؟

– هما كذلك نظريا، ولكن في الواقع، الغابة لا تحارب فاريكينو... دعني أكمل القصة، أن الأخوات الثلاث الأخريات، أخوات زوجة ميكوليتسين الأولى، يعشن في يوريانتين حتى الآن– كلهن عوانس، وقد تغيرت الأيام، وتغيرت معها البنات كذلك. والآن حان الوقت لأتوقف عن الحديث، فقد اقتربنا... هذه محطتي، ومحطتكم هي التالية، وأفضل أن تستعدوا.

وقالت تونيا، بعد أن غادر سامديفياتوف القطار:

– أنني أشعر أنه رجل طيب، ولو أنني لا أدري ما رأيك فيه، لكني أرجح أنه سيكون طالع سعد في حياتنا.

– هذا جائز يا تونيا، ولكن ما يزعجني هو أن الجميع يعتقدون أنك حفيدة كروجر، المشهور، وقد سألني سترلينكوف عندما قلت له أن مقصدنا فاريكينو عما إذا كنا ورثة كروجر!

– ثم استطرد يوري يقول:

– لقد غادرنا موسكو وكنت أظن أننا سنكون في أمان، ولكن يظهر أن الشك يحوم حولنا، ولا أدري ماذا يمكن أن نعمله إزاء ذلك، كما أن الندم لا يجدي. وعلى العموم، خير لنا أن نتمسك بهدوئنا، وأن نظل كما نحن في المؤخرة... أنني لا أشعر باطمئنان، لقد اقتربنا، هيا نوقظ الآخرين ونستعد.

***

على رصيف محطة تورفيانايا، وقفت تونيا مع أفراد الأسرة وتملكها القلق، وقد ظل طنين العجلات الرتيب يرن في أذنيها، رغم أن القطار كان ساكنا لا يتحرك، فحال ذلك دون التفكير السليم.

وأخذ المسافرون يلوحون لها من القطار بإشارات الوداع، ولكنها، وقد سبحت بها الأفكار، لم تتنبه إليهم، بل أنها لم تشعر أن القطار قد تحرك إلا بعد أن وجدت أمامها السماء الزرقاء والحقول الخضراء.

وجلس أفراد أسرة زيفاجو على مقاعد المحطة وقد وضعوا حقائبهم على الأرض، وكانوا هم الوحيدين الذين نزلوا في هذه المحطة، وقد أدهشهم سكونها ونظافتها، إذ كانت على النقيض من المحطات الكبرى التي تزدحم بالأصوات الصاخبة ويعلو فيها الضجيج.

وتحيط بالمحطة غابة، كانت أشجارها تهتز حينما يخترقها قطار، فكانت ظلالها تتحرك في هدوء فوق وجوههم وأجسامهم، وفوق الأرض والجدران. وكان

الجو باردا، وزقزقة العصافير توحي بشعور غريب وهي تحلق فوق الغابة، شعور بالطهر ينبئ بالحياة الطبيعية الساذجة. ولم يكن في الغابة سوى طريقين: طريق السكة الحديدية، والطريق الريفي، وكلاهما تعلوه أغصان الأشجار.

وتجلى كل شيء فجأة أمام ناظري تونيا: جمال الطبيعة، أصوات العصافير وهي تغرد أغاريد لا يفهم معناها إلا خالقها، هدوء الغابات، السكون الشامل الذي لا يعكره ضجيج وصخب المدن.

ودار بذهنها أنهم لن يصلوا سالمين، وأن مسلك سترلينكوف ليس إلا مجرد تظاهر بالكرم، وأنه لن يلبث حتى يلاحقهم بإشارة برقية يأمر فيها باحتجازهم فور وصولهم، لأنها- في هذه الأيام خاصة- لا تثق بالعواطف النبيلة، وتعتقد أن الخداع ديدنهم.

وانبسطت أمامها مناظر الطبيعة الساحرة، فنسيت ما جال بذهنها ولم تلبث أن صاحت:

- ما أجملها!

ثم انفجرت تبكي.

وعلى صوت بكائها، تقدم نحوهم رجل مسن: لاح من سترته أنه ناظر المحطة، وسألهم في تأدب، بعد أن حياهم بلمس قبعته.

- يظهر أن أعصاب السيدة متعبة، فهل ترغب في مهدئ للأعصاب؟ أنه لدينا في الخزانة الطبية.

فقال الكسندروفيتش:

– شكرا. ستتحسن بعد لحظة، أن الأمر لا يدعو إلى القلق، لقد ائتمر عليها قلق الرحلة ومتاعبها، والحر القائط... وأحداث يوريانتين، فقد شاهدنا النار ونحن في القطار.

– هل أنتم من الروسيا الوسطى؟

– من صميمها!

– من موسكو إذن! وكيف تفقد السيدة أعصابها، وهم يقولون أن موسكو أضحت خرابا.

– أنهم يبالغون، على أننا رأينا الكثير. أنها ابنتي، وهذا زوجها، وهذا طفلهما الصغير، أما هذه فممرضته نيوشا.

– آه... هؤلاء أنتم إذن! كيف حالكم؟ يسرني أن أراكم، فقد اتصل ساماديفياتوف تليفونيا من ساكما، وأخبرني أن

– الدكتور زيفاجو صهري، وها هو ذا، أما أنا فاسمي الدكتور زيفاجو وأسرته في طريقهم إلى هنا من موسكو، وطلب مني أن أقدم أقصى ما يمكن من المساعدة.

جروميكو، أنني أستاذ في الزراعة.

– معذرة أن كنت قد أخطأت، تسرني رؤيتكم ويشرفني التعرف بكم.

– إذن فأنت صديق لسامديفياتوف؟

– من هنا من لا يعرفه؟ ذلك الكادح العجيب، أنك لا تتصور كيف تكون حالنا بدونه، كان الموت يدركنا ولا شك، لقد طلب إلي أن أقدم ما استطيع من

المساعدة، وطبعا أجبته بأن ذلك يسعدني. أرجو أن أعرف ما أنتم بحاجة إليه، هل تريدون حصانا؟ إلى أين تقصدون؟

– فاريكينو وجهتنا، هل هي بعيدة؟

– فاريكينو! أنني لأدهش بمن تذكرني ابنتك! هذا يفسر الأمر! إن كروجر الشيخ، والماثل أمامكم، بنينا هذه الطريق معا. سأبحث عن حصان، وسأدعو رجالي ليبحثوا عن عربة.

ثم خاطب أحد الرجال قائلا:

– دونات، خذ هذه الحقائب إلى حجرة الانتظار، ثم أسرع إلى المقصف وأعد ما يمكن لهؤلاء الضيوف الكرام. الحصان كان مربوطا هنا في الصباح، ألا يزال في مكانه؟ أخبرهم أن أربعة مسافرين إلى فاريكينو قد وصلوا لتوهم ومعهم بعض الحقائب الثقيلة... أسرع... أما أنت يا سيدتي، فأنصحك أن تكوني حذرة فيما تذكرينه عن نسبك. ومن الخطر أن تتحدثي طويلا مع الناس في هذه الأيام.

كان الجواد فرسا بيضاء وضعت منذ أمد قصير، أما السائق فعجوز مترهل الجسم، شعره أبيض مشعث، ولم يكن شعره فقط هو الأبيض، بل كان كذلك حذاؤه الجديد، وقميصه ولباسه قد استحالا إلى بياض لقدمهما.

وأخذ المهر، بلونه الأسود الفاحم، يتبختر وراء أمه بناصيته القصيرة، وهو يضرب الأرض بقوائمه الصغيرة.

واستند المسافرون إلى جدران العربة، وهي تقفز على طريق وعر وقد اطمأنت قلوبهم، إلى أنهم قاب قوسين أو أدنى من نهاية الرحلة، وأن حلمهم قد تحقق، وقد أخذت ساعات النهار تتهادى، لتطيل من صفاء النهار وبهائه.

وكانت العربة تخترق بعض الغابات أحيانا، وبعض الحقول أحيانا أخرى، فكانوا ينزعجون كلما اصطدمت عجلاتها بجذر بارز، فيتملكهم الخوف، ويلتصقون ببعضهم وهم يهمهمون، وكان يحدث لهم ذلك عندما يخترقون إحدى الغابات، أما في الحقول فكان يسودهم الهدوء والطمأنينة، وكأنهم في نزهة خلوية.

وكان للتلال التي تغمر المنطقة تعبيرها الخاص، وطابعها الفريد، إذ كانت ترتفع من بعيد، وكأنها أشباح تراقب، في صمت، مرور المسافرين، وتنشر في الحقول ضوءا ورديا يبعث الطمأنينة في النفوس، فيهدئ أعصابهم ويذكي الأمل في قلوبهم.

وفجأة استدار السائق وأخذ يحدق في عيني تونيا، وقال:

– هل تظنين أيتها السيدة الشابة أنني لم أعرف من أنت؟! أنك تكونين ساذجة أيتها الشابة لو دار بخلدك هذا! فلتسحقني اللعنة إذا لم أكن قد عرفتك!.. أنك صورة حية طبق الأصل لكروجر، كدت لا اصدق عيني! ألست حفيدته! ومن غيري يمكنه أن يتعرف على أحد من سلالة كروجر! لقد أفنيت زهرة شبابي وأنا أعمل عنده، في المناجم، وفي الغابات، وفي الإسطبلات.

وراح الشيخ يتدرج في الحديث، إلى أن ذكر لهم ما كانوا قد سمعوه من ساميديفياتوف عن عائلة ميكوليتسين، وكان يسميهم ميكوليتش وميكوليتشنا، فكان يقول أن ميكوليتشنا هي الزوجة الثانية للمدير، وأن الزوجة الأولى كانت من طراز الملائكة، ولا أبالغ، إن قلت، أنها كانت ملاكا حقا. وعندما تطرق به الحديث إلى قائد الأنصار ليبريوس، علم أن خبره وصيته لم يبلغا موسكو، وأنها– أي موسكو– لا تعلم شيئا عن إخوان الغابة، فلم يصدق ذلك، وقال متعجبا:

– كيف لم يسمعوا بالرفيق رجل الغابة! أيتها الملائكة.. أليس في موسكو آذان؟!

وأقبل المساء، فأخذت هواجسهم تتراقص أمامهم، وكانوا يسيرون وقتئذ في طريق منبسط، وتنتصب هنا وهناك، في مجموعات، جذوع طويلة وأعشاب ذات أزهار، كانت تبدو كالأشباح، وكأنها حرس لمراقبة السائرين.

ومن بعيد، كانت تلوح لهم سلسلة من التلال عبر الطريق، خلفها منحدر أو جدول، فبدا لأعينهم كأن الفضاء يقوم عليه حاجز، وأن الطريق يقود إلى بابه.

وعند قمة المنحدر، قام منزل ذو طابق واحد، فقال باخوس:

– هل ترون المنظر عند قمة التل؟ هناك يقيم ميكوليتش وميكوليتشنا، وتحت التل واد يدعى شوتما.

وانفجر صوت طلقين ناريين من التل، تردد صداهما.

فذعر المسافرون، وسألت تونيا في جزع:

– ما هذا؟ هل الأنصار يطلقون النار علينا أيها الجد؟

– اطمئني، ليس الأمر كذلك، أنه ميكوليتش يطارد الذئاب في الوادي.

كان منظرا مؤثرا، ابتدأ بالصمت ثم تدرج حتى أصبح ضجيجا صاخبا، عند لقائهم الأول مع آل ميكوليتسين في فناء بيت المدير.

وعادت أيلينا بروكلوفنا إلى البيت من نزهة في الغابة، تسير عبر الفناء، تلاحقها أشعة الشمس الذهبية، وترتدي ثوبا هفهافا، وراحت تجفف وجهها بمنديل صغير من شدة الحر، بينما تعلقت قبعتها وراء ظهرها بخيط رفيع حول عنقها العاجي.

وأقبل زوجها ليستقبلها عند المنحدر، وهو يحمل بندقيته وفي هذه اللحظة فاجأهم باخوس مندفعا بعربته، وقد صمت الآذان طرقعة العجلات فوق الأحجار، حاملا المفاجأة الكبرى.

وظهر المسافرون، وأخذ الكسندروفيتش يثرثر ويتمتم، وهو يرفع قبعته ثم يعود فيضعها فوق رأسه.

وعقدت الدهشة لسان المضيفين، فلم ينبسا بكلمة، كما شمل الاضطراب الضيوف، وارتسمت علائم الخجل على وجوههم، فكان الموقف أشد حرجا للجميع على السواء.

وقطع ميكوليتسين حبل ذلك الصمت الموحش، أخيرا، حين قال:

– أنني لا أفهم من الأمر شيئا، بل ليس عندي الاستعداد لكي أفهم، ماذا أرى؟! ماذا أتى بكم؟ وهل فكرتم في المسئولية التي ستقع على عاتق لافركي ستيبانوفيتش؟ لا تقاطعيني يا لينوتسكا.. هل تدبرتم الأمر وعرفتم مبلغ العبء الذي تلقونه علينا؟

– مهلا! لقد هولتم الأمر وأسأتم الظن، ليس في نيتنا أن نثقل عليكم، أو نعكر صفو هنائكم.. أمنيتنا متواضعة: حجرة في بناء قديم، وقطعة أرض بائرة، نزرع فيها شيئا من الخضر، وقليل من الحطب نجمعه من الغابة، هل ذلك عبء ثقيل؟

– أن العالم فسيح، لماذا وقع اختياركم علينا دون سوانا من عباد الله؟ ما لنا نحن وما تريدون؟؟!

– لأن أناسا أخبرونا عنك، ونرجو أن يكون قد وصل إلى علمك خبرنا، فلا نكون غرباء.

– أنكم تمتون بصلة القرابة إلى كروجر، وهذا ما حدا بكم إلى ذلك، ولكن هل هذا هو الوقت الملائم لما أقدمتم عليه؟

على أنه بعد فترة أخذ يخفف من حدة لهجته، وبدأ يلين، فقال:

– لا بأس، الفناء ليس مكانا لائقا للنقاش، يجدر بنا أن ندخل، وليس ذلك امتنانا مني عليكم، بل لأننا نرى شبحا من خلال الزجاج، لسنا وثنيين فنطردكم إلى الغابة حيث تفترسكم الدببة.

ثم وجه الكلام إلى لينوتسكا قائلا:

– لعل أفضل مكان لهم، أن نفرد لهم مؤقتا الحجرة الكبيرة التي بجوار المكتب، ونرى فيما بعد ما إذا كان في الإمكان أن يستقروا. تفضلوا الآن بالدخول.. أحمل حقائبهم يا باخوس.. وبعد ذلك أفضل أن ندبر لهم مكانا في الحديقة.

وأخذ باخوس ينقل الحقائب، وهو يتمتم:

– يا إله السماء! أن حقائبهم قليلة بقدر ما هي صغيرة.

الفصل التاسع

فاريكينو

حل الشتاء، ووجد يوري أندريفتش فسحة من الوقت. فأخذ يكتب مذكراته، وعندما اقترب الربيع، كتب الطبيب:

"لقد أخبرت تونيا أنها حامل، أني أعتقد ذلك، بل متأكد، ولكنها لم تصدقني. فمن مهنتي وتجاربي عرفت ظواهر الحالة، فإن وجه المرأة يتغير، بحيث لا يمكنها التحكم فيه، لأنها تتأثر بالمستقبل الذي ينتظرها، فهي تفقد سيطرتها على مظهر جسدها، فيبدو في حالة انهيار، ويخبو وجهها، بينما تقل نعومة بشرتها، وتلمع عيناها ببريق لا ينم عما تكنه، وبالجملة تصبح في حالة عجز إلى حد إهمال نفسها.

"إننا نقتل الوقت في قراءة القصائد... وصل سامديفياتوف أمس، ومعه كثير من الهدايا: أطعمة شهية، وغاز للمصابيح، وقد تحدثنا طويلا في مختلف الفنون.

"وكنت دائما أعتقد أن الفن ليس شيئا مقولا، وليس عالما غامضا، بل على النقيض، شيء محدود، ومبدأ موجود، نلمسه في كل أثر فني، وأنه قوة وحقيقة، أنني لم أر الفن كشكل، بل كشيء خفي من المضمون، أنني أفهم ذلك بوضوح، بل أحسه بجميع مشاعري، ولكن من الصعب التعبير عن الفكرة.

"إن الأثر الأدبي يجتذبنا بوسائل شتى، بموضوعه، وفكرته، وأجوائه، وأشخاصه، ولكنه قبل كل ذلك يؤثر فينا لوجود الفن فيه. أن الفن دون غيره في "الجريمة والعقاب" هو الذي يطبع فينا أعمق الأثر، وليست قصة الجريمة.

"أن الفن البدائي، سواء المصري أو الإغريقي، أو فننا نحن، واحد على ما اعتقد خلال الأجيال الطويلة، وفي مقدورك أن تعتبره فكرة أو رأيا في الحياة، شاملا، بحيث أن أية ذرة منه في أي أثر، تفوق كل شيء شأنا، وتكون هي جوهر الأثر بل قلبه النابض.

"بماذا أشعر؟! سعال، برودة، وفي أحيان أخرى حرارة، لا ينقطع تنفسي طول النهار، وكأن عاتقا في مخرج التنفس... أنني في حال يرثى لها... لعل هذه أولى الظواهر التي تدل على أنني ورثت الداء عن أمي– لقد عانته المسكينة طول حياتها، فهل حقا ما أنا فيه؟ وهل بهذه السرعة؟ أن أجلي لقريب وبقائي في هذه الدنيا لن يطول إن كان الأمر كذلك.

"أن تونيا تكوي الثياب، وتضع فحما في المكواة، لذلك أتنسم رائحة فحم، إن ذلك يذكرني بأمر لا أذكره، ولعل هذا بسبب حالتي الصحية.

"سأبادر إلى مكتبة المدينة، عندما تتحسن صحتي، لأقرأ ما سطر عن تاريخ المنطقة وسكانها، علمت أنها تضم مجموعة ثمينة من الكتب، وهناك أجد ما يحفزني على الكتابة. لن يلبث الربيع أن يأتي، فلأسرع، وإلا فلن أجد متسعا من الوقت لما تصبو إليه نفسي.

"أحس بآلام الصداع تشتد يوما بعد يوم، ولم أصب قسطا من النوم، مر بي حلم باهت لا أذكره، إلا ما أيقظني منه.. لقد سمعت صوت امرأة يتردد في الهواء، ظللت أقدح الذهن كي أتذكر صاحبته، ورحت استعرض جميع من عرفتهن من نساء، عسى أن أتبين من هي صاحبة هذا الصوت الناعم، العميق، فلم أوافق. ظننته صوت تونيا، وأنني لشدة الألفة لا أتبينه، وحاولت أن أبعد عن ذهني أنها زوجتي، وأنه لا تربطني بها صلة، لكي أعرف جلية الأمر، ولكن الصوت لم يكن صوتها، كان صوتا غامضا. ولقد درج الناس– فيما يتعلق بالأحلام– على أن الإنسان يحلم

بما يؤثر فيه تأثيرا قويا أثناء النهار، ولكن يبدو أن الأمر على النقيض، فكثيرا ما يحلم الإنسان بأمور لم يعرها أي اهتمام، بل لم يفكر فيها. فتأتي في شكل حلم في المنام، كأنما هي تريد أن تعوض نفسها عن نصيبها من الإهمال في اليقظة.

"أقبل الربيع بأزهاره ورياحينه، لشد ما يسعدني أن أكتب، ولكن عمر الربيع قصير، وإذن لا مفر من الانتظار حتى الشتاء.

"وحضر لي– على زحافة– فلاح مريض ودلف إلى ساحة الدار غير عابئ بالوحل المختلط بالجليد، ولا بالمطر المنهمر، يقصد أن أفحصه، فرفضت، بحجة أنني لم أعد أمارس الطب، وذكرت له أن له دواء عندي ولا أدوات طبية. وأذهلني أن أراه يلح، قائلا:

– لا أطيق لمس جسدي من شدة الألم، رفقا بي، فإنني مريض.

"وماذا يمكن أن أفعل إزاء تضرعه واستعطافه!؟ هل أنا بشر بلا قلب؟ ولم أتمالك أن طلبت إليه أن يخلع ثيابه، ثم فحصته. ويا له من تعس، فقد كانت علته داء الرئة. وبينما أنا مستغرق في فحصه، حانت مني التفاتة عن غير قصد إلى زجاجة دواء فوق النافذة، من أين جاءت؟! لقد حملها إلينا سامديفياتوف ضمن ما حمل من الهدايا، ولعله أتى بها لعلمه بأنها من الحاجيات التي لا استغنى عنها.

"وفجأة– ودون سابق إخطار أو إنذار– دلفت زحافة أخرى إلى ساحة الدار، وظننته مريضا آخر في طريقه إلي، ولكن الدهشة أخذتني عندما تبينت أن القادم أخي أيفكراف، هبط علينا من السماء، لا ندري كيف جاء! والتفت حوله العائلة ترحب به، ويسأله كل فرد كيف جاء؟! ومن أين جاء؟ ولكنه، على عادته، يتجاهل استفساراتهم ويتهرب من الرد عليها، ويكتفي بالابتسام، وهز كتفيه، وإن تكلم، فكلمات أقرب من الألغاز.

"ورحل إلى يوكاتين، بعد أن قضى بيننا نحو أسبوعين، ثم انقطعت أخباره، كأنه رحل إلى القمر. ومن عجب أنني لاحظت أنه يتمتع بنفوذ أقوى من سامديفياتوف، وأن حركاته وأعماله يكتنفها الغموض، فتساءلت:

– ماذا هو الآن؟ وما هي طبيعة عمله؟ وما سر هذا النفوذ الذي يتمتع به؟

"وكان قد وعدنا بأن يمهد لنا سبيل حياة أوفر رغدا، كي يتيح لتونيا قسطا أكبر للعناية بساشنكا، ويتيح لي مجالا أوسع لممارسة الطب والكتابة، ولما أردنا أن نعرف منه كنه معاونته، اكتفى بالابتسام، ولكن الدلائل كانت تشير إلى أنه سيبر بوعده، وأن أحوال معيشتنا ستتحسن.

"ما أغرب هذا الأمر! فهو أخي من أبي فقط. ونحمل نفس الاسم، ومع ذلك أجهل عنه كل شيء!

"هذه هي المرة الثانية، التي يدخل حياتي فيها كطالع سعد، لينقذني مما يلم بي، ولعلها قوة خفية، تظهر في شكل إنسان، لنجدة الغير من غير دعوة أو استغاثة، وأغلب الظن أن أخي يقوم بدور الكريم المبهم".

ووقف يوري عند هذا الحد في كتابة مذكراته، فلم يستأنف كتابتها بعد ذلك.

***

توجه يوري إلى المكتبة، واتخذ مكانه في غرفة القراءة، وانتقى بعض الكتب وأخذ يتصفحها. وتتسع الغرفة لعدد كبير من القراء ولها عدة نوافذ، وقد وضعت المكاتب في صفوف تنتهي عند النوافذ.

وكان المعتاد أن تغلق المكتبة أبوابها عند الغروب. وكانت بلدة يوريانتين، التي فيها المكتبة، لا تضاء في الربيع، ولذا كان زيفاجو يغادر المكتبة قبيل هبوط

الظلام، فيأخذ الجواد الذي حصل عليه من ميكوليتسين، والذي كان يتركه في إسطبل سامديفياتوف، ثم يقفل عائدا إلى فاريكينو في المساء.

ولم يكن يوري قد زار يوريانتين، إذ لم يكن له فيها مصالح خاصة، فكان لا يعرف شيئا عنها. أما وقد طالع أهل البلدة وهم يتوافدون على المكتبة، ويأخذون مجالسهم في الغرفة التي يجلس فيها، فقد شعر بأن معالم البلدة ليست غريبة عليه، وأنه بدأ يتعرف إليها.

وبنظرة من النوافذ، كان في وسع المرء أن يرى صورة حقيقية ليوريانتين. ففي مواجهة إحدى النوافذ يوجد وعاء مليء بالماء، كما كان جمهور المطالعين يهبطون، في فترة الاستراحة، إلى البهو، للشرب أو للتدخين، ثم يسرحون بأبصارهم لاستجلاء مناظر البلدة.

ورواد المكتبة نوعان: الأول وهو الغالبية من الشيوخ المفكرين، وأما الثاني فهو من الذين اتخذوا القراءة هواية للاستزادة من معلوماتهم. ومعظم النوع الأول كان من النساء، وكن يرتدين الملابس القديمة، وقد انتفخت وجوههن بسبب الجوع، أو الترهل، وكن من رواد المكتبة المواظبين، ولذا كن يعرفن موظفيها، وبسبب مثابرتهن على الحضور كن يشعرن بأنهن في منازلهن.

أما ما عدا أولئك من الرواد، فكانوا من ذوي الأناقة في ملابسهم، يلجون المكتبة في تأدب وحياء، وكأنهم يدخلون بيتا من بيوت الله، وكانت لهم أصوات رتيبة في القراءة، تطغى على من عداهم.

ويجلس مدير المكتبة ومساعداه على مكتب يطل، خلال فجوة بالحائط، على النافذة، ويفصل بينه وبين الغرفة حاجز مرتفع. وأحد المساعدين امرأة تميز وجهها بالعبوس، لا تنفك تضع منظارها على عينيها ثم ترفعه، في حركة لاشعورية.

وترتدي المساعدة الأخرى قميصا أسود اللون، تبدو وكأنها ذات صدر ضعيف، إذ كان تتنفس في إجهاد، وتتكلم من خلال منديل لا يفارق فمها.

وكانت وجوه الثلاثة تشبه بعضها البعض من حيث الطول والترهل، شأنهم في ذلك شأن معظم الرواد، وقد اصطبغ جلدهم ذو الثنيات باللون الأزرق، فاضحي بلون التراب الرمادي. وكان الثلاثة يتناقشون في همس مع الجدد من الرواد في شرح القوانين، والأنظمة وتفسيرها. ويوزعون بطاقات طلب الكتب، ثم يقومون بإعطاء الكتب لطلابها ويستردونها، وهم يتناوبون هذا العمل فيما بينهم، وفي أثناء ذلك كانوا ينشغلون في تحرير التقارير.

وعاد يوري بمخيلته إلى الوراء، يتخيل منظر المدينة، عندما جلس سامديفياتوف إلى جواره على أرض العربة في القطار، كما تذكر ملاحظاته في هذا الشأن. وارتسمت في مخيلته هذه المناظر والخواطر، وهو يرى الآن المدينة على حقيقتها من خلال النافذة، كما رآها داخل الغرفة. ولفت نظره أن وجوه الجميع متورمة، كأنما هم جميعا مصابون بداء واحد، فتذكر لتوه وجه المرأة العبوس التي كانت تتولى أعمال التليفون في المحطة، غداة وصوله. وحاول أن يربط بين ما سمعه وبين ما يراه.

وجلس يوري في مكان قصي في آخر الغرفة، وقد بسط أمامه إحصاءات عدة عن أراضي تلك المنطقة، كما كان أمامه كثير من المراجع عن أصل سكانها ونشأتهم. وطلب مزيدا من المراجع عن تاريخ بعض الثورات، ولكن المساعدة ذات القميص الأسود، التي تتكلم من خلال منديلها، أفهمته أنه لا يحق له الحصول على عدد آخر من المراجع، وأن عليه أن يعيد بعض ما لديه إذا أراد استعارة غيرها.

إزاء ذلك، عكف يوري على ما أمامه، وأخذ يستوعبها في جد وعجلة، كي يحتفظ لديه بما هو في حاجة إليه، ويستبدل بالباقي المجلدات التاريخية التي

تهمه. وحصر جميع أفكاره في ذلك، فلم يلتفت يمنة أو يسرة، ولم يشعر بمن حوله من القراء، كأنه وحيد في الغرفة وليس فيها أحد سواه.

وتحركت الشمس وانتقلت من الزاوية الشرقية للغرفة، وأخذت ترسل أشعتها فتلقى بها على وجه قارئ قريب. ونهضت المساعدة التي لا يفارق المنديل فمها، وأخذت تسدل الستائر البيضاء على النوافذ، لتحد من شدة الضوء، وتركت النافذة الأخيرة، إذ كانت لا تزال في الظل، وعندما اقتربت من يوري، لتنشر الستار، فاجأتها نوبة من السعال. وبعد عشر عطسات أو أكثرن أدرك يوري أنها شقيقة زوجة ميكوليتسين، وأنها إحدى فتيات تونتسيفا اللواتي جاء ذكرهن على لسان سامديفياتوف، ورأى نفسه، كما فعل سائر القراء، يرفع رأسه وينظر إليها.

وأدهشه أن يلاحظ تغييرا في الغرفة، إذ جلست قارئة جديدة في الطرف الآخر منها، وأذهله أن يعرف فيها لتوه انتيبوفا، رغم أنها كانت تجلس وظهرها إليه، وقد استغرقت في حديث مع المساعدة المريضة، التي انحنت فوقها. ولاحظ من ملامح الموظفة، أن الحديث ترك أثرا حسنا في نفسها، إذ فارقتها نوبة السعال، وبدأ عليها الهدوء، بعد ما انتابها من توتر عصبي، فما كان منها إلا أن ألقت نظرة امتنان حانية إلى أنتيبوفا، ثم رفعت المنديل عن فمها ودسته في جيبها، وعادت إلى مقعدها، وقد لفتها الفرحة، وارتسمت على وجهها ابتسامة.

ولاحظ القراء ما حدث، فابتسموا، وقد أخذوا ينظرون إلى انتيبوفا بعين الرضا والامتنان، فتبين ليروي أن انتيبوفا تحظى بقسط وافر من المحبة من الجميع.

وقفز إلى ذهنه خاطر، هو أن يذهب إليها ويحدثها، إلا أن حياءه، وكان قد تسلل فيما مضى إلى علاقته بها، منعه من تنفيذ ما جال بخاطره، ففضل ألا يزعجها وأن يستمر في قراءته. وأدار كرسيه كي يتحاشى النظر إليها، وأمسك كتابا وراح يحاول القراءة.

ومع ذلك حانت منه التفاتة إليها فرآها ترتدي قميصا شفافا مزركشا بخطوط متعارضة، يحيط خصرها حزام، وقد انهمكت في القراءة بشغف، وقد مال رأسها قليلا إلى كتفها، كما كانت تتوقف عن القراءة بين الحين والحين، تتأمل وتفكر، تارة ترفع بصرها نحو السقف، وتارة تنظر أمامها إلى الأفق البعيد، ثم تعود إلى نفسها، فتسند خدها إلى يدها، وتدون في مفكرتها مقتطفات مما تقرأ بحركة خاطفة.

ولاحظ يوري ما سبق أن عهده فيها، أنها لا تسعى إلى الحصول على إعجاب أحد، أو أن تبدو جميلة، وقال لنفسه:

– أنها تكره هذه الحوافز في طبيعة المرأة، وكأنما تريد أن تنتقم من نفسها لأنها جميلة، ولكن هذا التصرف من جانبها، يجعلها أكثر فتنة وأشد فتكا. أنها ساحرة في كل شيء، في جمالها، وحسن هندامها، في حركاتها وسكناتها، حتى في قراءتها، فهي تقرأ في سلاسة وبساطة، كما لو كانت تأخذ ماء من بئر، أو تقشر بطاطس.

وكانت هذه الخواطر بمثابة البلسم لدى يوري، فهدأت من روعه، وأشاعت الطمأنينة في نفسه، وزايله شرود الذهن، ولم يتمالك نفسه من الابتسام، أن ظهور انتيبوفا في محيطه ترك أثرا في نفسه، كما أثرت فيه المساعدة المريضة.

وإذ هدأت أعصابه، وشمله صفاء الذهن، استأنف القراءة فترة طويلة من الوقت، كان فيها أكثر انكبابا منه قبل مجيئها، فقد استوعب كل ما أمامه من المراجع، فوضع جانبا ما هو بحاجة إليه، وقد ساعده صفاء الذهن أن يطالع بإمعان أكثر من مقال.

ورأى أن ما قرأه في يومه فيه الكفاية، فجمع الكتب وأعادها، وخطر له بعد ذلك الجهد أن يمنح نفسه فسحة من الوقت، يزور فيها صديقا قديما. وما أن عقد

العزم على ذلك، حتى نهض وأجال نظره في الغرفة، ورأى أن انتيبوفا قد غادرت مكانها ورحلت.

وألقى نظرة على الكتب التي كانت معها، فوجدها عن الماركسية. ففهم أنها تريد مضاعفة ثقافتها ومعلوماتها، لكي تتمكن من أن تعود لمزاولة عملها السابق، وهو التدريس.

ولمح عنوان انتيبوفا على قائمة الطلب، وقد ظهرت بين صحائف الكتب وبحركة لاشعورية حفظ العنوان، وأدهشه أن يجده "شارع التجار أمام منزل التماثيل". واستفهم من أحد الرواد عن ذلك فأجابه:

– منزل التماثيل اصطلاح متداول في يوريانتين، مثلما هي الحال في موسكو، فيسمى شارع باسم مبنى هام قائم في الشارع.

ومنزل التماثيل، يشير إلى منزل رمادي اللون، تزينه تماثيل آلهة أغريقية، وربات الشعر الحاملات قيثارات وأقنعة شيده أحد التجار في القرن الماضي، وجعله مسرحا للتمثيل خاصا به. وبعد أن مات، باعه ورثته، وأصبح الحي كله يعرف باسم هذا المنزل، الذي صار الآن مقرا للجنة الحزب في المدينة، تلصق على جدران الدور الأول منه الآن البلاغات والمراسيم، بعد أن كانت تعرض عليها فيما مضى برامج الحفلات، والإعلان عنها.

***

كان يوما من أيام الشتاء العاصفة الباردة، وفرغ يوري من أعماله، وهم بالتوجه إلى المكتبة، ولكنه، فجأة، عدل عن رأيه، واستقر على أن يزور انتيبوفا، التي حصل على عنوانها من بطاقة الطلب في المكتبة.

وأخذ طريقه، يغالب الريح والريح تدفعه، وقد أثارت الغبار حوله من كل جانب، فكان يضطر إلى أن يغمض عينيه، ويتوقف عن السير حتى تخف حدة الريح والغبار، ثم يتابع السير.

ويقع منزل أنتيبوفا على ناصية شارع التجار، في مواجهة منزل التماثيل ذي اللون الرمادي الداكن، والذي يقع عليه نظره للمرة الأولى، وقد لاحظ أنه يطابق مسماه.

وأدهشه أن يجد الطابق العلوي محاطا بتماثيل نسائية، في نصف حجم الإنسان الطبيعي، تمثل قصصا من قصص الأساطير. وخيل إليه، من خلال الغبار المنتشر، أن هذه التماثيل نسوة خرجن من المنزل ورحن ينظرن إليه في فضول.

وكان للمنزل بابان، أحدهما يقع في شارع التجار، أما الباب الآخر فكان في زقاق خلفي ضيق، ولم يلاحظ يوري الباب الرئيسي الأول، فدلف من الباب الثاني.

وفي اللحظة التي وقف فيها أمام الباب، هبت عاصفة هوجاء، أطاحت بالقاذورات في الفضاء، فحجبت الفناء عن عيني يوري، كما أثارت العاصفة الدجاج، فأخذ يطارد بعضه، ويصيح، ويجري بجانبه.

وأخيرا، هدأت العاصفة، استقر الغبار على الأرض، فلمح الطبيب أنتيبوفا عند البئر، حيث كانت قد ملأت دلوين، علقتهما فوق كتفها. وقد ربطت شعرها بشال عقدته من الأمام، لتتقي الغبار، وقد ضمت ساقيها على ثوبها الذي تعصف به الريح. ويممت شطر البيت، ولكن عاصفة أخرى اعترضتها، وانتزعت الشال عن رأسها، وأطاحت به بعيدا إلى نهاية سياج الفناء، حيث كانت الدجاجات تصخب في صياحها.

ورأى يوري ما حدث، فأسرع إلى الشال، وعاد به إليها وكانت لا تزال بجوار البئر. ورغم المفاجأة، التي لم تكن تتوقعها، فقد احتفظت أنتيبوفا برزانتها–كما هي

عادتها– وحرصت على ألا يبدو منها أنها فوجئت، وكل ما فعلته أنها قالت في بساطة:

– زيفاجو!

– لارا!

– ماذا تفعل هنا بحق السماء؟

– دعيني أحمل عنك هذين الدلوين.

– ليس من عادتي أن أتسكع في الطرقات، أو أن أترك عملا دون أن أتمه. إذا كان حضورك من أجلي، هيا بنا... ندخل!

– دعيني أولا احمل عنك الدلوين، فمن العار أن أقف هكذا وأنت تحملينهما.

– وهل ترى في ذلك مشقة علي؟ دعهما، حتى لا يسقط الماء على السلالم، خبرني أولا، أنني أعلم أنك هنا منذ أكثر من عام، ألم يكن لديك، ولو دقيقة واحدة طول هذه المدة، تحضر فيها لتراني، حتى الآن؟!

– كيف وصل ذلك إلى علمك؟

– الأخبار كالهواء تنتشر بسرعة، كما أنني لمحتك في المكتبة.

– ولماذا لم تحدثيني؟

– وهل لم ترني بدورك؟

ثم تقدمته في السير نحو المدخل، وهي تنوء بما تحمله، فوقفت، ووضعت الدلوين على الأرض، ثم جففت يديها من أثر الماء، وقالت:

– اتبعني، سنسير إلى البهو الأمامي عبر الممر الداخلي، فإنه أوفر ضوءا. وتنتظرني هناك برهة، إلى أن أصعد بالدلوين من السلم الخلفي، وأبدل ثيابي... لا تقلق، فلن يطول غيابي... انظر إلى سلمنا العجيب... درجات حديدية مكشوفة، ترى منها كل شيء. لا شك أن المنزل قديم، بل عريق في القدم، وقد أضعفت المدافع بنيانه، وتلاحظ ذلك من تقلقل بعض الأحجار عن مكانها، هل ترى هذه الفجوة التي في الإطار؟ فيها نضع أنا وكاتنكا مفتاح المسكن حينما تخرج.

ثم نظرت إليه واسترسلت تقول:

– تذكر، لا تنس، فقد تأتي يوما أكون فيه خارج البيت، هاك مكان المفتاح، تلتقطه، وتفتح الباب، كأنك في بيتك، وتنتظرني حتى أعود. هذا هو المفتاح، وطبعا لست في حاجة إليه الآن، سأدخل من الخلف، وأفتح الباب من الداخل. على أن ما يزعجني ويثيرني كثرة الفئران، ومن المستحيل التخلص منها، والسبب في ذلك كثرة الشقوق التي تتخلل الجدران القديمة، أنني الجأ إلى سد ما استطيع منها، ومع ذلك ذهبت جهودي عبثا، وقد تساعدني يوما... والآن انتظر في هذا البهو، واشغل نفسك بالتفكير فيما يروق لك، وكما ذكرت لن أتأخر كثيرا، سأعود بعد برهة.

وشغل نفسه بالتطلع إلى الجدران، وقد زال عنها طلاؤها وإلى درجات السلم الحديدية، وقال يحدث نفسه:

– جال بخاطري في غرفة المطالعة بالمكتبة أنها كانت مستغرقة في القراءة بالحماسة نفسها التي تبذلها في أي أمر صعب. وهذا صحيح، فهي تحمل الماء من البئر بنفس السهولة والخفة اللتين تقرأ بهما، وهي تتسم باللباقة والظرف في حركاتها وسكناتها، وكأنها سبقت عمرها في كل ما تفعله، وقد رتبت حياتها وفق نظام خاص، بسهولة وبغير تكلف، تلاحظ ذلك في حركتها، وفي ابتسامتها، وقد انفرجت عنها شفتاها، كما تلاحظ ذلك في حديثها وأفكارها.

وقطع عليه حبل أفكاره صوتها وهي تناديه من عل:

– زيفاجو!

فأخذ يرتقي درجات السلم صاعدا إليها.

***

قالت أنتيبوفا:

– ستضطر إلى اجتياز غرفتين حالكتي الظلام، وقد تكدس فيهما الأثاث، أخشى أن تصطدم بشيء ويصيبك أذى، ناولني يدك، واتبع ما أشير به.

– حقا أنه ممر معقد، وما كان في مقدوري أن أتلمس طريقي، لماذا هو هكذا؟ أليس هناك من يعمل على ترميم المسكن؟

– كلا. لأنه يخص أحدهم، لا أعرف من هو. أن لي مسكنا خاصا بمبنى المدرسة. وعندما استولت إدارة السكن المحلية على ذلك المبنى، منحت أنا وكاتنكا جزءا من هذا المنزل، إذ رحل جميع سكانه وتركوا أثاثهم، ويوجد منه الكثير، ولكني أربأ بنفسي أن أطمع فيما ليس لي، لذا جمعته في هاتين الغرفتين، وطليت زجاج النوافذ بالجير، حتى أرد عنه أشعة الشمس.. يوري.. لا تترك يدي لئلا تضل الطريق.. لقد وصلنا، هيا إلى اليمين، الآن خرجنا من المجاهل، هذا بابي، وستنقشع الظلمة بعد قليل، ولكن حاذر.. أمامك درجة.

وفيما هو يتبعها إلى داخل الغرفة، أطل من النافذة على الفناء فدهشته المناظر التي وقع عليها نظره، ساحات واسعة خالية قريبة من النهر، وسطوح منازل قليلة الارتفاع، وكانت الأغنام والماعز ترعى، وجلودها ذوات الصوف الطويل الذي يتدلى حتى يلامس الأرض، كما لمح لافتة كتب عليها: "مورو وفتشنكن. آلات زراعية".

وكان الطبيب قد مر بها غداة وصوله من موسكو، فتذكرها لتوه، وشرع يصفها للارا. وغاب عن ذهنه ما أشيع من أن سترلينكوف كان زوجها، فراح يحدثها عن لقائه بالقوميسير في القطار، وقد أثر فيها ذلك تأثيرا عميقا، وسألته بلهفة:

– هل التقيت حقا بسترلينكوف؟ لن أخبرك الآن، ولكنه أمر غريب، لعله قدر لك أن تلتقي به، سأخبرك بدقائق الموضوع يوما ما، وستأخذك الدهشة، وإذا صدق ظني، فقد تترك في نفسك أثرا طيبا.

– نعم، بصفة عامة، وكان المفروض أن يثير تقززي. لقد مررنا بالمنطقة التي حل فيها الموت والدمار، وكنت أتوقع أن التقي بجندي فظ، أو ثوري عديم الرحمة، ولكنه لم يكن هذا ولا ذاك. أنه جميل حقا أن يكون الشخص خلاف ما يتخيله الإنسان، وهذا دليل على أنه ليس من طراز معين معروف به، وعلى العموم لقد سما فوق ذاته، وأن فيه شيئا من العظمة والخلود.

– يقولون أنه ليس عضوا في الحزب.

– أعتقد أن هذا صحيح. ماذا يحبب الناس فيه؟ أنه رجل لا شك هالك، وأعتقد أن نهايته مؤلمة، وأنه سيدفع جزاء ما اقترف من آثام. أن الثوار المتمردين، لا يثيرون الرعب لأنهم مجرمون سليقة وطبعا، بل لأنهم مسيرون كالآلات التي لا ضابط لها أو التي أفلت زمامها. أن سترلينكوف أحمق كغيره، ولكن حمقه ليس وليد نظريات، بل مما عاناه من آلام. أن سره مغلق، ولكني واثق بأن لديه سرا. أما انحيازه نحو البلشفيك، وتحالفه معهم، فأمران عرضيان، وهم يتحملونه طالما هم بحاجة إليه، فطريقهم الآن واحدة، وعندما يكونون في غير حاجة إليه، سيلفظونه غير مبالين أو آسفين، بل سيسحقونه كما فعلوا مع غيره من الخبراء العسكريين.

– هل تعتقد ذلك؟

– أنني واثق كل الثقة.

– أليس في استطاعته أن يهرب، فينجو بنفسه؟

– أين المفر وإلى أين يذهب؟ لقد كان في مقدوره أن يهرب في سالف الأيام، أيام نفوذ القياصرة، ولكن هيهات له ذلك في أيامنا هذه يا لارا!

– أنني آسفة، لقد جعلتني أرثى له، يوري... أراك قد تغيرت، فقد كنت فيما مضى تتحدث عن الثورة بلهجة أكثر هدوءا واتزانا... لم تكن تقسو في حديثك عنها.

– هذا هو لب الأمر وجوهره... يا لارا... هناك حدود ومعايير لكل أمر. لقد كان من الواجب أن يتم شيء محدد في هذا الوقت. ولكننا نرى أن الذين أوحوا بالثورة ليسوا على قدر كاف من الحنكة والدراية، وأن جل همهم كان تغيير الحال وإثارة القلاقل. وأن يكون ذلك عل نطاق واسع. أما فترات الانتقال، والتكوين من جديد، فهي عندهم غاية في حد ذاتها، وهم ليسوا مدربين على شيء ولا يعرفون شيئا، هل تعلمين لماذا لا تنتهي هذه الاستعدادات؟ أنه أمر لا جدوى منه ولا طائل من ورائه، لأنهم مفتقرون إلى المقدرة الحقة، وهم يشكون العجز والقصور. لقد خلق الإنسان ليحيا لا ليهيئ أسباب الحياة. أن الحياة في حد ذاتها، هبة الحياة، أمر من الضخامة بحيث يأخذ بمجامع القلب! فلماذا نستبدل بها هذه المهازل وهذه المغامرات؟! أظن في ذلك الكفاية الآن، ودعيني أوجه إليك بعض الأسئلة:

لقد وصلنا صبيحة يوم الاضطرابات، فهل أصابك شيء منها؟

– وهل في ذلك شك؟! حاصرتنا النيران من جميع الجوانب، والذي يبعث على الدهشة حقا– رغم ذلك– أن المنزل لم يحترق، لقد تزلزلت أركانه وكاد يسقط، وتوجد بالفناء قنبلة، حتى الآن، لم تنفجر. لقد حلت بنا الكوارث، من سلب، ونهب، وتشريد، وناهيك بطلقات البنادق، وقصف المدافع، وهذه حال لابد منها عندما يتغير نظام الحكم في أي بلد من البلاد. ولقد تعودنا تلك الحال،

فلم تكن هذه هي المرة الأولى. أن الحياة في كنف الروس البيض لم تكن أفضل حالا، فقد كان القتل، والسلب، واغتصاب المال، هي وسائل تسوية الخلافات. يا لها من فوضى، ولكن ألم يبلغك ذلك الخبر المثير؟! أتدري ما آل إليه أمر جاليولين؟! لقد انضم إلى التشيكيين، وأصبح حاكما عاما أو ما يشبه ذلك!

– وصل ذلك إلى علمي، هل التقيت به؟

– أكثر من مرة، وقد عاونني معاونة صادقة على إنقاذ نفوس عديدة، لقد سلك سلوكا نبيلا، ولم يتشبه بهؤلاء الأفاكين– ضباط القوزاق، رجال البوليس، على أنه مما يؤسف له أن هؤلاء هم الذين يسيرون الأمور. أنني أقدر لجاليولين أفضاله، ليحفظه الله، أننا صديقان قديمان، كما تعلم، فكثيرا ما كنت أتردد على المنزل الذي نشأ فيه وأنا طفلة، وكان أغلب سكانه من العمال. لقد عانيت الفقرة في صغري، ولذلك فإن نظرتي إلى الثورة تختلف عن نظرتك إليها، أنني ألم بالكثير من دقائقها. ولكن الذي أغلق على فهمه، أن يصبح جاليولين– ابن البواب– ضابطا كبيرا، هذا ما يدهشني ولا أكاد أصدقه. ليس بين أفراد أسرتي جنود، لذلك فإن معلوماتي عن الرتب العسكرية محدودة، لأن حقل نشاطي ينحصر في التدريس... وعلى العموم، بفضله أمكننا أن نساعد كثيرا من الناس. لقد كنت أسعى لمقابلته. وقد تحدثنا عنك. ولا أخفي عنك أنه كان لي أصدقاء في كل عصر، ولكن من المؤسف أنني منيت بخيبة أمل فيهم جميعا. ألا يكون الإنسان مغمورا إذا قصر نشاطه على دور واحد في الحياة، فيكون مقامه محدودا في المجتمع! لماذا تدين بمبدأ واحد في حياتك؟

وفي هذه اللحظة اقتحمت الغرفة فتاة لم تتجاوز الثامنة من عمرها، وقد عقدت شعرها اللامع في جدائل هي غاية في الروعة، ينبثق من عينيها الصغيرتين بريق ماكر. أنها ابنة لارا، سمعت صوتا غريبا على أذنيها، فعرفت أن لدى أمها

زائرا. وتظاهرت بالدهشة، ثم حيث الضيف ورشقته بنظرة حادة جريئة تصدر عن طفلة سبق تفكيرها عمرها.

فقالت لارا:

– أنها ابنتي، كاتنكا. أرجو أن تسود بينكما المودة والصداقة!

– رأيت صورتها معك ونحن في ميليوزيف، لقد كبرت وتغيرت!

وقالت لارا تحدث ابنتها:

– ظننت أنك خارج المنزل. لم أسمعك وأنت تدخلين فأجابت الفتاة:

– تناولت المفتاح من فرجة الجدار، وكان فيها فأر ضخم، قفز أمامي فبعث الرعب في نفسي.

– اذهبي الآن، سيتناول العم الطعام معنا، سأناديك حين تحضر الكاشا(١).

فقال يوري:

– شكرا، أنني لن أبقى طويلا، أننا نتناول طعامنا في الساعة السادسة، بسبب ترددي على المدينة، واجتهد ألا أتأخر في عودتي. وهي تستغرق مني أكثر من ثلاث ساعات. وهذا ما دفعني إلى أن أبكر في زيارتك، سأضطر إلى مغادرتكم بعد فترة يسيرة.

– أنني أطمع في نصف ساعة أخرى!

– يسرني ذلك، بل يسعدني.

---

(١) أي عندما يخرج الأكل من الفرن.

وقالت لارا للطبيب:

– لقد حدثتني في صراحة، دون لف أو دوران، لذلك سأكون صريحة أنا الأخرى معك: أن سترلينكوف الذي رأيته، هو في الواقع زوجي، باشا، بافيل بافلوفيتش انتيبوف، الذي ذهبت إلى الجبهة للبحث عنه، إذ أنني لم أصدق ما أخبرت به عن موته.

– ليس ذلك بالأمر الغريب علي، وقد هيأت نفسي له، وأنا بدوري لم أصدق شائعة موته، ولهذا تجاهلتها، وحدثتك بصراحة، لقد رأيته بعيني رأسي، كيف يمكن أن نربط بينك وبينه؟!

– مهما يكن الأمر، فهو الواقع، سترلينكوف هو انتيبوف، زوجي، وكاتنكا تعرف ذلك، وهي مزهوة بأبيها. واسمه الجديد اسم مستعار، انتحله لنفسه، أسوة بغيره من الثوار.

ثم استطردت تقول:

– لقد قذف يوريانتين بالقنابل، واحتلها، وهو يعلم أننا بها، ولكنه لم يكلف نفسه عناء حتى مجرد معرفة ما إذا كنا أحياء أو أمواتا، وذلك طبعا لكيلايكشف أمر نفسه، وهو بذلك يؤدي واجبه ولا شك. وإذا فرضنا أنه سألني، لما توانيت في أن أشير عليه أن يفعل ما فعل. قد تتهمه بأنه كان يهتم بنا خفية، لوجودي سالمة، وإقامتي في منزل لا بأس به. ولكني لا أتصور كيف تمكن من قهر أعصابه فلم يفكر مرة في الحضور لرؤيتي. أن سترلينكوف في سيبيريا الآن، هل جال بخاطرك ماذا يفعل؟ أنه على رأس قيادة أحد مواقعنا الأمامية، يحارب جاليولين! صديق طفولته، ورفيقه في السلاح ضد الألمان، وجاليولين يعرف شخصيته الحقيقية، كما يعرف أنني زوجته، ولكنه كان لبقا في تصرفه، وهو ما أقدره له كل التقدير، إذ أنه

لم يشر إلى ذلك ولو تلميحا، مع أن الرعب يتملكه حتى لمجرد ذكر اسم سترلينكوف.

– أنه حقا في سيبيريا الآن، ولكنه مكث هنا وقتا طويلا، في تلك العربة التي رايته فيها، وكنت أتمنى أن التقي به، ولو عرضا، لقد كان يتوجه إلى مقر القيادة، وكان مدخله في الجناح الذي كنت أقابل فيه جاليولين، إذ كنت أكثر من التردد على ذلك المكان لأتوسط في مساعدة أحد، أو للحيلولة دون وقوع كارثة. ومن أمثلة ذلك، ما كان يحدث في الأكاديمية الحربية، مما كان يثير السخط، أن المدرب الذي لا يحظى برضاء تلاميذه، يقتل رميا بالرصاص بواسطة كمين، بحجة أنه من مؤيدي البلشفيك.

ذكرت أنني كنت أذهب إلى ذلك المكان على أمل أن أتمكن من لقاء باشا عند دخوله أو خروجه. وقد اتخذ القائد العام مكتبه في ذلك الجانب من المبنى، في العهد القيصري، والآن، وقد تبدل الحال، فإنك تجد على الباب لافتة "شكاوى". هل وقع عليها نظرك؟ أنه مكان يبهر الأبصار بجماله وروعته، فالفناء مرصوف بالخشب، وتواجه المبنى حديقة كبيرة تزينها أشجار اللوز، وتعطرها أشجار الياسمين. ويصطف أصحاب الشكاوى أمام الباب، وكنت أندس وسطهم، وانتظر، وألوذ بالصبر، فلا أدفع الباب، ولا أظهر شخصيتي، ولا يعرف أحد أنني زوجته، لأن كلينا يحمل اسما مختلفا. ولا يتطرق إلى ذهنك أن مناشدة عاطفتهم تفيد. وهل وصل إلى علمك أن أباه بافيل أنتيبوف، الذي نفي نفيا سياسيا فيما مضى، يوجد الآن في مكان قريب، في قرية تقع على الطريق العام. كما أن صديقه تيفرزين هنا أيضا، وكلاهما عضو في المحكمة الثورية. ثم هل يخطر ببالك أن باشا لم يفكر في الذهاب لرؤية أبيه، ويعتبر أبوه أن هذا مسلك طبيعي من ابنه. وأن لابنه مطلق الحرية في البقاء متخفيا، وأن كل ما يترتب على ذلك أنه لا يستطيع أن يراه! ماذا تقول في هؤلاء الناس، هل قدت قلوبهم من صخر، أم أنهم ليسوا بشرا، رغم

ما يتشدقون به من نظم ومبادئ! وحتى لو أظهرت للملأ أنني زوجته، فهل تظن أن ذلك يعود علي بفائدة؟ ماذا تهم الزوجات أمثال هؤلاء في هذه الظروف؟ العمال، التعمير، هذا ما يعنيهم ويهمهم، أما الزوجة، فلا شأن لها ولا قيمة في هذا المجال، أنها في نظرهم نملة أو ذبابة! وكان مساعده يخرج من الغرفة ليسأل الناس عن حاجتهم، ثم يسمح لبعضهم بالدخول، على أنني لم أخبره قط باسمي، وكنت أكتفي بأن أقول له أن حاجتي شخصية. وكنت أعتقد أنني أضيع وقتي، وأنفقه سدى، فكان المساعد يرشقني بنظرة ارتياب ثم يهز كتفيه. ولا يجولن بخاطرك أنه لا يهتم بنا، أو أنه نسينا، أنك تخطئ لو ظننت ذلك، أنني أفهمه جديا، وأعرف مرماه، أنه يسعى لإسعادنا، وهو لا يرغب في العودة إلينا خالي الوفاض، بل يريد أن يعود رافع الرأس ظافرا، تجلله أكاليل المجد والكرامة والعزة والوفاء، فيضع أكاليله بين أيدينا، أنه يريد أن يخلدنا.

وفي هذه اللحظة دخلت كاتنكا، فتعلقت بها لارا وأخذت تحتضنها وتداعبها.

اجتاز يوري في عودته نفس الطريق التي يجتازها كل يوم في عودته في المكتبة، وقد حفظ معالمها إلى حد أنه كان لا يلقي انتباها إلى ما حوله. وهو بعد قليل من السير يصل إلى مفترق طريقين في الغابة، إحداهما طريق فاريكينو، والأخرى تؤدي إلى قرية اسمها فاسيليا، قائمة على ضفاف نهر ساكما. وكعادته بلغ المفترق قبيل مغيب الشمس.

وكان طوال تردده على المكتبة يعود إلى يوريانتين يوميا وكأنه طالب يعود من المدرسة إلى البيت كل يوم. وذات مرة تخلف وقضى ليلته عند لاريسا- وكان يدلل لارا بذلك الاسم- واخترع أكذوبة بأن أخبر عائلته أنه اضطر إلى البقاء في يوريانتين لبعض أعمال هامة، وأنه قضى الليلة في فندق سامديفياتوف.

وقطع يوري شوطا بعيدا في علاقته بلاريسا، وصار يخون زوجته تونيا، وتوثقت علاقته الآثمة إلى درجة فظيعة.

كان حبه لتونيا قد ملك عليه شغاف قلبه، وكان إسعادها رمز حياته وما كرس له نفسه، كما كان غيورا عليها وعلى كرامتها أكثر من أي شخص آخر، حتى والدها، بل حتى نفسها، وكان لا يحجم عن افتراس من تحدثه نفسه بجرح كبريائها. ومن عجب أن يكون الآن هو المعتدي.

وعندما يعود إلى بيته، يؤنبه ضميره، ويحس بإثمه. وكان يضاعف عن ألمه أن أفراد العائلة ظلوا يشملونه بعطفهم ومحبتهم، لجهلهم بحقيقة أمره. فتغيرت حاله حتى كان يصمت وقت الحديث عندما تجثم صورة جرمه في مخيلته.

فإذا حضرته هذه الصورة وهو يأكل، وقفت اللقمة في حلقه، فكان يلقي بالملعقة جانبا، ويزيح الصحاف، وتخنقه العبرات، وإذ تلاحظ تونيا ما به، تسأله في لهفة:

– يوري... ماذا بك؟ هل تلقيت أنباء مؤلمة وأنت في المدينة؟ أي حدث جلل وقع؟ خبرني– مهما يكن الأمر مزعجا– لعلي استطيع أن أزيح كربك!

ترى هل خان تونيا لأن الأخرى أجمل منها؟! كلا. فهو لم يفكر يوما في المقارنة. كما لم يكن لديه وقت للتفكير فيما يدعونه مقتضيات الحب، ويعتبر أن مجرد التفكير في ذلك يحط من كرامته. وهو لم يأت أمرا إذا في حياته، ولم ير في نفسه شخصا فوق مستوى الغير. أنه الآن يتداعى من وطأة الشعور بالإثم.

وللغموض الذي يكتنفه، كان لا ينفك يسأل نفسه:

– ترى ماذا بعد ذلك؟!

وفي يأس وقنوط كان يتمنى حدوث معجزة تحل مشكلته وإذ كان في طريقه إلى البيت، عقد العزم على أمر، أن يضع حدا لتلك الآلام النفسية المسمومة، أن يقطع الشك باليقين، فيعترف لتونيا، ويرتمي تحت قدميها، ملتمسا غفرانها، وبذلك يزيح عن كاهله ذلك العبء المضني، والكابوس الجاثم فوق نفسه، ويقطع العهد ألا يرى لارا بعد ذلك.

ولكن شعورا خالجه بأنه لم يكشف للارا بطريقة مفهومة أنه اعتزم أن يقطع صلته بها نهائيا، أن كل ما ذكره تلميحا في ذلك الصباح، أن في نيته مصارحة تونيا بحقيقة الأمر، وتبعا لذلك فالأجدر بهما أن يضعا حدا لهذه الحالة، ويمتنعا عن اللقاء.

وأحست لارا تعاسته، فآثرت ألا تضاعف آلامه، بإثارة الشحناء، بل ملكت زمام أعصابها، وأخذت تنصت لما يقول، في هدوء، وكأنه يروي قصة لا تمت إليها بصلة. وأخذت الدموع تنهمر على خديها، دون أن تشعر، وتكتفي بأن تقول له:

– سأقهر عواطفي، فلا تحمل همي، وافعل ما يروق لك كانت تقول ذلك من قلبها، دون رياء، ولأنها لم تشعر بأنها تبكي، فإنها لم تفكر في تجفيف دموعها.

وتناوبته الهواجس، لعل لارا أساءت به الظن، ولعله غادرها وقد ترك في نفسها صورة خاطئة تختلف عن حقيقته، ففكر في أن يعود إليها، ليوضح لها الأمر، وليودعها وداعا أشد حرارة ورقة، وداعا أخيرا. ولكنه بذل جهدا في تمالك أعصابه، واستمر في طريق عودته إلى بيته.

ولف الغابة صقيع وظلام، بعد غروب الشمس، وفاحت رائحة الليل الرطبة، وأخذت جماعات الهوام تخرج أصواتها الرتيبة التي تشبه أنغام الجنائز، وحط

بعضها على وجهه، وقد تصبب عرقا، فراح يطردها بيديه، وأتته من بعيد أنغام قبره تغني، وكأن أنغامها تقول:

– أفق إلى نفسك.

بل خيل إليه أنه يسمع في غنائها ذلك الدعاء العظيم:

– استيقظي يا نفسي، لماذا أنت راقدة!

وفجأة، هتف به خاطر عجيب، لماذا يتعجل؟ وما دام قد وطن النفس وعقد العزم، فلن يحنث في وعده وعهده، لن يعدل عن الاعتراف، ولكن هل لابد منه في هذا اليوم بالذات؟! أنه لم يبح لتونيا بشيء حتى الآن، تصريحا أو تلميحا، ولا ضير أن أجل ذلك إلى ما بعد زيارة تالية للمدينة، حتى يتمكن من أن ينهي كل شيء مع لارا، بالمحبة، والحرارة التي تخفف عنهما آلامهما، أنها فكرة رائعة، ومن عجب أنها لم تخطر على باله من قبل.

وما أن وصل به التفكير إلى ذلك، حتى شاع السرور في نفسه، ورقص قلبه طربا، وعاد يفكر فيها.

وأخذت مناظر الشوارع والمنازل التي يمر بها وهو في طريقه إلى بيتها تتراءى أمام عينيه، في سرعة غريبة، أنه يحن إلى البيوت الصغيرة على الشارع المؤدي إليها، ويود لو يستطيع أن يلثمها! وينزلها، تحت قبة السماء الزرقاء! هناك ستجتلي ذلك الجمال الفتاك، هبة الله لمن يشاء من عباده، وكأنها نجمة صافية البياض.

وإذ وصل إلى ذلك في تفكيره، ألقى بالمقود جانبا، وانحنى على السرج إلى الأمام، وطوق بيديه رقبة الجواد، ودس رأسه في ناحيته، وظن الجواد أن هذا

التصرف من جانب يوري إن هو إلا إعراب عاطفي بالتماس السرعة، فهب يسابق الريح.

وسمع يوري صوتا يناديه، بينما كان قلبه يخفق بهجة لما عقد عليه العزم، فخيل إليه أن الصوت من نسج الخيال.

وصعق للمفاجأة التي جابهته، فقد انطلق عيار ناري على قيد خطوات منه، فرفع رأسه مستطلعا، وأمسك بالمقود وشد اللجام، وأذهله أن يرى الجواد يترنح، وهو في أقصى سرعته، ثم يتراجع وينكفئ على الأرض.

حدث هذا عند مفترق الطرق، حيث وقف ثلاثة من الفرسان، اعترضوا سبيله، أحدهم فتى على رأسه قبعة، ويرتدي سترة حولها حزام للخرطوش، والثاني فارس قبعته من الفراء ويرتدي معطف ضابط، أما الثالث فرجل ضخم الجسم، يرتدي لباسا غريبا. وقال له الفارس:

– مكانك أيها الرفيق الطبيب، لا تتحرك، وإلا أطلقنا النار عليك... لقد قتل طبيب فرقتنا، ونحن نريد أن تحل محله. ترجل عن الجواد، واعهد بمقوده إلى هذا الفتى. لست في حاجة لأن أنبهك بأننا سنقتلك إذا حاولت الفرار.

– هل أنت الرفيق ليبريوس بن ميكوليتسين، قائد الأنصار؟

– كلا. أنني ضابط الاتصال الأول لديه.

الفصل العاشر

إخوان الغابة

قضى يوري سنتين تقريبا في ذلك الأسر، ولم يكن المكان الذي فيه مسورا، كما لم يقم على حراسته أو يراقبه أحد. وكانت تحركات قوات الأنصار متواصلة، كما لم تكن هذه التحركات بمنأى عن القرى التي تمر بها، بل كان الأنصار يختلطون بسكان تلك القرى.

وخيل إلى يوري أنه ليس أسيرا، وأنه حر، ولكن لم يكن في استطاعته أن يمارس حريته كما يشاء، فهي بكلمة أوضح، نوع من الإكراه. وبالرغم من أنه لم يكن مراقبا، فقد كان عليه أن يخضع للأمر الواقع.

وحاول الهرب ثلاث مرات، منيت جميعها بالفشل، وانتهت بالقبض عليه، ومع ذلك لم توقع عليه أية عقوبة. لذلك شعر بأن لا جدوى من هذه المحاولات، فعدل عنها.

وصارت له خطوة لدى رئيس الأنصار، ليبريوس ميكوليتسين، فقد سره أن يكون له رفيق كيوري، فسمح له أن ينام في خيمته. ومن عجب أن يوري تضايق من هذه الخطوة.

وفي هذه الآونة، اتجهت تحركات الأنصار نحو الشرق، وكانوا يهدفون إلى طرد الكولتشاك من سيبيريا، وكانت هذه التحركات تتحول على تقهقر، عندما كان البيض يهاجمون من الخلف، ويهددون بتطويق الحمر. ولذلك انقضى وقت طويل، دون أن يفقه يوري مغزى هذه التحركات.

كان سيرهم بمحاذاة الطريق العام، وأخذ البيض والحمر يتقاسمون القرى، لذلك كان من العسير أن تعرف لمن كان ولاء تلك القرى.

وذهب يوري، في أحد الأيام، وكانوا في مدينة تدعى باذينك إلى أحد الصيادلة، ليتسلم أدوية طبية انجليزية، تركتها وحدة من الضباط البيض، غنيمة للأنصار.

وكان ذهابه عصرا، وكان اليوم ممطرا مملا، يبعث على السأم، فبعث الملل والكآبة في نفس يوري.

وتحول الطريق، وقد أتلفه مرور الجيوش إلى ممر يغمره الوحل. فكان السير فيه شاقا.

والتقى يوري، أثناء ذلك ببيلاكيا تيا كونوفا، التي كان قد التقى بها في القطار منذ سنوات ثلاث. وقد تذكرته هي أولا، وقد ارتسم على وجهها أنها على استعداد لأن تحييه، إذا تذكرها، وأن تلوذ بالصمت، إذا لم يتعرف عليها.

وبعد فترة طويلة، تذكرها، وتماثلت في ذهنه صورة أسرته وعربة الشحن المزدحمة والمجندين للعمل وقد أحاط بهم الحراس، والمرأة التي كان شعرها يتأرجح على كتفيها. وبالجملة، تزاحمت في ذهنه تفاصيل مناظر الرحلة، وارتسمت في ذاكرته وجوه من أحبهم، ويتلهف اليوم لرؤيتهم، تلهفا بعيد المنال.

وأومأ إلى بيلاكيا أنه سيعبر الطريق إليها، واجتازه فوق بعض الحجارة، وعندما صار أمامها، حياها. ثم أخذا يتحدثان، وقد أنبأته بأمور كثيرة حدثت في السنتين الأخيرتين، كما ذكرته بفاسيا، الفتى الصبوح، وقد ساموه من العذاب ألوانا حين سخروه للعمل ظلما وعدوانا. ثم وصفت له بقاءها مع أمه في القرية، حيث كانت سعيدة، لولا أن اعتبرها أهل القرية دخيلة عليهم، واتهموها زورا بأن بينها وبين فاسيا علاقة غرامية، فاضطرت أن تغادر القرية، اتقاء تجريحهم. وأقامت مع

شقيقتها المتزوجة، أولجاجاليولينا في مدينة هوليكروس. وبعد فترة من الزمن اضطرت أن تذهب إلى باذينك، حين طرقت سمعها إشاعة وجودبير تولييف قريبا منها، واتضح بعد ذلك أن الإشاعة كاذبة، ولكنها بقيت هناك، لأنها وفقت إلى عمل.

ومما ألقت به من الأنباء، أن الكوارث حلت بأصدقائها، فقد هوجمت فيريتينكي انتقاما لأنها لم تقدم المؤن، وأن منزل فاسيا أحرق، ومات أحد أفراد عائلته، كما حدث في هوليكروس، أن جاليولين، صهر بيلاكيا، قد سجن أوقتل، ولم يعرف أي الخبرين هو الأصح، وأن ابن أختها قد اختفى. وقد قاست أختها الجوع فترة من الزمن، وأنها تعمل الآن خادمة عند أسرة تمت إليهم بصلة النسب.

وكانت بيلاكيا تعمل عند الصيدلي، الذي حضر يوري ليتسلم منه الأدوية. وكان الهلاك مصير القائمين على الصيدلية ومن يعملون بها، وبيلاكيا من ضمنهم، بسبب القيام بهذا الإجراء. ولم يكن في إمكان يوري أن يتخلف عما أمر به، وقد تمت عملية استلام الأدوية في حضور بيلاكيا.

وقفت عربة يوري وراء المخزن، ثم أخذوا يضعون فيها مختلف الأدوية، منها ما هو في أكياس، وما هو في صناديق، وأكداسا أخرى من القنينات وقد لفت بعناية.

وتطلع حصان الصيدلي، كبقية الحاضرين، إلى عملية النقل، وقد لفتهم غمامة من الحزن. وأخذ النهار الممطر يقترب من نهايته، فصفت السماء قليلا، وانسابت بعض أشعة الشمس من خلال الغيوم، فأشاعت ضوءا يميل إلى الاحمرار، وكان الماء الذي تخلف عن المطر، يترقرق في الطريق، وقد اصطبغ بلون قرمزي.

والفرق العسكرية تسير على مدى الطريق، راكبة أو مترجلة، حول البرك. وكان من بين الأدوية قنينة ملأى بالكوكايين، الذي كان يتعاطاه رئيس الأنصار.

كان الشتاء موسم انتشار التيفوس، وفي الصيف تتفشى الديزونطاريا، كما أخذ عدد الجرحى في الازدياد، بسبب استئناف العمليات الحربية، لذلك وجد يوري نفسه غارقا في خضم من الأعمال.

وانضم إلى صفوف الأنصار- رغم الانسحابات المتوالية- عدد كبير من المتمردين، في الأماكن التي مر بها الجيش، وعدد آخر من الهاربين من الأعداء، حتى أنه في خلال العشرين شهرا التي أمضاها يوري أصبحت قوة الوحدة عشرة أضعاف ما كانت عليه في مبدأ الأمر. ولذلك زها بها ليبريوس بن ميكوليتسين في الاجتماع الذي عقد في هوليكروس.

وكان يعاون يوري بعض الجنود المدربين، كما كان له مساعدان أسيران سابقان في الحرب، أحدهما يدعى كيريني وهو هنغاري شيوعي، كان ضابطا في الجيش النمساوي، والثاني اسمه انجيلار، وكان طبيبا محدود التدريب. وكان يوري يتحدث مع كيريني بالألمانية، وأما انجيلار، فكان يكلمه باللغة الروسية، لأنه كان ملما بها.

***

من تقاليد الصليب الأحمر الدولي، إن لم يكن من قوانينه أنه محظور على موظفي القسم الطبي، الاشتراك في العمليات الحربية. ولكن يوري خرق هذا التقليد- اضطرارا- فقد كان موجودا في ساحة المعركة، ذات يوم، وقد بدأت الاشتباكات، فوجد نفسه يشارك المحاربين مصيرهم.

وكان في المقدمة، حين فاجأته نيران العدو، فانبطح على الأرض قريبا من عامل التليفون الذي يتبع وحدته. وكانت الغابة من خلفهم، ويمتد أمامهم حقل غير محصن، وقد أخذ البيض يتوغلون فيه.

وتمكن يوري من أن يميز وجوه هؤلاء البيض، عندما اقتربوا، فوجد أنهم فتيان من الطبقة البورجوازية في العاصمة، ومعهم رجال أكبر منهم سنا، تطوعوا أخيرا، وكانت غالبيتهم من شباب الجامعة، والصفوف النهائية في المدارس.

وبالرغم من أنه لم يتعرف إلى أحد منهم، إلا أن وجوههم بدت مألوفة لديه، فكان بعضهم يذكره بزملائه في الدراسة، ورجح أن يكونوا أخوتهم الصغار، وخيل إليه أن نظره وقع على بعضهم في إحدى المناسبات أو في مكان ما، منذ سنوات، لقد جذبت وجوههم المعبرة انتباهه، وتراءوا له أنهم من صلب جماعته.

وملأهم القيام بهذا الواجب زهوا وشجاعة، وكانوا يسيرون في صفوف غير منتظمة، وقد انتصبت قاماتهم، كأنهم من ضباط الحرس، وأخذوا يقتحمون الخطر، ويأبون التوقف أو الاستلقاء على الأرض، رغم أنه كان بوسعهم أن يحتموا وراء المرتفعات وبين التعرجات، لذلك كان رصاص الأنصار يجندلهم.

وفي وسط الحقل الفسيح، انتصبت شجرة يابسة، تحت تأثير حادث ما، ربما أصابتها نار وفحمتها، أو تكسرت أثناء إحدى المعارك. وكلما اقترب منها شاب من هؤلاء المتطوعين، يحدق فيها، ويفكر في اتخاذها حصنا، يتأكد فيه من هدفه، ولكنه لا يلبث أن يتابع سيره، بعد أن يطرح هذه الرغبة جانبا.

وبمرور الأيام، أصبحت ذخيرة الأنصار محدودة، فاضطروا إلى إتباع نظم معينة بشأنها، والخضوع لتعليمات مشددة، منها عدم إطلاق النار جزافا، وإطلاقها من مسافات قريبة.

وتمدد يوري على العشب، ولم تكن بندقيته معه، وأخذ يراقب سير المعركة، بينما أخذت مشاعره تميل إلى هؤلاء الأبطال اليافعين الذين يقتحمون الموت ويصارعونه، وتمنى لهم النصر من أعماقه، فقد أحس بغريزته أنهم من عائلات كعائلته، روحا وثقافة، وقيما خلقية.

وهتف به خاطر هو أن يقوم ويلحق بهم، ويضع نفسه بين أيديهم، وهي وسيلة ينجو بها من الأسر الذي هو فيه، ولكنه راجع نفسه، وتبين ما في ذلك من الخطر، فلربما قد تصيبه رصاصة طائشة من أحد الجانبين، من البيض لأنهم لا يفهمون ما يقصد، أو من الحمر عقابا له على خيانته.. خاصة وأنه سبق أن خبر هذه المواقف فيما مضى، وحاول الهرب أكثر من مرة دون جدوى. وبعد أن وصل إلى هذا الحد من التفكير وتقليب الأمر، استقر رأيه على أن يبقى متمددا على العشب، مستسلما لمشاعره الموزعة بين الجبهتين، يراقب مصير المعركة.

وكان من العسير أن يظل على هذا الوضع، بينما المعركة حوله على أشدها، فهو في موقف لا تحتمله النفس الأبية. فليس الموضوع موضوع خضوع للفئة التي أسرته، أو دفاع عن حياته، أنه خضوع لمجرى الحوادث، وللقوانين التي تتحكم فيما يجرى أمام عينيه. فالبقاء جانبا، في هذه الحالة، ضد ناموس القوانين. إذن فعليه أن يفعل ما يفعله الجميع، معركة قائمة، ونار تطلق عليه وعلى رفاقه، فلابد له أن يرد.

وفي هذه اللحظة، اختلج جندي، وتململ في حركة تشنجية، ثم سكن بلا حراك، فخف يوري إليه، وتناول بندقيته وذخيرته، ثم ابتدأ يطلق رصاصها الواحدة تلو الأخرى.

وأخذته الشفقة، فلم تطاوعه نفسه أن يصوب الرصاص إلى صدور الشباب الذين مال إليهم بقلبه ومشاعره، إذن ماذا يفعل؟ هل يطلق الرصاص في الهواء؟ في لا شيء؟ أنه أخذ يطلقه على الشجرة اليابسة، كان يتبع طريقة خاصة، فكان يضغط على الزناد بهدوء وبطء، بعد أن يركز نظره ويحدد هدفه فتنطلق الرصاصة، وتتفتت الأغصان وتتناثر.

وأذهله أن رأى أنه أصاب أكثر من واحد من هؤلاء الشباب بينما سقط واحد منهم جثة هامدة، إذ مروا في تحركهم بينه وبين الهدف.

وأخيرا اقتنعت قيادة الجيش الأبيض أن لا فائدة من الهجوم فأصدرت الأوامر بالتقهقر والانسحاب.

ومما يذكر أن عدد الأنصار كان قليلا، لأن الغالبية الكبرى منهم كانت تنتقل، كما اشتبك جزء آخر في معركة أشد، في مكان آخر، ولكي يستروا ضعفهم، كفوا عن مطاردة الجيش الأبيض أثناء عملية انسحابه.

وفي تلك الأثناء طلب يوري إلى مساعده انجيلار أن يهتم بالجرحى الذين أصابهم، بينما راح هو يفحص عامل التليفون، وهو يأمل أن يكون حيا. على أنه تبين، بعد أن جس نبضه، أنه فارق الحياة، وعندئذ سحب تميمة كانت تتدلى بخيط في عنق العامل، وبفحصها، وجد أنها آيات من المزامير، من المزمور الحادي والتسعين على الخصوص.

وابتعد يوري عن العامل، وتوجه إلى الجندي الأبيض الذي أراده دون قصد، فحز في نفسه أن يتطلع إلى ذلك الوجه الصبوح، وقد ارتسمت عليه علائم البراءة والألم والتسامح، فتساءل يوري:

– لماذا جنيت على هذا الشاب وقتلته؟!

وعلى الفور فك أزرار معطفه، فوجد اسمه مطرزا: "سير بوزا رانتسيفيتش"، وأيقن أن أمه هي التي طرزت ذلك الاسم، وعندما فتح قميص الشاب، طالعه صليب صغير معلق في سلسلة ذهبية دقيقة، وميدالية، وصندوق ذهبي صغير الحجم، لم يكن محكم الغلق، فسقطت منه قصاصة، ففحصها يوري، ولدهشته وجد أنها تحمل آيات المزمور الحادي والتسعين نفسه، مكتوبة بالنص الصحيح.

وتململ سيربوزا، ثم تأوه، فقد كان لا يزال حيا. ففحصه يوري بعناية، فتبين أنه في حالة إغماء، لا أكثر، بسبب جرح بسيط، فلعل تميمة أمه ردت عنه الردى. ولكن أسقط في يد الطبيب، ماذا عساه يفعل لرجل مصاب بإغماء؟!

وبلغت الوحشية في ذلك الوقت أقصى درجات القسوة، فالأسرى، وكانت النظم تقضي بالمحافظة على سلامتهم، لا يصلون أحياء إلى مواقع الأسر، كما كان الجرحى من الأعداء، يجهز عليهم فيقتلون في ميدان المعركة.

وبادر يوري إلى نزع ثياب عامل التليفون، وقد عاونه في ذلك انجيلار، وكان يوري قد أولاه ثقته، ثم أبدلها بثياب الشاب.

وعني يوري وانجيلار بصحة سيربوزا، حتى استعاد صحته، وشفي تماما. فأطلق سراحه، رغم ما ذكره سيربوزا لهما من أنه مصمم على العودة إلى جيش الكولتشاك في حربهم ضد هؤلاء الأنصار الحمر.

***

اتخذ الأنصار أجمة تدعى أجمة الثعلب، وهي سفح كثيف الأشجار، يشقه ويجري على امتداده نهر صاخب، مقرا لهم في فصل الخريف، وكان رجال الجيش الأبيض قد أمضوا فيه فترة الشتاء، وعاونهم سكان القرى على حفر بعض الخنادق فيه. فلما رحلوا عنه في الربيع، تركوا تحصيناتهم على ما هي عليه، فاستخدمها الأنصار.

وأقام يوري وليبريوس في خندق واحد، وظل ليبريوس يتحدث ويوري يصغي إليه ليلتين متتاليتين:

– ليتني أعرف ماذا تفعل أسرتي الكريمة– وعلى الأخص أبي الفاضل– في هذه اللحظة!

فندت عن يوري تنهدة، وهو يحدث نفسه:

– ما أشد بشاعة هذا المتغطرس! أنه صورة صادقة من أبيه، صدق من قال: "من شابه أباه فما ظلم".

– لعلك عرفته جيدا من أحاديثنا، ولا أظن أنك كونت فكرة سيئة عنه، ما رأيك في ذلك يا عزيزي؟

– أن لدينا اجتماعا للانتخاب غدا بالبيبريوس، كما اقترب موعد محاكمة الجنود الذين أقدموا على تقطير الفودكا، ولابد من أن أعد الدليل أنا وكيريني، أكاد أهلك من فرط الإجهاد، فإنني لم أذق طعم النوم منذ ليلتين، فهل يمكن أن نرجئ هذا الحديث؟

– لا مانع، ولكن ما رأيك في ذلك الشيخ.. أبي؟

– لماذا تتحدث عن والدك بهذه اللهجة؟! إن أباك لا يزال في عنفوان الشباب، على أنني– وقد سبق أن ذكرت لك ذلك– ليس لدي الكثير من المعلومات عن الاشتراكية، كما أنني لا أرى فارقا بين الاشتراكيين والبلشفيك. أن أباك أحد دعائم الفوضى الحالية في الروسيا، أنه صاروخ ثوري، وكلاكما– أنت وهو– مرجل للغليان في الاضطرابات الحالية.

– لا أفهم ماذا تقصد، هل هو مديح أم تجريح؟!

– دعنا بالله نرجئ هذا الحديث إلى وقت آخر، عندي لك ملاحظة ونصيحة، أراك تدمن تعاطي الكوكايين، وهو من المواد الطبية التي أنيط بي المحافظة عليها، لاستعمالها في الأغراض الطبية، وفضلا عن ذلك فالكوكايين مادة سامة فتاكة، تورد الإنسان مورد الهلاك، وبصفتي طبيب "الوحدة" فإنني مسئول عن صحتك وسلامتها.

– إن إحساسك الاجتماعي ضعيف، وأنت طبيب، ومثقف، وأعتقد أنك تهوى الكتابة، فهل يمكن أن تفسر لي كيف يجتمع ذلك كله؟

– لقد أغلق علي، ماذا أفعل؟ يخيل إلي أنني متبلد الذهن، حقا أن حالتي تدعو إلى الرثاء.

– لو أنك فكرة قليلا، في اهتمام، بما نعمله، لما تحدثت بهذه اللهجة الساخرة، ولما نظرت إلى عملنا بعين الاحتقار.

– ماذا تقول، بالله، يا ليبريوس؟ أين الاحتقار الذي تتحدث عنه؟ أنني أقدر ثقافتك من كل قلبي. فقد عرفت آراءك في تثقيف الجندي، من الحديث الذي أذعته، وهي آراء صائبة. أن ما أوضحته عن علاقة الجندي بزميله، وعن شعوره نحو الضعيف، ونحو النساء، وما ذكرته عن العفة والشرف، إنما هو قبس من آراء تولستوي، التي أعرفها في دراية تامة، أنني أتطلع إلى حياة أفضل، فكيف يمكن أن أسخر؟!

– لا يفوتني أن أذكر أن النهوض الاجتماعي، منذ ثورة أكتوبر، لا يثير اهتمامي أو حماستي، كما أنه كلفنا هذا البحر الخضم من الدماء، وفي رأيي، لم يصدق من قال أن الغاية تبرر الوسيلة، وأهم من هذا وذاك، أنني حين يقال أمامي عن إقامة صرح جديد للحياة، فإن اليأس يتملكني، وأفقد السيطرة على مشاعري.

– أن الذين يتشدقون بذلك، لا يفهمون معنى الحياة، أنهم لم يشعروا بجوهرها، وبروحها. أنها في نظرهم كتلة من المواد، تحتاج إلى تنسيق وتهذيب من جانبهم. لقد آن لك أن تعرف يا عزيزي، أن الحياة ليست مادة... أنها مبدأ التطور والتجدد الذاتي، وهي هي التي تجدد نفسها، وتبدعها وتطورها، وأنها فوق مستوى النظريات.

– أنني اعتقد أنك ما كنت تهبط إلى هذا المستوى المعنوي، لو أنك حضرت اجتماعاتنا، واتصلت برفقائنا العظماء، بل ما كانت تثقل عليك وطأة هذا الشعور القاتم، ولعل لك العذر، فأنت لم تلمس شعاعا من الأمل فيما تراه من كفاحنا. والأجدر بالمرء ألا يستسلم للخوف، أنني أستطيع، أيها الطبيب الشاب، أن أنهي إلى سمعك، أمورا أشد سوءا، أمورا شخصية لا يجدر الإفصاح عنها الآن. على أنني سأضبط أعصابي، وأقول أن هذه الأوضاع وقتية، وأن الكولتشاك هم الخاسرون، في نهاية المطاف، وسوف يريك الغد صدق ما أقول، فتذرع بالصبر والشجاعة.

ولم يجب الطبيب، بل أخذ يفكر ويحدث نفسه:

– أن هذا لمما يبعث على الضحك حقا، كيف يمكن لإنسان أن يتحدث بمثل هذه البلاهة. لقد أضعت وقتي سدى، وكم قلت له أكثر من مرة أننا غير متفقين في أفكارنا، ومع ذلك فهو يحاول أن يقنعني، ويتصور أن أوضاعه تخيفني، وأن أحلامه في المستقبل وآماله أحرى أن تشجعني. كيف أنزل إلى هذا المستوى من التنكر لما اعتقده! أنه يتصور أن مصير الكون يتوقف على انتصار الثورة.

واكتفى يوري بأن هز كتفيه، ولو أنه ظهرت على ملامحه أن بلاهة ليبريوس ضايقته، حتى كاد يفقد أعصابه.

وبعد فترة قال يوري:

– أشيع أن قوة مجهولة الجنسية، غير روسية، هاجمت فاريكينو وحملت عليها سلبا ونهبا. ولم يحاول كامينود فورسكي، أن ينفي ذلك الخبر، وبلغ مسامعي أن أهلك، وأهلي أفلتوا وتمكنوا من الهرب. ومن الإشاعات التي راجت أن جنودا ذوي عيون مستطيلة، يرتدون معاطف مبطنة، ويضعون فوق رءوسهم قبعات من الفرو، قد عبروا نهر الرينفا، وقد أصبح ماؤه جليدا، ثم راحوا يمطرون الناس بوابل

رصاصهم، في هدوء وطمأنينة. وكما ظهروا فجأة، اختفوا بطريقة غامضة، هل وصل إلى علمك شيء من هذا؟ وما مدى صحة الإشاعة؟

– إشاعة كاذبة، لا نصيب لها من الصحة بل مطلق سخافة!

– إذا كنت كما ذكرت في محاضراتك عن الأخلاق، مهذبا لطيفا، فأرجو أن تدعني لأنصرف، أنني أريد أن أبحث عن أسرتي، فإنني لا أعلم مقرها، كما لا أعلم إن كان قد أصابها سوء أم لا تزال بخير. وإذا كنت لا توافق، فأرجو أن تلوذ بالصمت، وتكف عن محادثتي، لأنني أريد أن أخلو إلى نفسي، وويل لي إذا ظللت تتحدث، أليس من حقي أن أنال قسطا من الراحة؟!

استلقى يوري على فراشه، ودفن وجهه في الوسادة، وقد أصم أذنيه عن الإنصات إلى ليبريوس، الذي أخذ يمنيه بالانتصار الشامل على الجيش الأبيض، في الربيع، حيث تضع الحرب أوزارها فيسود السلام والازدهار، وترتفع راية الحرية. "وهنالك ستكون حرا تذهب أين تشاء، فتذرع بالصبر حتى تحين الساعة المرتقبة، ومادمنا قد قطعنا ذلك الشوط البعيد، فلا أقل من أن ننتظر بضعة أشهر أخرى، ثم من ناحية أخرى، لعل من المصلحة ألا تذهب".

واشتاط يوري غيظا وغضبا، أنه كالحاكي يتكلم، ويكرر ما يقول، ولا يخجل من التكرار الممل. وأنه– يوري– لا يستطيع أن يحتمل الإنصات إليه، إلى ذلك المنكود، الذي لا يعترف بوجود الليل، ولا يعترف أيضا أنه جعل للراحة والاستجمام، وما لبث أن قال لنفسه:

– لشد ما أمقته، وسينتهي بي الأمر إلى الفتك به وقتله! ثم أخذ يناجي زوجته وأسرته في حنان عاطفي:

– حبيبتي تونيا، أين أنت الآن يا عزيزتي؟ وهل مازلت حية ترزقين؟ رباه... لقد كانت حاملا، على وشك الوضع، فكيف كانت الولادة؟ وهل وضعت ذكرا أم

أنثى؟ كيف حالكم يا أحبائي جميعا؟ يغمرني ندم طاغ، وأنت يا.. لارا.. أنني أرتعد إذ أنطق باسمك، وتتنزى نفسي حين يردده لساني. وأخيرا يا إلهي، من هذا الوحش البغيض، لن أتحمل ثرثرته، وسأقتله.. سأقتله.

***

كان يوما صفت سماؤه، واعتدل الطقس منذ أسبوع، والأصوات المألوفة تتردد أصداؤها في المعسكر، وكأنها أمواج بعيدة. وكان يوري يسمع بين الحين والحين، خطوات المتنزهين في الغابة، وقد اختلطت في سمعه أصداء الأصوات المختلفة، وطرقعة الفئوس، ونباح الكلاب، وصهيل الخيول، وصياح الديكة. وأخذ الرجال وقد لفحتهم أشعة الشمس، يسيرون في جماعات، وهم يبتسمون. بعضهم يعرف يوري فيحييه، والبعض الآخر يمر من أمامه مر الكرام دون إشارة أو تحية.

واعتصم الأنصار بالأجمة، لا يريدون أن يرحلوا عنها، إلا إذا لحقت بهم عائلاتهم التي هربت، وكان متوقعا وصولها بين لحظة وأخرى. ولهذا أخذوا يستعدون للزحف نحو الشرق وانهمكوا في إجراءات الرحيل، من تهيئة الصناديق وإعداد العربات وفحصها.

وعقد في وسط الغابة اجتماع خاص، لتبليغ الجنود تعليمات هامة.

ولفحت أشعة الشمس أوراق الأشجار الخضراء، فأكسبتها بريقا يأخذ بالأبصار.

وأخذ كامينودفورسكي، ضابط الاتصال الأول، يحرق أمام خيمته بعض الأوراق من مستندات الجنرال كابيل، التي كانت قد وقعت بين يديه، كما أخذ يحرق أيضا بعض أوراقه الحزبية، وكان يفعل ذلك في حذر، ولكن ألسنة اللهب كانت تدل على أن شيئا ما يحترق.

وبدت الغابة وكأنها إحدى الجنان، تتلألأ في سمائها أشعة الشمس، فتنشر فيها الضوء، كما ازدهرت بالثمار الناضجة، وخاصة ثمار شجر الحور الأحمر، وأخرى بيضاء وصفراء وقرمزية اللون، وقد أخذت أوراق الأشجار تتراقص طائرة في الهواء، كما أخذت الفراشات تنتقل من مكان إلى آخر وهي تحلق بأجنحتها الشفافة ذات الألوان الزاهية الجميلة.

وأغرم يوري منذ نعومة أظفاره، بمنظر الغابة وقت الغروب فكان يحس أن أشعة الشمس، وهي تميل نحو الغروب، تنفذ إلى أعماقه وتستقر فيها، وكأنها نسمة الروح تتدفق بين ضلوعه.

وكان يشعر في أعماقه، بسر الحياة، الذي ينشا في كل طفل، فتتكون منه شخصية. كان هذا الإحساس يطغى عليه في قوة، فخيل إليه أن الغابة، وأنوار الغسق، والأشجار والثمار تكون في مجموعها وجها بديعا رائعا لفتاة صغيرة بريئة. وما أن ترتسم هذه الصور الرائعة في مخيلته حتى يغمض عينيه، ويسبح في التفكير محلقا بأفكاره، في الكون، وسر الحياة، وأرض الله، وتلك الأضواء التي أمامه: لارا!

ولكنه لا يلبث أن يعود إلى الواقع الملموس، والحقيقية الماثلة، الثورة لا تزال قائمة، وهو لا يزال أسيرا لدى الأنصار، وأخيرا وجد نفسه يتجه بحركة لا إرادية صوب نار كامينودفورسكي، ويقول:

– ألم تنته بعد من إحراق أوراقك؟

– هناك كثير منها ينتظر دوره.

وتقدم يوري إلى مجموعة من الأوراق، نثرها بقدمه، فوجد أنها مستندات خاصة بمراكز الجيش الأبيض. وود لو وجد فيها شيئا عن رانتسيفتش، ولكنه لم يجد فيها شيئا يهمه، فنثر غيرها من الأوراق، فكانت كسابقتها، مجموعة من محاضر اجتماعات الأنصار.

وتناول كامينودفورسكي ورقة، قدمها إلى يوري قائلا:

– هذه تعليمات السير لوحدتك الطبية. عائلات الأنصار أوشكت أن تصل، فينتهي التذمر القائم بين الجنود، الليلة، ونأمل أن نتحرك بين لحظة وأخرى.

وقال يوري في دهشة، بعد أن قرأ الورقة:

– لقد جعلتم لي عددا من العربات أقل مما سبق، مع أن عدد الجرحى قد تضاعف، ومعظمهم لا يستطيعون السير، فكيف يتسنى لي أن أنقلهم؟ أضف إلى ذلك: الأدوية والأسرة والأجهزة الطبية!

– ذلك متروك لك، تنظمه بطريقة ما، ويجب أن نراعي الظروف ونخضع لمقتضيات الأحوال. ولكني ألفت نظرك إلى أمر هام، هناك رفيق عركته الأيام، كرس نفسه ونذرها للقضية، أنه جندي رائع، ممتاز، ولكنه أصيب بمرض ما.

– أمرض عقلي ما أصيب به؟

– أرجح ذلك، أنه يذكر أنه يحس نوعا من الهوس، والهذيان، فهل ذلك ناجم من الأرق، أم ألم بالرأس؟ أم ماذا؟

– لدي متسع من الوقت، لذلك سأذهب لأفحصه، متى يبدأ الاجتماع؟

– أغلب الظن أنه ابتدأ فعلا. ولكن لماذا تجشم نفسك مشقة الذهاب؟، أنني لن أذهب، وعليهم أن يتدبروا أمرهم بدوننا.

– إذن سأذهب لأرى بامفيل، أنني أشعر بالتعب، ووطأة النعاس. أن ليبريوس يثرثر طول الليل، ويرهقني. أين أعثر على بامفيل؟

– خلف المستودع المهجور، في الأجمة، هل تعرف ذلك المكان؟

– أظن ذلك.

– تجد هناك بعض خيام الرؤساء: وقد خصصنا إحداها لبامفيل، أنه ينتظر عائلته، التي ستأتي مع عائلات الأنصار. لقد حبوناه تقديرا لما قدمه للثورة من خدمات.

***

أحس يوري بالتعب، وهو في طريقه إلى بامفيل، فهو لم يصب شيئا من الراحة أو النوم منذ بضع ليال. وكان يتمنى أن يذهب إلى خندقه، لينال قسطا من الراحة، ولكنه تذكر ليبريوس، وخشي أن يحضر هو الآخر فيضايقه بثرثرته.

واتخذ طريقه في ممر كسته أوراق صفراء، تنعكس أشعة الشمس عليها في ألوان مختلفة فتتألق أمام عينيه فيدور رأسه ويشعر بالرغبة في النوم، وكأنه يستمع إلى نغمات شاعرية.

وخطر ليوري أن يصيب شيئا من الراحة، فاستلقى فوق أوراق الأشجار المنتثرة، وقد أسند ذراعه على جذع، واتخذ من بعض العشب وسادة، وما لبث أن راح في سبات، وقد غمرته الأضواء والظلال، فاختفى عن الأنظار، وكأنه اكتسى لباسا سحريا.

ورغم ذلك فقد دفعته تلك الرغبة الملحة للنوم، أن يستيقظ فقد كان ضميره متيقظا، غير مطمئن، يسبح في الفراغ، وكانت الأفكار والهواجس، تزدحم في رأسه وتتنازعه، وكأنما أصابه مس، فأقلقه ذلك وأثاره، وقال محنقا:

– آه لهذا اللعين ليبريوس، كأنما افتقر العالم إلى الأسباب التي تدفع إلى الجنون، أنه مغتبط باحتجازي، يثقل علي بصداقته، ويرهقني بثرثرته، حتى كادت تختل أعصابي، وكدت أفقد صوابي، وسأقتله يوما ما.

مرات أمام يوري فراشة ملونة، كانت تبسط جناحيها وتضمهما، وتابعها يوري في طيرانها بنظراته، وهو يغالب النعاس، وحطت الفراشة فوق ثمرة من ثمار الصنوبر، ثم اختفت، كما تلاشى هو.

وعاد إلى أفكاره، التي كان يتعمق فيها، والتي كان يغرق نفسه في استجلاء كنهها خلال أعماله الطبية: الغاية والعزيمة، باعتبارهما خلاصة تركيب جوهري، انسجام البيئة، ألوان جسم الإنسان، الوقائية والتقليدية، استمرار الكائنات الطيبة، أوجه التشابه بين الانتقاء الطبيعي، وتكوين الوعي ونشأته، دراسة طبيعة الذات والموضوع وتوحيدهما، وتحديدهما. وسبحت به تأملاته، وقادة تفكيره من داروين إلى شلينج، ومن الفراشة إلى الرسم والفن، وأخيرا وصل به مطاف التفكير إلى الخلق، والخليقة والإبداع.

وغلبه النوم ثانية، ولكن سرعان ما قطع عليه نومه، إذ أيقظه حديث ناعم في خفوت متحفظ، وكان ما سمعه من كلمات كافيا لأن يتبين منه أن موضوع الحديث يحمل بين طياته سرا، أو خطة خفية. وكان واضحا أن المتحدثين لم يشاهدوه، أو يخطر ببالهم أنه قريب منهم. وفكر في نفسه أن أية حركة تبدر منه قد يدفع حياته ثمنا لها، فتظاهر بالموت، وأخذ ينصت.

عرف يوري أن المتآمرين يتفاوضون مع بعثة من مراكز الأعداء العليا، وكان أعضاء البعثة يتكلمون في همس لا يكاد يسمع.

وفهم يوري أنهم يتكلمون، عندما كانت تتخلل الهمس فترة من الصمت.

وأخذ بطل المؤامرة يوضح الخطة، ولكن الرجال بدءوا يسيرون، فلم يستطع يوري أن يسمعهم، على أنه أمكنه أن يفهم، وقد أخذ منه الرعب والكمد مأخذهما، أنهم يتآمرون على حياة ليبريوس، وأنهم يبغون تسليمه إلى الجيش الأبيض أو أن يفتكوا بذلك اللعين. وغاب عن ذهنه أنه هو أيضا ود لو يقتل ليبريوس. ولكنه الآن

يفكر في الوسيلة التي ينقذه بها. واستقر رأيه على العودة إلى كامينودفورسكي، ويكشف له سر المؤامرة، ويحذر ليبريوس، دون أن يتعرض لذكر أسماء مدبريها.

وحينما عاد، وجد أن كامينودفورسكي قد انتهى من عملية حرق الأوراق، وأن مساعده يراقب النار وهي تخبو، حتى يحول دون انتشارها.

واكتشفت المؤامرة وقبض على المتآمرين، ولذلك لم تحدث الجريمة. وقام سيفو بليوي بدور المحرض والعميل، فشعر يوري أنه أكثر تقززا من ذي قبل.

***

لم يبق على وصول عائلات الأنصار سوى يوم واحد، ولذا أخذ الأنصار ينتظرون، ويستعدون للاستقبال، وذهب يوري ليفحص بامفيل، وقد رآه عند مدخل الخيمة، يحمل فأسا وأمامه بضع شجيرات قطعها دون أن يشذبها، وأخذت أغصانها تهتز، كأنما هي تحتج على اقتطاعها، فقال بامفيل يوضح الأمر:

– لقد أعددتها من أجل ضيوفي الأعزاء: زوجتي وأولادي، أن الخيمة منخفضة، يتسرب المطر إليها بسهولة، وقد قطعت هذه الشجيرات لأعد منها سقفا.

– وهل تظن أنهم سيسمحون أن تقيم أسرتك في خيمتك، وهل حدث قبل ذلك، أن سمح للمدنيين من النساء والأطفال أن يقيموا داخل نطاق المعسكرات؟ أغلب الظن أنهم سيقيمون في مكان آخر، خارج المعسكر، وأن باستطاعتك أن تزورهم وتراهم في أوقات الراحة، على أنني أرجح أنهم سيسمحون لأسرتك بالإقامة معك في خيمتك بصفة خاصة، على أن ذلك ليس غرضي من الحضور، فقد قيل لي أن صحتك ليست على ما يرام، وأنك راغب عن الطعام والنوم، فهل حقا هذا؟ يبدو لي أنك في خير حال، ويمكنك أن تشذب شعرك.

ومما يجدر ذكره، أن بامفيل رجل ضخم الجسم إلى حد بعيد، ذو شعر أسود مشعث، ولحية كثة سوداء أيضا، وجبهة متعددة التجاعيد، وكان يبدو من منظره أنه جاحظ العينين.

وخشي القائمون على الثورة، في بدايتها، أن تبوء بالفشل، كما حدث عام ١٩٠٥، حين اقتصر تأثيرها على فئة قليلة من المثقفين، دون غيرهم من طبقات المجتمع الأخرى، ولذلك بذلت جهود جبارة لنشر فكرة الثورة بين جميع أفراد الشعب، لإشعال نار الحمية في نفوسهم.

لم يكن أمثال بامفيل بحاجة في تلك الأيام، إلى من يبث فيهم روح الكراهية والسخط على المفكرين والضباط، تلك الكراهية القاسية، فكان المتحمسون من اليساريين يعتبرونهم فئة نادرة فيكنون لهم أعظم التقدير، وكان إحساسهم الذي يتنافى مع مبادئ الإنسانية، دليلا على اقتناعهم بتفاوت الطبقات، كما كانت همجيتهم مثالا للغريزة الثورية، وقد اكتسب بامفيل بهذه الخلال شهرة واسعة، وصيتا عريضا، فوضعه رؤساؤه وقواده في المقام الأول بينهم.

وخيل ليوري، أن ذلك العملاق الزري، بانحلاله وميوله ونزعاته الشاذة، رجل وضيع، ليس في كامل قواه العقلية.

قال بامفيل:

– هيا بنا ندخل الخيمة.

– لماذا؟ أفضل أن نظل في الهواء الطلق، كما أنه لا يمكنني الدخول.

– كما تريد، إذن يمكننا أن نجلس على الخشب.

واتخذ مجلسيهما على الشجيرات الصغيرة، وراح بامفيل يسرد ليوري تاريخ حياته:

أن تاريخ حياتي طويل، وثلاث سنوات لا تكفي لكي أسرده تفصيلا، كما أنني لا أدري من أين أبدأ؟ على أنني سأحاول، فقد كنا شابين، زوجتي وأنا، وكان

عملها مقصورا على العناية بشئون البيت، وأعمل أنا في الحقول. كانت حياتنا لا بأس بها، ورزقنا أطفالا، ثم لبيت نداء الوطن، عندما استدعيت إلى الجيش، وذهبوا بي إلى جبهة الحرب، نعم، الحرب، وكيف أحدثك عنها؟! لقد رأيتها أنت أيها الرفيق الطبيب. وقد نشبت الثورة بعد ذلك، ورأيت كل شيء بوضوح، إذ كانت عيون الجنود متيقظة. من ذلك أننا عرفنا أن الأجانب لم يكونوا أعداءنا الوحيدين، بل كان لنا أيضا أعداء في الداخل. فأهبت بجنود الثورة أن يلقوا بنادقهم، وأن يعودوا إلى الوطن، ويحاربوا البرجوازيين وطبعا تعرف ذلك أيها الرفيق الطبيب وأعقب ذلك أن نشبت الحرب الأهلية، وانضممت إلى الأنصار وهنا، يجدر أن أصرف النظر عن بعض الأمور فأبترها من القصة، وإلا فلن تنتهي. وبعد كل هذا، ماذا أرى في وقتنا الحاضر؟ لقد سحب فرقة أورينبورج القوزاقية الأولى. فهل ظن أنني طفل؟ أنني لا أفهم؟ ألم أخدم في الجيش؟ حقا أنها مهنة رديئة أيها الطبيب، أنها توردنا جميعا موارد الهلاك ماذا يقصد ذلك الصلعوك؟ هل يريد أن يطوقنا، ثم يفينا برعاعه؟! أن لي زوجة وأطفالا صغارا، كيف يمكنهم أن يتقوا شره، أنهم أبرياء، ما في ذلك شك، ولكنه ذو قلب متحجر، بسببي سيعذب زوجتي وأطفالي، وسيقسو في تعذيبهم... ثم تسألني بعد ذلك لماذا لا أنام؟!. يمكن للإنسان أن يصير قطعة من الحديد الصلد، إذا فقد عقله!

– أنك صديق غامض يا بامفيل، أعترف أنني لا استطيع أن أفهمك. أنك بعيد عن أسرتك منذ سنوات، بل لم تكن تعلم أين هي، ومع ذلك لم يساورك شعور بالقلق عليها، والآن وهي قاب قوسين أو أدنى من الوصول إليك، حيث ستنعم برؤيتها، يبدو أنك تتحدث عن مأتمها، وكان الأجدر بك أن تتهلل بشرا.

– كان هذا من قبل يا عزيزي، أما الآن، فالأمر يختلف فقد تقرر مصيري، القبر مصيري. ولكن هل في مقدوري أن اصطحب معي أطفالي الأبرياء إلى العالم الآخر؟! أنهم سيكونون وحدهم، وسيقعون بين براثن وحشيته، سيعتصر دماءهم ويسموهم العذاب.

– أمن أجل هذا تهذى؟ بلغني أنك ترى أشباحا من الجن؟!

– لقد أخفيت عنك أهم الأخبار أيها الطبيب. ولكني سأخبرك بالحقيقة كاملة، مادامت هذه رغبتك، سأقولها الآن، حقيقتي أنا، ولكن لا تبتئس إذ أقولها أمامك.. لقد صرعت الكثيرين من أمثالك، وتلطخت يداي بدماء كثير من الضباط، وعلية القوم. فعلت ذلك دون رهبة أو وجل، فكنت أريق الدماء وكأنها ماء يسيل أمامي. لا أتذكر الآن اسماه ضحاياي أو عددهم، ولكن طفلا واحدا يلازم طيفه مخيلتي لا يبرحها، قتلته، هل تدري لماذا؟ لأنه أضحكني! أي دون جرم جناه، فكنت كالمجنون.. حدث ذلك أثناء الثورة في عهد كيرينكي، وكنا نقوم بحركة تمرد، قريبا من إحدى محطات السكك الحديدية. حيث كنا قد غادرنا الجبهة، فحضر إلينا شاب مشاغب، حاول أن يقنعنا بالتعقل والعودة إلى الجبهة، وأن نواصل القتال حتى النصر. لقد كان طالبا في المدرسة الحربية، وأخذ يلقي علينا محاضرة في الأخلاق، وكيف نكون صالحين، كان شعاره: "حاربوا حتى النصر". وقفز فوق برميل ماء، وأخذ يكرر هذا النداء. وكان البرميل على رصيف المحطة، فلما قفز فوقه، ليدعو إلى المعركة من مكان ظاهر، انقلب غطاء البرميل فجأة، فسقط الشاب في الماء الذي في البرميل، هل يمكنك أن تتصور كم كان مضحكا ذلك المنظر، كدت انفجر من شدة الضحك، وكانت بندقيتي في يدي، وقد أطاح الضحك برأسي، وبحركة لا شعورية، رأيت نفسي أرفع البندقية، وأصوبها نحوه، ثم أطلق النار عليه! ولا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أتصور كيف حدث هذا، وكأن قوة خفية دفعتني إلى قتله... أن هذا هو سبب هذياني، على ما أعتقد، ليلا، حيث يتراءى لي منظر تلك المحطة، وفيما مضى، كنت لا أفكر في ذلك الذي حدث، أما الآن، فإنه يرهق أعصابي...!

الفصل الحادي عشر

شجرة الزيزفون

وأخيرا وصلت عائلات الأنصار، بأطفالها، ومتاعها. وتحركت القوة، تتبعها قافلة العائلات، وسار في المؤخرة خلف العربات، آلاف من رءوس الماشية وقطعان البقر.

ووصلت منع النساء امرأة اسمها زليداريخا، وهي زوجة أحد الجنود، ولكنها كانت شخصية ممتازة، فهي تتقن فني السحر والطب البيطري، وقد علت رأسها قبعة كبيرة وارتدت معطفا عسكريا أخضر اللون، كان مخصصا للحاكم.

وكان المعسكر الجديد يختلف عن القديم، فقد كان في وسط غابة كثيفة يتعذر اختراقها، فكان المعسكر لذلك محصنا تحصينا طبيعيا. ولما لم يكن لدى يوري، في الأيام الأولى، ما يشغله، فقد انتهز الفرصة، وأخذ يجوب أرجاء الغابة، ويكتشف معالمها. وقد تبين له أن من السهل أن يضل المرء طريقه فيها، كما لفت انتباهه مكانان فيها، ظلا عالقين في ذاكرته.

كان المكان الأول، حافة الغابة التي تقع خارج المعسكر مباشرة. وكان الوقت خريفا، وقد خلت الأشجار من أوراقها، فأصبح من السهل أن تتبين ما أمامك عندما تجيل النظر. وقامت في المكان شجرة زيزفون، منتصبة، لا تجاورها أشجار أخرى، وكانت وحدها قد احتفظت بأوراقها وضنت بها من السقوط، وقد شمخت في الفضاء، بثمارها المستديرة، وكأنها تتحدى الخريف الذي لا يرحم. ومن وقت لآخر، تحط على الشجرة، أسراب من العصافير الصغيرة الجميلة، تنقر الثمار، وتتخذ منها غذاء لها.

أما المكان الثاني، الذي جذب انتباه يوري، فكان أشد روعة، فقد كان فوق مرتفع، ينحدر في شدة من أحد الجانبين، فإذا نظرت إلى أسفل، رأيت منظرا كأنه سراب أو جدول، أو حقل يزخر بالأعشاب، وهو في الواقع صورة للأصل، ولكن العمق الشديد حوله إلى سراب. وقد يخيل إليك أن الغابة كلها تقع في ذلك العمق، وأن رءوس أشجارها أضحت تحت مستوى قدميك. ولعل زلزالا كان قد حدث في ذلك المكان، فخلف ذلك الانحدار، فتراءت الغابة وكأنها في مستوى الغيوم، ثم تدحرجت إلى أسفل، حتى استقرت في مكانها.

والعجيب، الذي بعث الدهشة في نفس يوري، وبهره جماله، أنه كان يحيط بالمرتفع، على مدى طوله، سور من الجرانيت، انتصبت صخوره على أطرافها، وقد ظن يوري لأول وهلة، أنها من صنع البشر، وأنها أحد المعابد الوثنية كانت تقام فيه الصلوات وتقدم الذبائح.

في هذا المكان، وفي صباح يوم بارد مشئوم، نفذ حكم الإعدام في اثني عشر شخصا ممن تزعموا المؤامرة، كما أعدم اثنان من الممرضين لإدانتهما في تهمة تهريب الفودكا.

سار المحكوم عليهم بالإعدام إلى ذلك المكان، تتبعهم نخبة من رجال الأنصار، من بينهم بعض الحرس الخاص بالقائد وما أن وصلوا، حتى التفوا حولهم في نصف دائرة، ثم أخذوا يتقدمون وقد صوبوا إليهم فوهات بنادقهم. وبذلك جعلوهم أمام الأمر الواقع الذي لا مفر منه، فإن هم تراجعوا إلى الخلف، ابتلعهم المنحدر، وصاروا من الهالكين.

وبدا المحكوم عليهم كالأشباح، من طول السجن وقسوة التعذيب والاستجواب المتواصل، فاختفى مظهرهم الإنساني بين شعرهم الطويل، وعيونهم

الزائغة، ووجوههم الكالحة وكانوا قد جردوا من سلاحهم عندما اكتشف أمرهم، فلم يخطر على بال أحد أن يعيد تفتيشهم قبل تنفيذ حكم الإعدام فيهم.

وفجأة، أطلق رجانيتسكي، وهو صديق فدوفيتشنكو، وكان يسير إلى جانبه، وكان مثله فوضويا قديما، ثلاثة أعيرة نارية على الحرس، سددها بالذات، نحو سيفوبليوي.

وقد اشتهر بالمهارة في إصابة الهدف، إلا أن يده اهتزت ولعل ذلك لشدة انفعاله، فأخطأه. وتدخل عامل الشفقة على الرفاق القدامى، فمنع الحرس من الانقضاض على الجاني والفتك به. وكان لا يزال في مسدسه رصاصات ثلاث، وانتابته حالة ذهول لفشله، أو لعله– لاضطرابه– نسى الموقف، فألقى بالمسدس على الصخور، فانطلقت منه رصاصة، أصابت أحد المحكوم بإعدامهم، اسمه باشكوليا في قدمه، فسقط يتلوى من الألم، وأخذ يصرخ، وقد أمسك بقدمه، وعاونه الرجلان الواقفان إلى جانبه واسمهما بافنوتكين وجورازديخ، ورفعاه من ذراعيه، حتى لا يجهز عليه رفقاؤه الذين لا يعلمون من الأمر شيئا. وعجز باشكوليا عن وضع قدمه التي أصيبت، على الأرض، فاضطر أن يقفز، وهو يعرج إلى الحافة الصخرية، التي سيق نحوها المحكوم بإعدامهم، وأخذ ينتحب. وكأن بكاءه عود ثقاب، أشعل الشجون في نفوس رفاقه، فأفقدهم رباطة الجأش. فأخذوا جميعا يتوسلون ويشتمون في وقت واحد، يطلبون الرحمة ويلعنون، يبكون ويصلون.

وفي هذه اللحظة، ألقى الشاب جاليولين قبعته، وانحنى راكعا على ركبتيه، وتقدم– وهو راكع كسائر زملائه– من الصخور الرهيبة، وأخذ ينحني بضع مرات تحت أقدام الحرس، ثم صاح بصوت مدو:

– أيها الرفاق، الرأفة، الرأفة، سامحوني أيها الرفاق أنني نادم، لن أعود إلى ذلك بعد الآن، أطلقوا سراحي، ولا تقتلوني، فأنا لا أزال شابا، وأريد أن أعيش،

أريد أن أرى أمي، دعوني أيها الرفاق، وأعفوا عني، سأفعل كل ما تأمرونني به، أنني أقبل الأرض، النجدة، النجدة. لقد انتهيت يا أماه..!

وما أن انتهى من تضرعاته، حتى ردد شخص آخر، كان مختبئا وسط الرفاق:

– الرحمة فوق العدل أيها الرفاق، لا يمكن أن تكون قلوبكم قد قدت من صخر، فأنتم رحماء طيبون... لقد اشتركنا معا، جنبا إلى جنب، في حربين، من أجل غرض واحد، وقضية واحدة، ألا يشفع لنا ذلك لكي تراقوا بنا وتطلقوا سراحنا، سنحفظ لكم جميلكم، وسنذكره طول حياتنا، وستثبت الأيام لكم ذلك. ألسنا مسيحيين، لماذا أراكم لا تجيبون؟!

أعقب ذلك، أن انفجر آخرون، فصاحوا في وجه سيفوبليوي:

– أنك يهوذا! الذي سلم المسيح لليهود، فهو لهذا قاتله... إن كنت تعتبرنا خونة، فأنت أكثر منا خيانة، أيها الوغد، أنك تستحق القتل! أقسمت يمين الولاء لقيصرك، ثم غدرت به، وقتلته، وأقسمت يمين الوفاء والإخلاص لنا.. ثم خنتنا..! اذهب، فعما قريب، ستمثل نفس الدور مع رجل الغابة!

والوحيد، الذي ظل رابط الجأش، محتفظا بثباته، هو فيدوفتشنكو، فقد ظل حتى وهو على أبواب القبر، معتزا بنفسه، وقد شمخ بأنفه، ورفع رأسه، وشعره الأغبر يتطاير في الهواء. وبرباطة جأش، صاح في زميله رجانيتسكي، يحدثه حديث الند للند:

– لا تمتهن نفسك، ولا تذلها، تضرعك أو احتجاجك إن هو إلا موجات يرددها الهواء، ولن تصل إلى قلوب هؤلاء الجلادين، أنهم لم يفهموك أبدا! على أنه لا يجدر بك أن تفقد الأمل. والتاريخ كفيل بكشف الحقيقة. أننا نموت الآن شهدا في سبيل المثل العليا، في فجر الثورة العالمية، فلتحي ثورة الفكر، فلتحي الثورة العالمية!

ودوت في الفضاء أصداء عشرين طلقة، بناء على أمر تلقاه الرماة، ولم يسمعه أحد سواهم، فجندلت نصف المحكوم بإعدامهم فورا، وقتل الباقون بطلقات أخرى، وانتفض جاليولين، ثم لفظ آخر أنفاسه.

فكر الأنصار في الانتقال إلى مكان آخر، نحو الشرق، يكون أكثر ملاءمة لتمضية فصل الشتاء. فأرسلوا الدوريات تتفقد المنطقة، من وراء الطريق العام، حيث كانت المياه تغمر البقاع، ولكنهم عدلوا أخيرا عن فكرة الانتقال. ولكن ليبريوس أخذ يتغيب كثيرا تاركا يوري بمفرده.

وفي هذا الوقت توجه يوري لزيارة بامفيل وأسرته، وكانت أسرته وأطفاله قد أمضوا فصل الصيف، مشردين في الطرقات، يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، وقد أخذ منهم الرعب والإجهاد بسبب ما قاسوه من آلام وأهوال. وقد طبعهم هذا التشرد بطابع أليم لازمهم مدى الحياة، فقد اصطبغ شعر الزوجة والابنة والابن الصغير، تحت تأثير آلام السجن بلون أصفر باهت، وابيضت حواجبهم، وكأن الشيب لحقهم، فأضحت ظاهرة تعلو وجوههم التي أرهقها الإجهاد فاسودت. واستطاع الأطفال أن يتحملوا آثار هذه التجارب القاسية، أما الأم، فقد صار وجهها كالحا كوجوه الأموات المصفرة. فقد أخنى عليها الخوف والإرهاق فزما شفتيها إلى بعضهما، وتصلبت ملامح وجهها، فأصبحت جامدة جمود الصخر، كما تحجرت عيناها، فأصبحتا لا تعبران إلا عن الألم والاستسلام.

وكانت زوجة بامفيل وأطفاله كل شيء في حياته، كرس لهم نفسه، وأحبهم حب العبادة، وقد دهش يوري لما كان يبتدعه بامفيل من ألعاب مختلفة ليسري بها عن أولاده ويسليهم.

وشملت بامفيل الطمأنينة لاجتماعه بأسرته، فتحسنت حالته المعنوية والصحية معا. على أنه ما لبث أن اغتم، وعاوده شروده، حين علم أن وجود

العائلات أمر غير مرغوب فيه، لأنه مخيل بالنظام. وعرف أن النية متجهة إلى ترحيل العائلات، إلى مخيمات بعيدة عن المعسكر، تحت الحراسة. وبالرغم من أن يوري ألقى إلى مسامعه– كي يهدئ من روعه– أن مثل هذا الإجراء قد لا ينفذ، أو هو بعيد التنفيذ، فإن بامفيل لم يصدق، وانهارت أعصابه، وعاوده شرود الذهن

***

مرت بالمعسكر– قبل حلول الشتاء– فترة من الاضطرابات والقلق، وحدثت أمور غامضة تنذر بالأخطار. فقد استطاع الجيش الأبيض تطويق الأنصار، وفقا لخطة رسمت لهذا الغرض، وضعها نخبة من القواد المهرة، منهم الجنرال كادري، والجنرال فيتسين، والجنرال باساليجو، وهؤلاء اشتهروا بقسوتهم وصرامة قراراتهم، فكان مجرد ذكر اسمهم يبعث الرعدة في قلوب اللاجئين، وسكان القرى على السواء ووقع الأنصار في مأزق، فكان لزاما عليهم أن يفكروا في الأمر. وأدركوا أن السكون من جانبهم، يشدد عزائم العدو، ومهما كانت تحصيناتهم، فيجب أن يوفقوا إلى مخرج من هذا المأزق، ولو بطريقة تظاهرية.

وحشدت قوات هائلة، لمواجهة التطويق، ودار قتال عنيف لبضعة أيام، انتصر فيه الأنصار، وتمكنوا من فتح ثغرة، والنفاذ منها إلى مؤخرة الجيش الأبيض.

وكانت هذه الثغرة، مفتاح الطريق إلى المخيم، ولدهشة الأنصار، وجدوا أفواجا من اللاجئين، من سكان القرى المجاورة، هاجروا من بيوتهم، بعد أن قاسوا ألوانا من العذاب على أيدي الجيش الأبيض، فأخذوا يلوذون بالأنصار، ويلتمسون حمايتهم.

ولكن الجيش الأبيض استطاع أن يسد الثغرة التي فتحها الأنصار في مواقعه، فأصبح من المتعذر على القوة التي اخترقتها، أن تعود إلى أماكنها.

وقامت النساء اللاجئات، بأعمال باهرة، تدل على سعة الحيلة، أفادت الأنصار فائدة عظمى، فكن يقطعن الأشجار، ويقمن الطرقات والجسور لتسهيل تحركات الأنصار، كما كن يضعن العراقيل أمام الجيش الأبيض. على أنهن كن يضعن في أرجاء الغابة، رغم البحث عنهن.

وتعارض ما فعله الأنصار، مع ما قصدت إليه قيادتهم، مما أدى إلى فشل الخطة التي وضعها ليبريوس.

وأخذته بسبب ذلك نوبة من الغضب، وهو يتحدث إلى سفيريد، الصياد، بجانب الطريق. بينما أخذ فريق من ضباطه، وقفوا في الطريق، بالقرب من ليبريوس، يتشاورون في إتلاف أسلاك التلغراف. ولكنهم لا يستطيعون أن يقدموا على أي عمل، دون استشارة ليبريوس الذي كان لا يزال منهمكا في حديثه، فأومأ إليهم أن يتريثوا.

كان قتل فيدوفتشنكو صدمة قاسية لسفيريد، الذي كان يعتبر أن جريرته الوحيدة، أنه ينافس ليبريوس نفوذه، وأنه مصدر لبذر الشقاق في المعسكر، وود سفيريد من أعماقه أن يتخلى عن الأنصار، وأن يعيش حياته الخاصة المستقلة، ولكن الأمر ليس بيده الآن، فقد رسم طريقه، والخروج على الجماعة، معناه النهاية والإعدام.

وسفيريد، كان أحد الذين بعث بهم في أثر اللاجئات، وقد رأى من الفظائع ألوانا، كما شاهد الفوضى التي عمت بسبب الأوامر المتناقضة، وكان بوده أن يبصر قائده بما رآه، فقد اقترف بعض العناصر فظائع أليمة مع النساء، حتى انهارت أعصابهن، فقد أجبرن على السير، وهن حاملات على رءوسهن وأكتافهن المتاع والأطفال، فأرهقهن التعب والإجهاد، وغاض حليبهن، فطاشت عقولهن من هول ما يعانين، فتركن الأطفال، وألقين الأكياس، وقررن أن يقفلن راجعات، ذاكرات

لأنفسهن أن الموت السريع أفضل مائة مرة من الموت البطيء. ولذلك فضلن أن يرتمين بين أيدي العدو، لأن ذلك خير من وقوعهن فريسة بين أنياب حيوانات الغابة المفترسة.

على أنه كان هناك رهط آخر من النساء، أقوى عزيمة، وأشد جلدا، وأكثر شجاعة وضبط نفس، يتفوقن بها على الرجال.

امتلأ رأس سفيريد بكثير من هذه الأنباء، وقد أراد أن يضعها بين يدي قائده، كما أراد أن ينبهه ويحذره من عصيان آخر متوقع، أشد خطرا مما سبق، ولكن ليبريوس، لم يترك له فرصة للكلام، ليس بسبب إخوانه الضباط الذين كانوا ينتظرون مشورته، ولكن لأنه كان قد تلقى كثيرا من أمثال هذه التحذيرات في الأسابيع القليلة الماضية.

***

الغابة واسعة الأرجاء، لا يحدها البصر، وقد نشب قتال على حدودها الغربية، فبدأ كأنه مناوشات. وقد اكتظ المعسكر بالناس الذين احتشدوا فيه، حتى لتظن أن عدد من به لا ينقص، بالرغم مما يخرج منه إلى جبهة القتال.

وكان صخب المعركة يترامى من بعيد إلى المعسكر. ثم دوت في الغابة بضع طلقات، تتابعت متقطعة، واستحالت فجأة إلى طلقات سريعة، فهرول الحشد إلى الخيام والعربات، وعم الهرج، وانتاب الجمع نوع من الهياج، فاستعدوا للقتال.

كانت حركة تمويهية، ولكن بعضا من الجماعة تدافع صوب المكان الذي أطلقت منه النار.

وذهل أفراد الجماعة إذ وجدوا أنفسهم يقفون أمام رجل ملقى على الأرض، تنزف منه الدماء، وقد بترت ذراعه اليمنى، وساقه اليسرى. وأدهش الجماعة، كيف

تمكن رجل على هذه الحال، أن يزحف صوب المعسكر، بيده وقدمه الباقيتين! كما أذهلها أن تجد الذراع والساق المقطوعتين، والدماء تغمرهما، مشدودتين إلى ظهره، بلوح من الخشب، كتب عليه: "هذا نوع من القسوة، ردا على الفظائع التي اقترفتها الوحدة الحمراء"- على أنه لم تكن لهذه الوحدة، في الواقع، أية علاقة بإخوان الغابة. كما كتب أيضا على اللوح الخشبي: "ستطبق هذه المعاملة على الأنصار، إذا لم يستسلموا في موعد معين، ويطرحوا أسلحتهم، ويسلموها إلى ممثلي الجيش الأبيض".

أخذ الرجل الذي يحتضر، يلتقط أنفاسه بصعوبة، ويتحدث بكلمات لاهثة متقطعة، ويغيب عن وعيه بين آونة وأخرى، لغزارة ما نزف من دمائه. فوصف ألوان التعذيب التي يقوم بها رجال فيتسين، وأنهم كانوا قد حكموا عليه بالإعدام، ولكنهم عدلوا عن ذلك، وفضلوا أن يبتروا ذراعه، وساقه، ثم رأوا أن يبعثوا به إلى المعسكر، لينشر الذعر في نفوس الأنصار. وأنهم نفذوا ذلك، فأتوا به إلى مشارف المعسكر، ثم أجبروه على أن يزحف، مستعينين في ذلك، بإطلاق النار لإرهابه.

وخارت قوى الرجل، فأصبح يحرك شفتيه في صعوبة شديدة مما اضطر الناس أن ينحنوا فوقه، كي يلتقطوا كلماته المتقطعة، وهو يقول:

معركة شديدة تدور... لنمسك به... خرجت الدوريات... بقواتها الهائلة... يريد أن يأخذكم على غرة... لا أستطيع الكلام... أكثر من ذلك... أني أبصق دما... وسألفظ آخر أنفاسي...

- ... لقد تغلغل... أحذروا... أيها الرفاق... أن

- أهدأ، وخذ قليلا من الراحة، أن انكبابكم عليه يكاد يخنقه أيها الملاعين، هل أجدبت قلوبكم من الرحمة؟!

وعاد الرجل يلتقط أنفاسه بصعوبة، وراح يقول، وهو يلهث:

– لتنزل اللعنة على ذلك الشيطان... أخذ يستجوبني، ويقول:

"سأجعلك تسبح في بركة من دمائك، إذا لم تذكر اسمك!"

وكيف كان يمكنني أن أظهر له شخصيتي...! فقد كنت هاربا منه... في طريقي إليكم.

– أنك تكرر لفظ "هو" من تقصد؟

– مهلا.. دعوني ألتقط أنفاسي... سأوضح كل شيء... هتمان، والكولونيل بيكيتسين، وستريسي، من رجال فيتسين... لا يمكنكم أن تتصوروا مبلغ قسوتهم... المدينة بأجمعها تئن تحت نيرهم... أنهم يسلقون الناس وهم أحياء، يقطعون أوصالهم إربا، أنهم يطبقون على الشخص، من عنقه، ويدفعونه إلى الداخل... إلى المجهول... مكان مظلم، تتحسسه، فإذا هو قفص داخل غربة، احتشد به خمسون رجلا... ويا ويل من يقع في قبضتهم... فهو إما أن يشنق أو تطلق عليه النار، أو يستجوب، مع الاستعانة على الاستجواب بالضرب، حتى لا يبقى في الجسد جزء دون جرح، ثم يملئون الجراح بالملح ويصبون فوقها الماء الساخن في درجة الغليان... وإذا تقيأ الشخص، أو قضى حاجته، من شدة الكرب والألم، واضطروه أن يبتلع ما تقيأه أو ما تبرزه... أما النساء والأطفال... فلا أستطيع أن أصف ما يصيب هؤلاء المنكودين، فإنه مما تقشعر له الأبدان!

وما أن وصل المسكين إلى هذا الحد من حديثه اللاهث، حتى انهارت أعصابه، وخارت قواه، وصرخ صرخة مدوية، ثم أسلم الروح، دون أن يتم حديثه.

وإذ رأى الجمع ذلك، رفعوا قبعاتهم، أمام جلال الموت، ثم رسموا شارة الصليب على صدورهم، ثم طأطئوا رءوسهم خاشعين.

وانتشر في المخيم، في تلك الليلة، أنباء حادث أشد هولا.

لقد كان بامفيل أحد الجماعة الذين أحاطوا بالرجل المحتضر، وقد رآه بعيني رأسه، وسمع حديثه، كما قرأ التهديد المسطر على اللوح الخشبي. فتملكه ذعر وخوف شديدان، على عائلته، بعد موته، أكثر من ذي قبل، وتراءى له أنهم يسومون زوجته وأطفاله ألوان التعذيب، وتراءت له وجوههم وقد أخذت تتقلص، بل خيل إليه أن أنينهم وصراخهم يطنان من أذنيه، يطلبون النجدة.

وما أن وصل إلى هذا الحد من خيالاته، حتى تملكه يأس أليم، ورأى أن يجنبهم العذاب الذي تخيله، كما رأى أن يضع حدا لعذابه هو، فعمد إلى قتلهم بنفسه، فأرادهم جميعا، زوجته وأطفاله، بالفأس الحادة نفسها، التي كان يصنع بها ألعابا يسلي بها ابنه الحبيب وطفلتيه العزيزتين.

على أنه لم يبادر إلى قتل نفسه فورا! ترى ماذا كان يجول بخاطره؟ وماذا كان ينتظر؟ بل ماذا كان يريد بعد ذلك؟! لقد كان في حالة ذهول، بل في حالة جنون ميئوس من شفائه.

واجتمع ليبريوس، ويوري، وأعضاء مجلس الجيش، ليناقشوا فيما عساه أن يتبع نحوه، فراح هوي هيم على غير هدى، في أرجاء المعسكر، وقد تدلى رأسه فوق صدره، وأخذت عيناه الصفراوان، تحدقان في الفضاء، دون أن يبدو عليهما أنهما تبصران، وقد تقلصت عضلات وجهه، فعبرت عن ألم عميق، انطبع على وجهه، ولازمه. ولم يشفق عليه أحد، بل تجنبه الجميع، حتى أشار بعضهم إلى إعدامه، ولكنهم لم يقرروا ذلك.

وعند الفجر، اختفى من المعسكر، هاربا من نفسه، بعد أن لم يبق أمامه في العالم أمل.

***

حل الشتاء ببرودته وجليده، وأخذت تصدر من الضباب المتكاثف أصوات غريبة، وأشكال مختلفة، وهي تتحرك ببطء تارة، وتتوقف تارة أخرى، ثم ذاب جليدها. ولم تكن الشمس كالعهد بها في الصيف، تتألق، وتلقي أشعتها الذهبية في قوة واعتداد، بل حلقت فوق الغابة قرمزية اللون، انبعثت منها أشعة باهتة، تلقي بنفسها فوق الأشجار، فأضفت جوا حالما في الغابة.

وأخذ القوم يسيرون، وقد انتعلوا أحذية لبادية، تضرب في الأرض دون أن يصدر عنها صوت ينبئ أن هناك أناسا يسيرون، ولكنها كانت تدغدغ الثلج في سيرها، وراحت الأجساد المكتسية بالفرو، تتهادى. ثم توقف الجمع عن المسير، وأخذ الإخوان يتحدثون، تقترب وجوههم الحمراء من بعضها، حتى كانت لحاهم تلامس بعضها، وتتصاعد من أفواههم غيوم من البخار.

والتقى يوري، وهو يسير على هدى الطريق التي طبعتها الأقدام، بليبريوس، فقال له هذا:

– مرحبا بك، في هذه الغربة! أنني أدعوك إلى مغارتي في هذه الليلة، لتقضيها معي، لنتحدث طويلا، ففي جعبتي كثير من الأخبار.

– هل وصل البريد؟ وهل به أنباء من فاريكينو؟

– مطلقا... لا خبر من أسرتك أو أسرتي، وهذا يبعث في نفسي الطمأنينة، أنني أفهم من ذلك، أنهم ابتعدوا عن مواطن الخطر في الوقت المناسب، وإلا لكانت قد وصلتنا أنباؤهم، على العموم سنتحدث عن ذلك الليلة، وسأكون في انتظارك.

وبر يوري بوعده، وتوجه إلى ليبريوس، وكان أول سؤال وجهه إليه:

– خبرني بالضبط عن أنباء عائلتينا.

– لماذا تحصر تفكيرك في أفق ضيق؟! أنها على ما أعلم آمنة لم يصبها ضر، ولكن هناك أخبارا هامة، هل لك في شريحة من اللحم؟

– ليست بي رغبة، وشكرا، إنما أرجوك ألا تغير الموضوع.

– لماذا ترفض مشاركتي الأكل، سأتناول أنا قطعة من اللحم، ولو أننا أحوج ما نكون إلى الخبز والخضر. وددنا أن نزيد مئونتنا من الجوز وأثمار الخريف... ألا تعرف أننا نسير من حسن إلى أحسن، وأن كل ما توقعته، قد حدث فعلا. وأن الظروف السيئة قد زالت، فإن كتيبة كولتشاك تتقهقر وتنسحب، ومعنى ذلك، الهزيمة، أتذكر ما كنت أردده على سمعك، بينما كنت أنت تتذمر؟

– متى رأيتني أتذمر؟!

– دائما، وخصوصا عندما أرهقنا فيتسين بهجومه.

وعلى الفور، تواردت في ذهن يوري، ذكريات الخريف، وإعدام العصاة، وكيف أقدم بامفيل على قتل زوجته وأطفاله، وتلك المعارك التي بدت كأن ليس لها نهاية، وكانت وحشية الجيش الأبيض، لا تقل في قسوتها وضراوتها عن وحشية الحمر، فالإهانة تقابلها إهانة، والقتل يقبله قتل، والانتقام يقابله انتقام. وأحس يوري برائحة الدم تنفذ إلى خياشيمه، فشعر بدوار، أوشك أن يجعله يتهالك، ثم أخذت عيناه تزوغان... فهل كان ذلك تذمرا؟، كما ظنه ليبريوس، لقد كان شيئا آخر غير التذمر، وهل كان باستطاعته أن يوضح له الأمر؟!

كانت المغارة مضاءة بمشاعل قائمة على حوامل معدنية، يرسل اشتعالها رائحة عطرية، وكلما احترق مشعل، وتحول إلى رماد، كان يسقط في وعاء مملوء بالماء، فيشعل ليبريوس غيره.

– ماذا أشعل؟! لقد نفد الزيت، ويشتعل الخشب بسرعة لأنه جاف، ألا تريد حقا شريحة من اللحم؟ ماذا تنتظر إزاء داء الجدري، ألا يجدر بك أن تدعو القادة إلى اجتماع، تلقي فيه محاضرة عن كيفية الوقاية منه، واتقائه!

– ماذا جنيت، بالله، حتى تصر على تعذيبي، لماذا لا تخبرني بأنباء ذوينا؟

– لقد ذكرت لك أنه ليس في التقرير أية إشارة عن ذلك. على أنني عرفت، من البلاغات الأخيرة، أن الحرب الأهلية، قد توقفت رحاها، وأن قوات الكولتشاك مزقت شر ممزق، وأن جناحا كبيرا من الجيش الأحمر، يطاردها في انسحابها نحو الشرق، على مدى السكة الحديدية صوب البحر. وأن قسما آخر يسرع في ذلك الاتجاه، وسنجمع كل قوانا، لنضرب الضربة القاضية، فنشتت مؤخرة الجيش الأبيض. لقد تطهر الجانب الأكبر من الروسيا الجنوبية من الأعداء، ألا يكفيك هذا؟! ألا يسرك هذا؟!

– كل ذلك يملؤني بهجة وسرورا، ولكني أريد أن أطمئن، وأن أعرف أين توجد عائلاتنا؟

– ومن حسن الحظ أنها ليست في فاريكينو، ولم يقم أي دليل على الأحداث المزعجة التي أنبأك بها كامينودفورسكي، لقد كان ما قيل مجرد إشاعة كاذبة، من أن أناسا مجهولين اقتحموا فاريكينو في الصيف الماضي، وكانت هذه الإشاعة في نظري مجرد هراء، لسبب بسيط، هو أن القرية كانت مهجورة، لأمر ما، وذلك لحسن حظ سكانها، إذ غادروها في الوقت المناسب.

– وماذا حل بيوريانتين؟ وفي أيدي من هي الآن؟

– وهذا أيضا هراء وخرافة، ولا يمكن أن يكون حقيقة بحال من الأحوال.

– ما هو؟

– ما يشاع من أن البيض يرابطون هناك، أن هذا مستحيل، سأقنعك، وستتأكد من ذلك بنفسك.

وتناول ليبريوس مشعلا آخر، وضعه في الحامل، ثم أخرج من مستنداته خريطة، نشرها أمامه، فظهرت فيها المنطقة التي يتكلم عنها، وأخذ يوضح الموقف، والقلم بين أصابعه.

– هل ترى؟ هذه هي المواقع التي هزم فيها الجيش الأبيض، في كل هذه الأمكنة من المنطقة، هل ترى؟

– نعم.

– يتضح لك من ذلك، أنه ليس بإمكانهم، بحال من الأحوال، أن يكونوا في مكان بالقرب من يوريانتين، لأنهم في هذه الحالة، يصبحون أسرى، حيث قطعت مواصلاتهم. وقادتهم ليسوا من الغباء، بحيث لا يدركون ذلك، مهما كانت قلة خبرتهم وكفاءتهم. أراك ترتدي معطفك! هل تنوي الذهاب؟

– أنني مضطر للعودة بعد فترة قصيرة، فإن الدخان هنا كثيف، وقد أصبت بالصداع، سأخرج لأتنسم بعض الهواء.

وما أن خرج يوري، حتى أزاح نتف الثلج عن قطعة الخشب، التي كانت تستعمل كمقعد عند المدخل، ثم جلس عليها، وقد اتكأ بمرفقيه فوق ركبتيه، واشتمل رأسه بين كفيه.

تبخرت من ذهنه، جميع ذكريات الغابة، والمعسكر، والعشرين شهرا التي قضاها بين الأنصار في تنقلاتهم، ومعاركهم، وازدحم ذهنه، بدلا من ذلك كله، بذكريات أسرته العزيزة الحبيبة إلى نفسه. وقدح زناد فكره، عله يتنبأ بمصيرهم، ومرت بذهنه عدة صور، كانت كل منها أشد هولا من الأخرى.

هذه زوجته الحبيبة، تونيا، تسير في أحد الحقول، تهاجمها عاصفة هوجاء، وهذا ابنه الحبيب ساشا، وقد حملته بين يديها، تحاول أن تدرأ عنه خطر العاصفة، فتغطيه بدثارها، وقد أخذت قدماها تغوصان في الثلج، فتجعلان سيرها عسيرا حتى تضطر إلى الاستماتة في السير، ولكن العاصفة تقهرها، فتلقي بها أرضا، أنها تنهض بعد أن تتعثر، وتقع، وهي ليست من القوة، بحيث يمكنها تحمل ذلك، الثلوج تغمرها، والرياح تصفعها... أه...

ما أشد تعاسته!! لقد غاب عن ذهنه أن معها طفلين، ترضع أصغرهما، فهي لا تدري ماذا تفعل، بل هي أقرب ما تكون، في حالها هذه، إلى اللاجئات، اللواتي تتحطم أعصابهن، وتنهار قواهن، ويصبن بالجنون، وذلك نتيجة محتومة للألم والحزن والإرهاق.

أنها لتنوء بعبء نفسها وطفليها، وليس إلى جانبها معين، فزوجها، أبو ساشا، وهو أقرب الناس إلى قلبها، وأجدرهم بالمبادرة إلى معونتها، قد احتجب، وغاب، ولا تعرف إن كان حيا أو ميتا، أنه بعيد، بل بقي طول حياته بعيدا... أنه يتساءل أي نوع من الآباء هو؟! وهل يجدر بالأب، مع ما في هذه الكلمة من معنى سام عميق، أن يكون بعيدا؟! ثم ماذا عن والد تونيا؟! ابن الكسندر الكسندروفيتش؟ وأين نيوشا، وأين الآخرون جميعا، لعل من الأفضل ألا يفكر في ذلك!

وإذ وصل يوري إلى هذا الحد من التفكير، انتصب واقفا، واستدار ليعود إلى المغارة. وفجأة عدل عن ذلك، إذ سبحت به أفكاره إلى وجهة أخرى.

لقد احتفظ منذ زمن بعيد، بصندوق من البسكويت، وزوجين من الزحاف، وأشياء أخرى مختلفة، كان يرمي إلى الانتفاع بها إذا اضطر إلى الهرب، وكان قد دفنها تحت الثلوج، خارج المخيم، عند جذر شجرة من أشجار الصنوبر الباسقة. ولكي يحفظ مكانها في ذاكرته، حفر علامة على الشجرة.

أخذ يوري يسير في الطريق الذي خطته الأقدام على الثلوج، ميمما شطر كنزه المدفون. وكان القمر مكتملا، والليلة صافية الأديم، وقد تجنب الحرس، إذ كان يعرف أين يكمنون، وما أن وصل إلى شجرة الزيزفون، حتى لمحه أحد الحراس من بعيد، فصرخ به، وركض على زحافتيه، حتى صار أمامه، فوقف منتصبا، وحدق فيه، ثم قال:

– مكانك، لا تتحرك، وإلا أطلقت عليك النار، من أنت؟ قل كلمة السر؟

– ماذا أصابك أيها الرجل؟! ألا تعرف من أنا؟! ألا تعرف طبيب المعسكر؟ الدكتور زيفاجو!

– أعتذر أيها الرفيق زيفاجو، لقد غبت عن ذهني، ولا أقصد تجريحك... لا يهمني إن كنت زيفاجو، أو غيره... لن أدعك تتقدم قيد أنملة... والأوامر يجب أن تحترم.

– على رسلك... كلمة السر هي "سيبيريا الحمراء" وجوابها: "ليسقط الدخلاء".

– حسنا، لك أن تذهب الآن، ولكن ماذا يدعوك إلى الحضور إلى هذا لمكان في هذا الوقت المتأخر من الليل؟! هل تعود مريضا؟

– لم أستطع أن أنام، بسبب الظمأ، فخطر لي أن أخرج لأتنسم هواء الليل العليل، وأروي ظمئي ببعض الثلوج. وقد استهوتني شجرة الزيزفون، بأثمارها الناضجة المثلجة، فرأيت أن أقصدها، وأحصل على بعض ثمارها.

– أنك تخرف أيها الرجل، هل تثمر الأشجار في الشتاء؟! أننا نحاول، منذ سنوات ثلاث، أن نجعلكم تعقلون، ولكنكم تصرون على التمسك بخرافاتكم وأوهامكم!... اذهب أيها المعتوه، لتجمع ثمارك... ماذا يهمني أنا من هذا؟!

واستدار الحارس، وعاد بمثل السرعة التي جاء بها، فانتصب على زحافتيه، وأخذ يصفر، وهو يسير فوق الثلوج، حتى اختفى خلف الشجيرات والأعشاب.

وعلى ضوء معالم الطريق، وصل يوري إلى شجرة الزيزفون، فوجد أن جزءا كبيرا منها كسته الثلوج، وقد تجمدت ثمارها وأوراقها، وقد تدلى بجانبه غصنان من أغصانها، أبيضان، فبعثا في نفسه ذكريات جعلت الدفء والحنان يسريان في بدنه، إذ تذكر ذراعي لارا البضتين، فجذب الغصنين إلى صدره، مما أدى إلى سقوط الثلج فوقه، وفي ذهول، دون أن يعي ما يقول، أخذ يتمتم:

– سألقاك أيتها الحبيبة الفاتنة... يا معبودتي... أنت كل شيء لي في الحياة!

وتوغل بعيدا في الغابة، وقد سطع القمر في أوج اكتماله، والليل صاف، النسيم عليل، حتى وصل إلى الشجرة التي يقصدها، فاستخرج كنزه، وغادر المعسكر.

الفصل الثاني عشر

أمام منزل التماثيل

ولى الشتاء، ورحل الجيش الأبيض عن مدينة يوريانتين، تركها للحمر، فلم يعد يسمع قصف المدافع، كما حقنت الدماء وزال بعض الشيء، القلق الذي ينتشر في أوقات الحرب، ومع ذلك ظل الناس في حذر.

وكنت تقرأ على الجدران إعلانا عسكريا هذا نصه:

"على من يستوفي الشروط، أن يتقدم للحصول على بطاقات العمل، والرسم المقرر للبطاقة خمسون روبلا، ويمكن الحصول عليها، من مكتب العمل، الكائن بشارع أكتوبر رقم ١٥ غرفة رقم ١٤٥، بيوريانتين".

وإلى جواره إعلان آخر:

"بالمدينة مؤمن من الغذاء وفيرة، كان قد اختزنها البرجوازيون، ليشيعوا الفوضى، ويبعثوا الذعر في النفوس".

وفي ذيل هذا الإعلان كتبت هذه العبارة:

"يقتل رميا بالرصاص، كل من يضبط عنده طعام مخزون".

ويقول إعلان ثالث:

"يصرح للذين لا ينتمون إلى طائفة المستغلين، بالانضمام إلى جماعة المستهلكين، ويمكن الإطلاع على كافة البيانات والتفاصيل، بمكتب العمل، بشارع أكتوبر رقم ١٥ غرفة رقم ١٤٥ بيوريانتين".

وذيل هذا الإعلان بتحذير للجنود السابقين، هذا نصه:

"يتحتم على كل جندي سابق أن يسلم سلاحه، ويعاقب بأشد العقوبات، كل من يحتفظ بسلاح، بدون ترخيص جديد، كما ينص على ذلك القانون. ويمكن الحصول على الترخيصات الجديدة من مكتب اللجنة الثورية العسكرية، شارع أكتوبر رقم ١٦ غرفة رقم ٤٨ بيوريانتين".

***

اندس رجل نحيف، يرتدي زيا غريبا، عليه لطخ من الطين، وقد حمل على كتفه كيسا، واستند إلى عكاز بين الجماعة الواقفة أمام البناء. وتخللت لحيته بعض شعيرات بيضاء، بعكس شعر رأسه المشعث الطويل، فقد ظل على لونه. هذا الرجل كان يوري، وقد تخلى عنه معطفه الفرو، لعله أخذ منه قسرا في الطريق، أو ربما قايض عليه بطعام يتبلغ به. أما السترة التي ارتداها، فكانت ضيقة، ممزقة، ذات كمين قصيرين، مما ينبئ بأنها ليست سترته.

وكان بالكيس الذي حمله فوق كتفه، بعض كسر من الخبز، أغلب الظن أن أحدا جاد بها عليه في الطريق، كما كانت به قطعة من اللحم المقدد. وقد وصل يوريانتين منذ فترة قصيرة، ولكنه قضى أكثر من ساعة، وهو يجوب ضاحية المدينة، إلى أن وصل إلى شارع التجار.

لقد بلغ منه الضعف منتهاه، وأنهكت الرحلة قواه. وتوقف عن السير عدة مرات، وهو يقاوم رغبة ملحة، في الركوع، وتقبيل الأرض التي يسير فوقها، والتي كان قد يئس من أن عينه ستقع عليها مرة ثانية، وقد غمره الآن مرآها بالسعادة.

حاذى يوري في معظم رحلته، سيرا على الأقدام، خطوط السكة الحديدية، التي كانت تالفة، تكسوها الثلوج، فكان يجتاز قطارا بعد آخر، من القطارات التي هجرها الجيش الأبيض، فتوقفت عن السير، لنفاذ الوقود، وانهزام كولتشاك،

وهبوب العواصف الثلجية. وقد امتدت هذه القطارات، ساكنة في أماكنها، إلى مسافة عدة أميال، واتخذت بعض العصابات المسلحة من قطاع الطريق، بعض هذه القطارات حصونا، كما اتخذها بعض المجرمين، والمطاردين السياسيين، مخابئ لهم. وصار عدد من تلك القطارات قبورا لضحايا التيفوس والصقيع، اللذين كانا يجتاحان القرى، فيقضيان عليها.

كانت هذه الفترة خير مصداق للمثل القائل "الإنسان غريم الإنسان"، فقد كان المسافر يهرب من زميله، والغريب يفتك بالغريب، بلغ الأمر إلى درجة أن أكل الناس فيها بعضهم بعضا! فقد انمحت القوانين الاجتماعية والمدنية، وأصبحت الكلمة العليا لقانون الغابة.

وكان يوري يتجنب بحذر، ما يلمحه من حين لآخر، من أشباح تسعى بين الحفر، أو تتلمس الطريق، ولكن تراءى له أن بعضها كان وديعا أليفا، وخيل إليه أنه سبق أن التقى بها في معسكر الأنصار. وكان مخطئا فيما خيل إليه. ولكن حالة واحدة منها لم تفت عليه، وصدق فيها ظنه، إذ لمح ذلك الفتى، الذي ظهر بين الثلوج التي حجبت بعض العربات، ليقضي حاجة، ثم يعود، فعرف فيه واحدا من جماعة إخوان الغابة، عرف فيه جاليولين، الذي أشيع أنه قتل رميا بالرصاص، في حين أنه كان قد جرح، وأغمى عليه، وعندما أفاق، وعاد إلى رشده، أخذ يزحف، حتى اختبأ في الغابة، وبقى فيها حتى شفى من جراحه. وها هو ذا الآن، يحمل اسما مستعارا، في طريقه إلى كريستوفوزد فيجنسك، يتخذ من القطارات ستارا، ويختفي عن الأنظار إذا أبصر إنسانا.

وكانت هذه الحوادث والمناظر أغرب مما يتصوره الإنسان، وكأنها صور لحياة تجري في كواكب أخرى، ساقها القدر إلى كوكب الأرض، ولذلك، فإن الطبيعة وحدها هي التي تظل حفيظة على التاريخ.

وينتهي كل يوم، بمساء هادئ، يخيم عليه لون وردي، وتزينه شجيرات ناعمة، وجداول يغشاها الصقيع، بين ضفاف من الثلج... هكذا ستكون أمسيات يوريانتين، ناعمة كالزهر.

وخطر ليوري أن يقرأ الإعلانات العسكرية، الملصقة على جدران منزل التماثيل، على أنه، بقوة لا إرادية، أخذت عيناه تحدقان في نوافذ الطابق الثالث من المنزل المواجه. إنها كانت نوافذ الغرف التي حشد فيها أثاث السكان السابقين. أما الآن، فرغم الصقيع الذي انتشر عليها، فإن الزجاج لاح شفافا، وقد أزيل عنه الطلاء الأبيض، فهل عاد إليه سكانه السابقون؟ أم ترى، هل نزحت لارا عنه، وسكنه آخرون، فأعادوا ترتيبه؟!

ولم يحتمل يوري تلك الشكوك والهواجس، وفي ثبات وعزم، عبر الشارع، ودلف إلى المنزل، وارتقى السلم الأمامي ولم يكن غريبا عليه، بل أكثر من ذلك كان عزيزا عليه. فكم جالت ذكرياته بفكره في المعسكر، فكان يذكر شكل الدرجات، بل عددها، وكان ينفذ ببصيرته إلى المخزن الكائن في الطابق الأرضي، حيث تكدست الكراسي المحطمة. لقد كانت جميعها في أماكنها، لم تنقص، ولم تتحرك، وجال بذهن يوري أن يقبل السلم شكرا وامتنانا، لاحتفاظه بالماضي وذكرياته.

وكان الجرس الموجود قد تحطم، في أخريات أيام تردده على المنزل، قبل أن يلقي الأنصار القبض عليه، ورغم ذلك ألحت به رغبة أن يقرع الجرس، ولكنه لاحظ وجود قفل في الباب القديم يتدلى من حلقتين ذواتي نقوش، بقيت آثارها، وقد دله ذلك، على مدى التخريب، الذي طرأ على المكان، أثناء غيبته.

وشعر يوري من أعماقه، أن لارا وكاتنكا، ليستا في المنزل، بل لعلهما غادرتا يوريانتين، وربما ليستا على قيد الحياة الآن. وقد وطن نفسه على احتمال أسوأ

الفروض. وأراد أن يبحث عنهما في كل شبر من المنزل، بأن يتناول المفتاح من الثغرة التي بالجدار، حسبما كانت قد أفهمته لارا، وطرق الحائط بقدمه، حتى يهرب ما قد يكون بالثغرة من فئران. وكان يائسا من أنه سيجد شيئا، لأن الثغرة كانت مسدودة بحجر، فرفعه، وأدخل يده في الثغرة، ويا للعجب مما وجد! وجد رسالة ومفتاحا، وكانت الرسالة من الطول بحيث شملت صفحة كبيرة، فتناولها وذهب إلى النافذة بجوار المدخل، ولدهشته، وجد أن الرسالة موجهة إليه، ففضها، وراح يلتهم كلماتها:

"رباه، يا لسعادتي! علمت أنك لا تزال حيا، وأن السلامة رافقتك في عودتك، رآك أحدهم بالقرب من المدينة، فهرول يحمل إلي البشرى ولعلك ستقصد رأسا إلى فاريكينو، لذلك جعلتها وجهتي، أنا وكاتنكا. على أنني من باب الاحتياط، تركت المفتاح في مكانه المعهود. انتظرني، ولا تذهب، ستجد أنني أشغل الغرف الأمامية الآن. وستجد أن المسكن يكاد يكون خاويا، فقد اضطرتني الظروف لبيع بعض الأثاث. وقد تركت لك بعض الطعام، أغلبه من البطاطس. كل كيفما تشاء واحتفظ بما قد يتبقى، أنني في دوامة من الفرح تكاد تذهب بعقلي".

انتهت الصحيفة عند هذا، ولم يتنبه إلى أن تتمة الرسالة على الصحيفة الأخرى، فقبل الرسالة، ثم طواها ودسها في جيبه مع المفتاح. وغمرته فرحة طار لها قلبه، ولكنها امتزجت بشعور من الألم الحاد، فقد استنتج من ذلك، أن لارا ذهبت على فاريكينو، لعلمها بأن عائلته ليست هناك، وسرعان ما لفه الحزن الشديد من أجل عائلته، لماذا لم تنوه عنها في رسالتها؟ ولماذا لم تخط حرفا واحدا عن مصيرها كأنها ليست في عالم الوجود؟!

وابتدأ الظلام يخيم على الكون، فأراد أن يقرأ الإعلانات الملصقة في الشوارع، على ضوء النهار الذي بدأ يخبو، إذ كان لزاما عليه أن يلم بالأحكام والقوانين والتعليمات المفروضة حاليا، فربما يكلفه جهله بها حياته، فاستدار، دون

أن يدخل المنزل، وهو لا يزال يحمل الكيس فوق كتفه، وهبط درجات السلم، وعاد إلى الشارع، وإلى الجدران المليئة بمختلف الإعلانات العسكرية.

***

انتهى يوري من قراءة الإعلانات، وشعر أن رأسه يدور، ثم أغمي عليه، وسقط على رصيف الشارع. وأسعفه بعض الناس حتى أفاق، ونهض واقفا، وعرضوا عليه مرافقته إلى المكان الذي يقصده، ولكنه شكرهم بلطف قائلا:

– ليس أمامي إلا أن أعبر الشارع.

ثم دلف إلى المنزل للمرة الثانية، على أنه في هذه المرة، فتح باب مسكن لارا، وكان الضوء لا يزال ينبعث في البهو، فسره ذلك كثيرا.

وأثار فتح الباب خليطا من الضجيج، إذ سقطت بعض الأطباق، وأخذت الفئران تقفز من مكانها إلى الأرض، وتفر مذعورة، ولعل هجرة السكان، وهدوء المكان، هيآ لها الجو لتتناسل، فشعر يوري بالاشمئزاز، وحار كيف يتصرف، فقرر أن يكمن بإحدى الغرف، ويحكم إغلاقها عليه.

وذهب إلى الجزء الذي لا يعرفه من المسكن، فعبر ممرا مظلما انتهى به إلى منزل التماثيل، فرأى جمعا من الناس، يقرءون الإعلانات.

وكان ضوء الغرفة هادئا، وشعر بالبرودة تسري في أرجاء حجرة نوم لارا.

وعن له قبل أن يستقر أن يحلق لحيته ويقص شعره. وكان قد بحث من قبل عن دكان حلاق في الجزء الأوسط من المدينة حيث كان يعهد وجود تلك الدكاكين. ولكنه وجد جانبا منها فارغا من شاغليه، ووجد البعض الآخر وقد تحول إلى أغراض أخرى. والعدد القليل الباقي من دكاكين تلك المهنة مغلق الأبواب. ولو كان لديه موسى لحلاقة لحيته لما احتاج إلى حلاق. وكان في وسعه أن يستغني عن

الموسى بمقص، ولكنه عبثا حاول العثور على مقص بين أمتعة لارا التي قلبها رأسا على عقب.

وخطر له عندئذ أن يقصد محل حياكة ملابس كان يعرف موضعه في شارع أسباسي. فإن وفق في العثور عليه فربما أقرضه صاحبه مقصا يقص به شعره ولحيته.

وأسعده الحظ أن يجد دكان الحياكة قائما حيث يعهده، وللدكان نافذة كبيرة تطل على الشارع. فيستطيع السائر أن يرى العاملات وهن في الداخل. وكان عددهن كبيرا. إذ انضمت إلى الخياطات المحترفات جملة من العجائز ألممن بسرعة بمبادئ تلك الحرفة، والتحقن بالعمل ليصبح من حقهن الحصول على بطاقات العمل التي تضمن لهن الانتساب للطبقة العاملة. وصار المحل الآن متخصصا في صنع الثياب العسكرية المختلفة، ولاسيما المعاطف المبطنة بالفرو.

وطرق يوري زجاج النافذة الكبيرة وأشار بيديه معبرا عن رغبته، في الدخول. فأخذت العاملات يشرن إليه بأيديهن أيضا أن المحل لا يقوم الآن بقبول الطلبات الخاصة بالأفراد. ولكنه ألح في طلب الدخول، فأشرن إليه بما يفيد أنهن مشغولات وعليه أن ينصرف، فجعل يحرك أصبعيه مقلدا حركة المقص، فخطر لهن أنه يقلد حركاتهن على سبيل السخرية منهن. ويضاف إلى هذا أن رثاثة ثيابه وطول شعره ولحيته أوحيا إليهن أنه مصاب باختلال في قواه العقلية فانفجرن ضاحكات عليه وهن يومئن إليه كي ينصرف.

وأخيرا خطر له أن يدور ويدخل من الفناء الخلفي للدار ويطرق الباب الخاص بالعاملات.

وفتحت له الباب امرأة عجوز عابسة الوجه ترتدي ثوبا أسود، ويبدو من نظراتها أنها رئيسة العاملات. وبادرته بقولها:

– ما أشد لجاجتك! لماذا تطرق بابنا؟ قل بسرعة ماذا تريد!

– كل ما أريده مقص. فلحيتي وشعره كما ترين. ولم أجد دكان حلاق في المدينة كلها. فلو أعرتني المقص لاستطعت أن أفرغ به من إصلاح شأني في مدى دقيقة واحدة ثم أعيده إليك وأكون شاكرا لك جدا.

وجعلت المرأة العجوز تجيل فيه طرفها وقد خطر لها أنه مجنون، وأدرك ذلك فأخذ يفسر لها الأمر قائلا:

– المسألة أني وصلت الآن من سفر طويل جدا. ووجدت منظري هكذا غير لائق. فخطر لي أن أقوم بهذا العمل بنفسي ما دامت جميع دكاكين الحلاقة مغلقة. ولما كنت محتاجا إلى مقص، وليس تحت يدي مقص، لم يعد أمامي سوى حل واحد هو أن اقترض مقصا. ولهذا أطلب منك أن تعيريني مقصا من مقصاتكن مدة دقيقة واحدة.

فهزت العجوز رأسها، وقالت له:

– وهو كذلك. سأتولى بنفسي قص شعرك. ولكن ينبغي أن أحذرك أنك إذا كنت ترمي من وراء قص شعرك أن تتخفى وتتنكر لأسباب سياسية، ففي هذه الحالة سنبلغ ضدك السلطات لأننا لا نستطيع أن نجازف برقابنا من أجلك. والآن أدخل!

وأدخلته إلى غرفة ضيقة وأجلسته فوق كرسي ودست تحت ذقنه فوطة كبيرة على طريقة الحلاقين. وخرجت لتعود بعد قليل وفي يدها مقص ومشط ومسن وموسى. فارتسمت الدهشة على وجه يوري. وعندئذ هزت المرأة العجوز رأسها، وقالت:

– لا تعجب، لأنني مارست جميع أنواع الحرف وتقلبت بينها. وكنت في فترة ما من حياتي حلاقة. وكان من الضروري أن أتعلم قص الشعر وحلاقة الذقون عندما التحقت ممرضة بالجيش أثناء الحرب. والآن فنقص شعر هذه اللحية أولا، ثم نحلقها بالموسى.

– شكرا لك وأرجو أن تقصري لي شعر رأسي جدا. وآسف لأنني أتعبتك، ولم يحملني على ذلك إلا أنني وجدت جميع دكاكين الحلاقين مغلقة.

– لماذا تصر على التظاهر بالجهل وأنت رجل مثقف؟ أن وحدة الزمن الآن ليست الأسبوع بل العقد. فالشهر الآن ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أيام. واليوم هو السابع عشر من الشهر. ويوم عطلة الحلاقين هو كل يوم يقع فيه الرقم ٧!

– صدقيني أني لم أكن أعلم شيئا من ذلك. لأني كما قلت لك وصلت لتوي من سفر طويل. فلماذا ادعي أي شيء أو أتظاهر بالجهل؟

– لا تتحرك وإلا جرحتك. تقول أنك وصلت لتوك. فكيف وصلت؟

– جئت سيرا على قدمي!

– على الطريق الكبير؟

– على الطريق الكبير أحيانا. وبمحاذاة الخط الحديدي أحيانا أخرى.

– وهل جئت في مهمة عائلية؟

– كلا، فإني كنت أعمل مفتشا لبنك من بنوك التسليف التعاونية. وقد أرسلوني في مهمة تفتيشية إلى شرق سيبيريا. فلما انتهت مهمتي هناك لم أستطع العودة لأن جميع القطارات معطلة أو مدفونة في الثلج كما تعلمين. فلم يكن أمامي سوى السير على قدمي. وظللت أمشي ستة أسابيع متوالية. ولن أستطيع أن أصف لك ما شاهدته!

– لو كنت في مكانك لما ذكرت لأحد ما شاهدته. فمن الخير أن تلزم الصمت. لا تقل أي شيء لأي أحد. لا تقل أنك مفتش في بنك تسليف. أفضل من هذا أن تقول أنك طبيب أو معلم في مدرسة. والآن وقد فرغنا من قص اللحية،

فلنبدأ بحلاقتها وعندئذ ستبدو أصغر سنا مما كنت بعشر سنوات. سأذهب الآن لأسخن الماء.

ولما تركته وحده أخذ يوري يتساءل بشدة.

– ترى من تكون هذه المرأة؟

وقد خيل إليه أنه رآها أو سمع بها من قبل. ولكنه عبثا حاول قدح ذاكرته.

ودخلت عليه بالماء الساخن. وجعلت تقول له وهي ترغي الصابون على وجهه.

– أن السكوت الآن أغلى من الذهب. لا تشر إلى مهنتك القديمة بل قل أنك طبيب أو معلم. أما مشاهداتك وملاحظاتك فاحتفظ بها لنفسك. لأن الكلام في هذه الأمور غير مأمون العواقب في هذه الأيام.

وفي ذلك المساء الربيعي عادت إليه نشوة حب الحياة. وشعر بالحنين الشديد إلى الوجود ذاته، بمعناه الكبير. وأحس أن لارا تمثل لديه كل ما في الحياة والوجود من قوة وجمال وحساسية وتعبير.

أجل كان كل ما رماها به في أوقات الشك غير صحيح. فهو يحس الآن إحساسا عميقا أن كل شيء فيها كامل لا يشوبه أدنى نقص.

وامتلأت عيناه بدموع الإعجاب والتوبة، وفتح باب المدفأة وأشعل النار ثم أخذ يقلب الحطب لتسري فيه الشعلة. ثم جلس أمام الجذوة يتمتع بتراقص ظلال النار على وجهه ويديه، فرده ذلك الدفء والضوء إلى صوابه، واشتدت عليه وطأة الحنين إلى لارا فتاق إلى ما يقربه منها في هذه اللحظة.

وأخرج من جيبه رسالتها. وكان قد طواها بطريقة جعلت الوجه الذي قرأه من قبل إلى جهة الداخل. فاكتشف الكتابة التي لم يطلع عليها وبسط الورقة ثم راح يقرأ على ضوء النار المتراقص:

– أما أخبار عائلتك في موسكو فمفادها أن تونيا ولدت أنثى ما بقية الأمور فمن السخافة أن أسجلها هنا بالكتابة، لأن الأولى أن تكون موضوع حديث بيننا حين نلتقي. والآن يجب أن أسرع لأعثر على جواد. ولست أدري ماذا سأفعل إذا لم أجد مطية. فإن وجود كاتنكا معي يجعل الموقف صعبا.

وفي السطر التالي قرأ ما يأتي:

– أفلحت في الحصول على حصان من سامديفياتوف.

فقال يوري في نفسه وقد اطمأن:

– لو كان لديها ما تخفيه لما ذكرت اسمه هنا.

أعد يوري لنفسه طعاما وأكل، ثم غلبه النعاس، فاتكأ على مقعد، وهو لا يزال في ثيابه، وما لبث أن استغرق في نوم عميق، تخللته أحلام مزعجة.

تراءى له في الحلم الأول، أنه في موسكو، داخل غرفة ذات باب زجاجي، كان مقفلا، وقد أمسك بمزلاجه يجذبه نحو الداخل. ووقف ابنه الصغير ساشنكا يرتدي لباس البحارة، وقد أخذ يطرق الباب، ويستغيث كي يدخل. وتراءى له شلال وراء ابنه، يصيب الولد كما يصيب الباب برذاذ مائه، والشلال يهدر في دوي هائل.

وارتسم الرعب على وجه الابن، وضاعت صرخاته وسط هدير الماء، وتراءى ليوري أنه لمح الابن، يحاول أن ينطق بكلمة: "أبي".

وأحس يوري أن قلبه يغوص بين جنبيه، وود لو استطاع أن يضم ابنه إلى صدره، ويحتضنه، ويفر به هاربا. على أنه– لدهشته– وقد أخذت الدموع تنهمر من عينيه، لم يحن قلبه لصرخات الابن، وظل ممسكا بمزلاج الباب في وجهه وكان ذلك تحت تأثير ذلك السلطان الطاغي، الذي ملك عليه حواسه، سلطان المرأة التي ينتظر قدومها.. لارا.

وأفاق يوري من شدة انزعاجه، فوجد نفسه غارقا في بحر من العرق والدموع، وقال لنفسه:

– أنني محموم ولا شك، ولكنه ليس داء التيفوس على كل حال، لعله نوع من الإعياء الشديد، نتيجة ما عانيته من الإرهاق المضني. ترى هل يكتب لي الموت أم الحياة؟!

ولما كان في حال لا يستطيع معها التفكير، فقد غلبه النعاس مرة ثانية، وعاد فاستغرق في نومه.

وفي حلم آخر، في فجر يوم من أيام الشتاء، في أحد شوارع موسكو، في تلك الساعة المبكرة، ورنين أجراس القاطرات يطن في الآذان، وقد أضفت المصابيح ضوءا باهتا على الشارع الذي كسته الثلوج، وتبين له أن ذلك قبل الثورة.. رأى في نومه مسكنا كبيرا، له نوافذ عديدة، جميعها في جانب واحد من المنزل، الذي كان مكونا من طوابق ثلاثة، وقد تدلت ستائر النوافذ حتى بلغت الأرض. وتراءى له أيضا أن الناس كانوا نائمين فيه بكامل ملابسهم، وكأنهم على سفر، والغرف في حال من الفوضى كأنها عربات قطار تكدست فيها الأمتعة والركاب، كما تناثرت فيها بقايا لحوم وفتات طعام. أما أحذية القوم الذين آواهم المنزل فقد صفت عند الباب.

وكانت لارا مضيفة ذلك المنزل، وقد ارتدت ثوبا عاديا عقد على عجل حول خصرها، وأخذت تتنقل كالفراشة، في خفة وصمت من غرفة إلى غرفة، تقوم على شئون المنزل، وكان يوري يقتفي أثرها خطوة خطوة، يتمتم في تذمر، فيبعث في نفسها الضيق، ولكنها كانت لا تعيره انتباها، ولم تأبه بتمتمته، واكتفت بأن تنظر إليه من حين لآخر نظرة صامتة هادئة، أو تنفجر في ضحكة من ضحكاتها التي تتميز بها، وكان هذا طابعها، كما كان طابع الرابطة المتينة التي ظلت قائمة بينهما.. كم كانت رزينة، بارعة الجمال، تلك المرأة، التي ضحى من أجلها بكل عزيز، وآثرها حتى على زوجته وأولاده، وقد بدا له أن الحياة بدونها.. لا شيء!!

***

لم يكن يوري هو الذي يبكي وينتحب، بل كان باعثا آخر، أشد وأقوى، أشرق بين كوامن نفسه، فأخذ يبكي إشفاقا على نفسه، ويقول:

– أنني مريض.. أشعر في فترات بين اليقظة والنوم الهذيان... أنني مصاب بنوع من التيفوس، لم يمر بي تشخيصه في كتب الطب.. ينبغي أن أتناول طعاما، وإلا هلكت من الجوع.

وحاول أن يرفع رأسه، ولكنه شعر أنه عاجز عن الحركة، فأسقط في يده، ثم أغمى عليه، ونام.

وعندما أفاق، أخذ يتساءل:

– ترى كم مضى علي من الوقت وأنا هنا نائم؟! كم ساعة، بل كم يوما؟! لقد حللت هنا في مستهل الربيع، وأرى الآن النوافذ وقد كستها الثلوج، حتى باتت الغرفة مظلمة.

وسمع الفئران وهي تصطدم بالأطباق، وتتسلق الجدران، ثم تقع على الأرض، في أصوات مزعجة.

واستسلم للنوم مرة أخرى، ثم أفاق، فوجد أن النوافذ التي كستها الثلوج، لمعت بضوء وردي، كأنه شراب أحمر في قدح شفاف، فلم يعرف إن كان الوقت غسقا أو فجرا.

وخيل إليه ذات مرة أن هناك صخبا وأصواتا قريبة منه، فانتابه ذعر شديد، خشية أن يكون قد جن، فأخذ يبكي ويشكو في تضرع هامس، ظنا منه أن السماء قد لفظته:

– لماذا تخليت عني يا إلهي؟ أيها النور الأبدي، وألقيت بي في ظلمات الجحيم؟

ولكنه أدرك أنه كان في حالة هذيان، كما تبين له أن ثيابه قد استبدلت، وأن جسمه قد غسل، وأنه يرتدي ملابس نظيفة، كما تبين له أنه ليس مضطجعا على المقعد، بل في فراش نظيف آخر، وأن لارا تقبع قريبا منه، وقد مالت عليه فتشابك شعرها بشعره، وامتزجت دموعها بدموعه، فأخذته نوبة من الفرح، أغمى عليه على أثرها.

***

ولئن نفس على السماء أنها تنكرت له وضاقت به، فها هي الآن حانية عليه وهو في فراشه، وقد فتحت له ذراعيها في صورة ذراعي هذه الأنثى، فسكر رأسه واستولت عليه نشوة تردى فيها كما يتردى الإنسان في غيبوبة لا قرار لها.

وكان بطبعه نشطا لا يحب الإخلاد إلى السكينة، فهو إن لم يكن يهتم بشئون المرضى، أو يفكر أو يكتب، انصرف إلى شئون البيت يدبرها. أما اليوم فهو

يستعذب التوقف عن كل عمل وكفاح وتفكير، تاركا شأنه كله للطبيعة إلى حين، تنفذ فيه إرادتها الرحيمة العجيبة.

وجاء شفاؤه وشيكا، لأن لارا قامت على تغذيته وتمريضه وغمرته بعنايتها الحانية. وكان حنانها رائعا، وعنايتها مبذولة له على الدوام في رفق لا يوصف. وكل همسة هنية من همساتها غنية بالمعنى والإحساس. فكأنهما معا متحدان يكونان عالما قائما بأسه مفصولا متميزا عن سائر ما في الدنيا. وكان حبها رائعا عظيما. يختلف عن الحب كما يعرفه معظم الناس. فمعظم الناس يمارسون الحب، أو يحدث لهم الحب فيجربونه من غير أن يدركوا أن يلمسوا طبيعة تلك العاطفة العجيبة. أما هما فقد انفردا بمزية يندر أن تتفق للبشر الفانين. لأن تسلل الحب إلى وجودهما الفاني نفح فيه نسمة من نسمات الأبد، فحول وجودهما الأرضي إلى نوع من الرؤيا أو الكشف الصوفي الذي يجعل البشر الهالك متحدا بعنصر الأبد في الكون كله.

– عليك أن تعود إلى عائلتك فورا. ولن أعمل على تأجيل عودتك. بمجرد أن يتم شفاؤك. وكنت أحب أن أعني بتغذيتك وتهويتك أكثر مما فعلت. ولكننا نفتقر إلى كل شيء وفي أثناء مرضك جردت المدينة من جميع المؤن وأرسلت إلى موسكو، وكأن تلك العاصمة بالوعة لا قرار لها. أن جميع القطارات تستخدم لنقل الخبز، والتذمر متفش بين الناس بيد أن البوليس السري يقمع كل شكوى بمنتهى الوحشية ومع ذلك لا أدري كيف تستطيع السفر وأنت هزيل بهذا الشكل، جلدك ملتصق بعظامك. ولا سيما أن القطارات معدومة، والسفر على قدميك معناه عجزك عن الوصول إلى غايتك. فلعل من المستحسن أن تنتظر ريثما تسترد تمام قوتك، وتبحث هنا عن عمل تخدم به السلطات السوفييتية المحلية عن طريق مهنتك. وسوف يسرهم ذلك. وتذكر أن أباك كان مليونيرا مات منتحرا وأن زوجتك ابنة رجل من رجال الصناعة والإقطاع. وأنك شخصيا كنت في جيش الأنصار وهربت. فليس

من مصلحتك أن تبقى عاطلا عالة على المجتمع الكادح. ولاسيما أنني لست في وضع أحسد عليه، بل أني أعيش على قمة بركان.

– ماذا تعنين.. هل سبب ذلك سترلينكوف؟

– أني في خطر بسببه. فالآن بعد أن تم انتصار الجيش الأحمر يجب تصفية جميع الضباط الذين لا ينتمون للحزب ومن وصل منهم مثله إلى القمة واطلعوا على الأسرار العليا، يتهددهم خطر القتل للتخلص منهم كي تبقى القيادات كلها في يد أعضاء الحزب الأصلاء. أنها عملية تطهير أو حمام دم يتمشى مع خطة الحزب. وقد سمعت أنه هرب إلى جهة الشرق وأنهم يبحثون عنه. وأرجو ألا تطرق هذا الموضوع، فلو تكلمنا عنه كلمة أخرى لن أملك نفسي من البكاء!

– أكنت تحبينه كثيرا؟ وهل مازلت تحبينه؟

– أنه زوجي يا يوري. وهو ذو شخصية رائعة بارزة مستقيمة. وقد آذيته بزواجي منه، لا لأنني فعلت شيئا بقصد الإساءة إليه، فليس هذا صحيحا بالمرة. بل لأنه رجل غير عادي، وأنا امرأة تافهة بالقياس إليه.

فارتباطي به عرقل حياته. ولكن فلنترك الآن هذا الموضوع وأعدك أن نتحدث فيه بإفاضة يوما ما فيما بعد. والمهم الآن أن يبحث كل منا عن عمل. نذهب إليه كل صباح ونقبض مرتبينا ملايين من الروبلات. نعم ملايين لأن العملة القديمة ألغيت وأنت مريض، ويقال أن قطارا مصفحا وصل محملا بالأوراق المالية الجديدة. شحنة تملأ أربعين عربة سكة حديدية على الأقل. والأوراق الجديدة مطبوعة على ورق كبير بلونين أحمر وأزرق ومقسمة إلى مربعات صغيرة طوابع البريد، والمربع الأزرق من هذه المربعات يساوي خمسة ملايين روبل. والمربع الأحمر يساوي عشرة ملايين.

***

– خبرني ما الذي أبقاك كل هذه المدة في فاريكينو؟ هل لك أحد هناك؟

– كنت مع كاتنكا ننظف بيتك لأنني ظننتك ستذهب إلى هناك أولا، فلم أرد أن تراه على الحال التي كان عليها، قذرا مشعثا.

– لا أظنك لا تريدي أن تذكري الحقيقة. لا بأس فلن أجبرك على البوح بشيء، ولكن خبريني أي اسم أطلقته تونيا على الطفلة.

– سمتها ماشا على اسم والدتك.

– وماذا أيضا؟ حدثيني بكل شيء عنها.

– أرجوك. أن الكلام عنها أيضا يدفع بي إلى البكاء.

– حسنا. فلنتحدث عن سامديفياتوف الذي أعارك الحصان أنه شخص جذاب. أليس كذلك؟

– جدا.

– لابد أنكما صديقان حميمان.

– بل أنه يغرقني برعايته وأفضاله. ولا أدري ماذا كنت فاعلة لولاه.

– ترى هل يتودد إليك كثيرا؟

– باستمرار طبعا.

– وأنت؟ هل تميلين إليه؟

ثم لم يلبث أن استدرك قائلا بسرعة:

– آسف لتوجيه هذا السؤال إليك فليس من حقي أن استجوبك.

– لا بأس. أظنك تريد أن تعرف نوع العلاقة التي بيننا، وهل تتجاوز حدود الصداقة. وجوابي على ذلك أن ما بيننا صداقة لا أكثر. صحيح أنه فعل الكثير من أجلي، وأنا مدينة له بالكثير، ولكنه لو قدم لي وزني ذهبا، بل لو ضحى بحياته نفسها من أجلي فلن يقربني ذلك إليه. فهو من طراز من الرجال لا أستطيع أن أهضمه. طراز الرجل الواسع الحيلة، المفرط في ثقته بنفسه. وسامديفياتوف يذكرني برجل آخر طالما أثار تقزري ومقتي كان السبب في تحول حياتي هذا التحول كله.

– لماذا تسخطين على حياتك هكذا. أنك امرأة رائعة.

– بل أني امرأة محطمة. في حياتي على الأقل شيء محطم عرفت الحياة في سن مبكرة جدا. عرفتها قسرا، وعلى أبشع صورة من صورها وكان ذلك على يد رجل لا خلاق له، كهل باهر المكانة والجاه شديد الثقة بنفسه استغل وضعه منا ونال كل ما اشتهته نفسه الممسوخة.

– على رسلك. أني أستطيع أن أتصور أحزانك في تلك الفترة النضرة من عمرك. وكيف شعرت بالمهانة والهوان. ولكن ذلك كله أمر مضى وانقضى وما فات مات. ولا ينبغي أن تقتلي نفسك حزنا وأسفا على ذلك الماضي. وإنما أنا الذي ينبغي أن آسف لأنني لم أكن بجوارك في تلك المحنة لأحميك. أني أكاد الآن أمزق شعري غيظا وغيرة لأن رجلا بهذه الحقارة نال وطره منك. وما أعجب نفوس البشر! أن غيرتي عنيفة قاتلة من انتهاك هؤلاء الحقراء لما أحبه وأقدسه. ولو أن رجلا أجله أحب امرأة أحبها أنا لما حقدت عليه، ولا غرت منه. بل كان شعوري منه أقرب إلى الفهم والتآخي التراجيدي. ولكن ليس معنى هذا أن أقاسمه المرأة التي أحبها، بل أنزل له عنها وأمضي حزينا في أسى وهدوء. فذلك شبيه بتنازلي عن عمل أحبه لفنان أقدر مني على إبداعه! ولكن ليس هذا لباب الموضوع، بل لبابه أنني لا أخالني كنت حريا أن أحبك هذا الحب القوي الجارف لو لم تكوني منطوية على جراح وأسى وندم. فتلك كلها مشاعر إنسانية تعطف القلب. أما الكاملون الذين لا

يعرفون العثار والسقطات فأقل نصيبا من البشرية. أن البشرية ضعف وندم وشوق إلى الكمال من وهدة النقص. وفي ذلك التطلع إلى ذروة الكمال، ونحن في هاوية النقص يتجلى جمال الحياة وجلالها!

– جمال الحياة؟ أعتقد أن الإنسان لا يراه حقا إلا إذا كانت له براءة عين الطفل. أما أنا فقد تدنست عيني وأنا طفلة. فرأيت المسخ ولم أعد قادرة على إدراك بهاء الجمال الصافي. وليس هذا كل شيء. لأن تطفل هذا الرجل الوضيع الأناني المنحط على حياتي في مستهلها جعلني حين تزوجت رجلا فذا بمعنى الكلمة يحبني وأحبه غير صالحة لنعمة تلك الحياة الطاهرة. كنت كالجواد الأعرج لا يستطيع أن يساير جوادا سباقا. وعلى صخرة هذه الآفة الباطنية في سريرتي تحطم زواجي.

– رويدك. لا تحدثني الآن عن زوجك، لا لأني أشعر بالغيرة منه، فأنا لا أغار إلا ممن احتقرهم. ولكني أريد أولا أن تحدثيني عن ذلك الرجل الآخر.

– أي رجل آخر؟

– عن ذلك الرجل الذي أفسد عليك زواجك. من هو؟

– أنه محام من أشهر المحامين في موسكو. كان صديقا لأبي. فلما توفى والدي وساءت حالتنا المالية مد يد العون إلى أمي. وهو رجل أعزب ثري. وأخشى أنني رسمت له صورة مفرطة في السوء مع أنه رجل كغيره من الرجال في مثل ظروفه. واسمه كوماروفسكي.

– لماذا تحمرين خجلا هكذا؟

– مجرد ذكر اسمه يثير اشمئزازي.

– أن هذا الرجل نفسه كان محامي أبي. وكان رفيقه في رحلته. وحمل والدي على الشراب والمقامرة لينسى ضائقته المالية، وقاده إلى الإفلاس ثم دفع به إلى الانتحار بإلقاء نفسه من القطار. فهو المسئول عن يتمي الباكر يا لارا.

– ما أعجب تصاريف القدر إذ يجمع بيننا بهذه الصورة! لقد كان هذا الرجل شيطان الشؤم في حياتك أنت أيضا! لشد ما يقرب هذا بيننا يا يوري!

– أن حقدي اليوم عليه أشد، لأنه الرجل الوحيد الذي أغار منه لأنه كان أول رجل في حياتك.

– ولكني لا أحبه ولم أحبه. أني أمقته.

– أن طبيعة المرأة حافلة بالغموض والمتناقضات. وليس من المستحيل أن يكون مقتك الشديد له سببا في سيطرته على نفسيتك وخضوعك له أكثر من أي رجل أحببته طوعا واختيارا!

– ما أشد قسوتك! أن تعبيرك فيه من القوة ما يجعله يبدو لي صوابا، حتى لو لم يكن كذلك!

– لا تسيئي فهمي. أني أغار عليك من أدوات زينتك، ومن ذرات الغبار. ومن العرق الذي يفرزه جسمك. وأغار من كوماروفسكي، وكأنه مرض يهدد سلامتك. أني أحبك حب الجنون يا لارا وأخشى أن يأتي هذا الرجل الرهيب الأسود كالموت وينتزعك مني. أنه تصور جنوني، ولكن أحبك حبا لا يخضع لحدود العقل.

وبعد صمت قصير استطرد قائلا:

– والآن يا لارا حدثيني عن زوجك.

– رأيته آخر مرة من بعيد وهو يهم بركوب سيارته ومن حوله عدد كبير من الحراس. فلم أجد فيه تغيرا يذكر. بل رأيت وجهه الصبوح الصادق المستقيم الذي لا تشوبه ميوعة أو تصنع. ولكني أدركت أيضا أن الصرامة والإيمان بفكرة مجردة قد تسربا إلى حياته وملامح وجهه. فأيقنت أنه أدمج شخصيته في الإيمان بفكرة عليا وسلطة تتولى تنفيذ تلك الفكرة ولكنها سلطة مميتة ستقضي عليه في النهاية.

– أريد أن تحدثيني عن علاقتك به قبل اندلاع الثورة.

– أنني منذ طفولتي أرى في الاستقامة مثلي الأعلى. وبعد أن سقطت زاد إجلالي للطهر. وكان هو نموذجا مجسدا للاستقامة والطهر. وكانت نشأته معي في بيت واحد تقريبا. هو وجاليولين وأنا. وقد فتن بي منذ صباه وكان يكاد يفقد رشده حين يقع نظره علي. وكنت أشعر بذلك وأتجاهل الأمر رعاية له، لأنه كان يخفي عاطفته الصبيانية فتفضحه نظراته وملامحه. وكان مختلفا عني في كل شيء فقررت بيني وبين نفسي أن أتزوجه عندما نكبر. وكان في الحق فتى موهوبا! أبوه كان عاملا بسيطا في السكك الحديدية. ولكن الفتى استطاع بمثابرته ونبوغه أن يصل إلى القمة في دراسة الرياضيات، والأدب الكلاسيكي.

– ولكن ما الذي أفسد زواجكما وأنتما متحابان على هذه الصورة؟

– أن الإجابة على هذا السؤال أمر عسير ولكني سأحاول أن أجيب. أن جميع أركان حياتنا قد تقوضت بحكم الثورة. انتهى كل معنى للنظام وللعائلة. ووجد كل إنسان نفسه متجها إلى التكيف في عالم جديد. فاستطاع هو أن يتكيف بإيمانه كله وأن يمضي في الطريق الجديدة بسرعة الصاروخ. أما أنا، فقعد بي استعدادي حيث أنا.

وسكتت برهة ريثما هدأت انفعالاتها قليلا، ثم قالت:

– أسمع! لو أن سترلينكوف ترك شخصيته الحالية وعاد كما كان، باشا الذي أعرفه. ولو عادت عجلة الزمن القهقري وحدثت المعجزة فرأيت نوافذ دارنا يشعشع من وصاوصها النور، وقد أضيئ المصباح على مكتب باشا، لو حدث ذلك وكانت دارنا تلك في أقاصي الأرض، واستلزم مني الوصول إليها أن أزحف على ركبتي، لما ترددت أن أزحف على ركبتي حتى أصل إلى هناك، لأن كل أنملة في كياني حرية حينئذ أن تلبي نداء ذلك الماضي. وما من شيء يستطيع أن يقف في وجه تلك التلبية، حتى أنت يا يوري. حتى حبنا هذا السمح الطلق السعيد. أوه! عفوك لا أعني هذا حقا! لا تصدق!

ثم ارتمت في أحضانه وهي تنشج بالبكاء. ثم لم تلبث أن تمالكت نفسها ومسحت ما ترقرق من عبراتها، وقالت:

– أليس نداء الواجب هو الذي يدعوك أنت أيضا ويستحثك للعودة إلى تونيا؟ ما أتعس حظوظ بني آدم وحواء! ترى ماذا قسم لنا في صفحة الغد وماذا نحن فاعلان؟

وصمتت برهة أخرى حتى هدأت، ثم استطردت:

– ولكني لم أجب عن سؤالك ما الذي أفسد سعادة زواجنا. لقد فكرت في ذلك طويلا فأدركت أن المسألة لا تتعلق بنا وحدنا، وإنما هي مسألة كثيرين غيرنا.

– قولي يا حبيبتي. فما أعدلك وأحكمك.

– كان زواجنا قبل الحرب بسنتين. فما كدنا نقيم حياة خاصة بنا، وما كدنا نؤسس بيتنا حتى اندلعت نار الحرب. وفي يقيني الآن أن الوزر كله يقع على كاهل تلك الحرب، فهي التي قوضت سعادة جيلنا كله حتى هذا اليوم. لأن هذه الحرب أتت بنظرة جديدة تباين تمام المباينة النظرة التي تربينا عليها في أخريات القرن الماضي. فقد تربينا على الخضوع لأحكام العقل خضوعا لا جدال فيه. وكنا نؤمن

أنه يجب على كل شخص أن يفعل ما يمليه عليه ضميره. فكانت حوادث القتل أمرا شاذا للغاية. لا نكاد نسمع بها إلا في الروايات البوليسية وفي الصحف بين الحين والحين. ولكننا لم نألف أن يحدث ذلك حقا ويكون جزاء في حياتنا اليومية. ثم انقلبت موازين كل شيء فجأة فإذا القتل قد أصبح شعارا جماعيا يتردد وينفذ في كل وقت وفي كل يوم، باسم المجتمع وبأمره، وبمكافأة منه. واضطرب كل شيء وانحل النظام فلا قطارات ولا تموين بل لا عائلة ولا أخلاق. وكان رأس البلاء الذي حل بوطننا "الروسيا" ضياع الثقة بالضمير وبالحس الأخلاقي المركب في كل فرد، وفشا الاعتقاد في الجيل الجديد أن التقدم معناه الذوبان في كتلة الجماهير كي يعيشوا بأفكار سواهم، تلك الأفكار التي حشيت بها أذهان هؤلاء الشبان الجهلاء حشوا. وهكذا انقضى ابتلاؤنا بقيصر ليبدأ بلاؤنا بالثورة. ولم يسلم من هذا التدمير الاجتماعي الأخلاقي في أي شيء في بلادنا، حتى الأسرة. حتى الأحاديث العادية بين الأفراد تجردت من الطيبة والانطلاق على السجية لتحل محلها خيلاء فارغة مفتعلة. فكل فرد الآن يرى من واجبه أن يتحذلق في الكلام عن الموضوعات العامة والنظريات السياسية متشدقا بالمصطلحات الجديدة. وأحس باشا بالتغير الذي طرأ. لكنه أخطأ خطأ قاضيا حين ظن الداء خاصا بالنظام العائلي وحده. وبعائلتنا دون سواها، فنفر من تلك الحياة. وذهب إلى الحرب من غير أن يطالبه أحد بالتطوع لأنه ظن نفسه عبئا علينا فأراد أن يريحنا منه. وما أن بدأ في الطريق الجديد حتى سار فيها إلى نهايتها وقد سيطر عليه الطموح الأحمق، هذا الطموح الذي سينتهي به إلى هلاكه. آه يا رب! لو كان بوسعي أن أنقذه!

– لشد ما تحبينه حبا عاتيا نقيا! استحلفك بالله أن تستمري في حبه، فلست أغار منه. ولن أفعل شيئا لأحول بينك وبين هذا الحب.

***

وأقبل الصيف ثم انقضى من غير أن يفطن أحد لقدومه وفواته، وتماثل يوري للشفاء. والتحق بثلاثة أعمال مؤقتة على التوالي. وكان التدهور السريع في قيمة العملة قد جعل الحصول على الرزق أمرا عسيرا.

وكان ينهض كل صباح في ساعة مبكرة، فيغادر البيت إلى المستشفى فيدخل من بابه الخلفي إلى قسم العيادة الخارجية في مستشفى الجيش، وهنا كان عمله الرئيسي.

وطريقه من مسكن لارا إلى مستشفى الجيش تظلله الأشجار الوارفة. أما البيت الملاصق للمستشفى والمطل على حديقته فهو بيت زوجة أحد التجار واسمها جوريليادوفا. وواجهة بيتها مزخرفة بالرخام البراق على غرار منازل الطبقة العالية في موسكو.

وكان يوري يحضر أيضا ثلاث مرات على الأقل في الشهر اجتماعات مجلس إدارة مصلحة الصحة العامة في يوريانتين بشارع مياسكي.

وفي الطرف الآخر في المدينة مؤسسة لأمراض النساء كان قد أسسها والد ساමديفياتوف تخليدا لذكرى زوجته. وقد سميت المؤسسة الآن باسم روزا لكسمبورج. وفيها كان يوري يلقي محاضرات في علم الأمراض وفي مادتين أخريين يختارهما جزءا من الدراسة الجديدة المختصرة في الطب والجراحة.

وفي الليل كان يعود إلى البيت جائعا تعبا، فيجد لارا منكبة على مهنة المنزل تطهو وتغسل، وقد تشوش هندامها وشمرت عن كميها ورفعت ثوبها إلى فوق. فكان منظرها في هذه المباذل بالغ الروعة في وقعه على فؤاد يوري، ويراها حينئذ أجمل مما لو كانت في قمة زينتها وقد ارتدت ثوب السهرة!

كانت لارا تطهو الطعام وتغسل الثياب وتمسح الأرض بماء الصابون وتكوي الثياب وتصلحها لثلاثتهم. حتى إذا فرغت من ذلك كله لقنت كاتنكا درسا، أو

فتحت كتابا لدراسة الثقافة السياسية الجديدة كي تغدو مؤهلة للتدريس في المدارس التي أعيد تنظيمها على النظم الثورية.

والحق أن إعجابه المتزايد بلارا والجو الذي أنشأته زاد من صعوبة موقفه ومن شدة الصراع الذي يعانيه إزاء واجب عودته إلى زوجته. فكان ذلك الفصام النفسي مصدر عذاب شديد له، فكأنه مصاب بجرح كلما أوشك أن يندمل عاد فانتكأ.

***

ومرت أسابيع، وفي يوم من أيام شهر أكتوبر قال يوري للارا:

– يبدو أنني سأضطر للتخلي عن وظائفي.

– ولماذا؟

– الحكاية القديمة المعادة. في البداية يكون كل شيء على ما يرام. "أننا نرحب بالمجهود المثمر الصادق وبالأفكار العلمية هيا قم بواجبك وكافح معنا" ثم يتضح بمضي الوقت أنهم لا يريدون في الواقع إلا ثرثرة فارغة، مدحا في الثورة، وذما في العهد البائد. وقد سئمت نفسي ذلك كله. لأني لا أصلح لهذا النوع من الأعمال، مع أنني لست من أنصار العهد البائد طبعا. ولكني لا أهضم القول بأنهم أبطال وبأنني برجوازي حقير كان يؤيد الطغيان. وأنا رجل أفسدته تعاليم الكاتب الفيلسوف نيقولايفتش. أنه خالي وهو الذي بث في نفسي أفكاره فنشأت أؤمن بالإلهام والحدس. واستعملهما في تشخيص الأمراض. وهم يمقتون الحدس ولا يؤمنون إلا بالتحليل العلمي الذهني الخالص. وقد تجرأت في محاضراتي على تمجيد طريقة الحدس التي أؤمن بها وأتبعها. فإذا بجميع الطلبة يهتفون في صوت واحد "مثالية مثالية برجوازية صوفية فلسفة شلنج" ولذا لابد من الاستقالة من

مؤسسة الأمراض النسائية ومن مصلحة الصحة العامة. أما المستشفى فسأظل فيه إلى أن يطردوني.

– لا قدر الله يا يوري ولكني أرجوك أن تكون أشد حذرا في المستقبل. فالنظام الجديد لابد في بدايته أن يكون شديد التعصب لنوع معين من التفكير، والانتصار للذهن. وبعد ذلك تأتي مرحلة القضاء على غير المخلصين للنظام الجديد. وفي هذه المرحلة تسود الجاسوسية وروح العنف. ونحن الآن في بداية هذه المرحلة الثانية بدليل أن المحكمة العسكرية المحلية ضمت إليها عضوين جديدين من المجرمين السياسيين السابقين هما تيفرزين، وانتيبوف، وهما يعرفانني معرفة جيدة، وأحدهما عمي. ولكني لم أخف على حياتي وحياة كاتنكا إلا بعد انضمامهما لتلك المحكمة. فهما لا يتورعان عن هلاكنا، وهلاك باشا يوما ما باسم العدالة الثورية العليا!

ولم يمر وقت طويل على هذا الحديث حتى تم تفتيش منزل الأرملة جوريليادوفا القائم بجوار المستشفى. فعثرت الحكومة على أسلحة وأوراق تدل على وجود منظمة معادية للثورة. واتسع نطاق الاعتقالات والتفتيش.

فقالت لارا:

– لقد انتهى وقت الأمن والاستقرار ولابد أن يقبضوا علينا. وأنا لا يمكن أن ترك مصير كاتنكا للمقادير. فلابد من إيجاد حل للخروج من هذا المأزق.

– فلنفكر قليلا. ولكن هل في وسعنا أن نتجنب هذا المصير؟

– أجل أننا لن نستطيع الإفلات من المدينة، فليس هناك مكان يمكننا أن نلجأ إليه. ولكننا نستطيع أن نتوارى قليلا عن الأنظار بالانتقال إلى فاريكينو مثلا. وهناك بيت مستعد لاستقبالنا. وستنقضي سنة على الأقل قبل أن يهتدوا إلى وجودنا هناك. وسيكون سامديفياتوف هو همزة الوصل بيننا وبين المدينة. وسيساعدنا على

الاختفاء. أجل أن فاريكينو موحشة خالية، ويقال أن الذئاب تكثر هناك في فصل الشتاء. ولكن الرجال الذين من طراز تيفرزين وانتيبوف هم أضرى وأخوف من الذئاب.

– لست أدري ماذا أقول لك. ولكنك كنت تحثينني على السفر إلى موسكو بلا إمهال. والسفر الآن أيسر. فالتدقيق على أوراق المسافرين قل عن ذي قبل. وخف إطلاق الرصاص على الناس لأدنى شبهة بين المسافرين. لأنهم تعبوا من هذا العنف الدامي. وأما أشعر بالقلق لعدم ورود رد على رسائلي من موسكو، فمن المستحسن أن أذهب إلى هناك لأرى بنفسي ماذا حدث لهم. وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أوافق على ذهابك إلى فاريكينو الموحشة المنزلة بمفردك.

– كلا. هذا فعلا مستحيل.

– اسمعي! خطرت لي الآن فكرة رائعة.

– ما هي؟

– أننا نرحل معا نحن الثلاثة إلى موسكو!

– أتقول نرحل نحن الثلاثة إلى موسكو؟ هذا جنون! فماذا أستطيع أن أصنع في موسكو؟ يجب أن أظل في هذه المنطقة، فهنا سوف يتقرر مصير باشا. وقد يتضح في وقت من الأوقات أنه في حاجة إلي.

– ولكن يجب أن نفكر في كاتنكا أيضا يا لارا.

– وتحدثت في هذا الموضوع مع سيما، فهي تأتي لزيارتي أحيانا.

– أعلم ذلك. فقد رأيتها هنا مرارا.

– أنك تدهشني. فلو كنت في مكانك لوقعت في غرامها! أنها رائعة الجمال ذكية مثقفة صافية النفس طيبة العشرة.

– أختها الخياطة هي التي قصت لي شعري وحلقت لي ذقني يوم وصولي.

– ولهما شقيقة ثالثة موظفة في المكتبة العامة. وثلاثهن مجتهدات مخلصات. ولذا فكرة إذا ألقى القبض عليك وعلى أن أطلب منهن العناية بأمر كاتنكا.

– فكرة لا بأس بها، ولن نكون بحاجة إلى شيء من ذلك بإذن الله.

– ويقال أن سيما فتاة غير متزنة العقل. وهي فعلا غير طبيعية بسبب ذكائها الخارق وسعة إطلاعها. وأنتما متشابهتان في هذه الصفة وفي وجهات نظر كثيرة. وكم يسرني أن تقوم على تربية كاتنكا.

***

وفي يوم عطلته ذهب يوري إلى المحطة ولكنه لم يفز بطائل، وعاد إلى البيت منهوك القوى. وكان من عادته في يوم العطلة أن ينام ساعات تكفيه لأيام العمل التسعة التالية. لأن الأسبوع أصبح مؤلفا من عشرة أيام.

ووجد سيما عند لارا. ولكنه لم يظهر نفسه لهما لرغبته في الراحة، فتمدد على الفراش وأخذ يصغى إلى حديث سيما في الحجرة الأخرى وهي تعرض خواطرها الفلسفية على لارا. ولارا تصغي وتناقش وهي منهمكة في الحياكة.

وأعجبه أن يجد آراءها النافعة مقتبسة من خاله نيقولاي وفلسفته. ولكن كان من الواضح أن ذكاءها متوقد وموهبتها في الفهم والبيان عظيمة.

ونهض من مكانه فاقترب من النافذة المطلة على الفناء، وهي مجاورة للنافذة الأخرى التي يسمع منها حديث المرأتين. وكانت الظلمة قد بدأت تخيم على الفناء. ثم ظهر عصفوران راحا يبحثان في الفناء عن مكان يأويان إليه. فقال الدكتور في نفسه:

– طائر العقعق ينبئ بنزول الثلج قريبا.

وإذا به يسمع سيما تقول في الحجرة الأخرى:

– طائر العقعق بشير بوصول أنباء جديدة. سيطرق بابك يا لارا ضيوف أو يصلك خطاب.

وبعد قليل رن جرس الباب فخرجت لارا من وراء الستار، وأسرعت إلى الباب ففتحته. وسمعها يوري تتحدث إلى جلافيرا شقيقة سيما التي كانت قد قصت له شعره.

– جئت تبحثن عن أختك؟ أنها هنا.

– لم أحضر لهذا السبب، وإن كان لا مانع طبعا من عودتنا إلى البيت معا. فقد جئت لأحمل رسالة إلى صاحبك فمن حسن حظه أنني اشتغلت بعض الوقت في مصلحة البريد. والله أعلم كم يدا تداولت هذه الرسالة. لأنها قضت في الطريق من موسكو إلى هنا خمسة أشهر ولم يستطيعوا معرفة شخصية المرسل إليه. وأخيرا بدا لهم أن يسألوني. وبالطبع عرفته فقد قصصت له شعره ذات مرة.

وكانت الرسالة من تونيا. وهي رسالة طويلة تضم جملة أوراق موضوعة في ظرف بال فتحه عمال مكتب البريد.

وتحت ضغط المفاجأة لم يستطع الدكتور أن يكيف الموقف فهو لا يدري كيف ناولته لارا الرسالة ففضها بيد مرتعشة وبدأ يقرأ. وأحس إحساسا غامضا أنه لم

يزل في يوريانتين في بيت لارا. ولكن الإيغال في القراءة مسح ذلك الإدراك الضعيف للواقع الذي حوله. وعند خروج سيما حيته مودعة فرد عليها من غير وعي.

وكانت الرسالة التي كتبتها أنتونينا تجري على هذا النحو:

"رزقنا بطفلة جديدة سميناها ماشا تيمنا باسم والدتك. وتم ترحيل عدد كبير من الأساتذة البارزين ذوي الميول الاشتراكية ومن بينهم خالك نيقولاي ووالدي. وهي كارثة كبرى، ولاسيما وأنت غائب. ولابد من ترحيلنا نحن أيضا لأن العائلات تتبع في المنفى رجالها. ولكننا نحمد الله لأنهم اكتفوا بالنفي. ففي مثل هذه الظروف قد تكون الإجراءات أعنف من هذا بكثير. ولو كنت هنا لرحلنا معا. ولكن من يدري أين أنت الآن؟ ولكني سأرسل هذه الرسالة على عنوان انتيبوفا لتسلمها إليك إن كانت تعرف أين أنت. ومما يضايقني أن تصريح السفر إلى المنفى، وهو تصريح عائلي ليس من المضمون أن يشملك أنت أيضا عند العثور عليك. وأنا لم أيأس بعد من وجودك على قيد الحياة. فإن قلبي المحب يؤكد لي ذلك وأن أثق تمام الثقة بما يحدثني به قلبي من أننا سنجتمع مرة أخرى في صعيد واحد.

"إن مشكلتي التي أعاني منها يا يوري أنني أحبك وأنت لا تحبني. أن هذه الحقيقة تحيرني وتعذبني لأني لا أجد لها مبررا. فكلما نظرت في أعماق نفسي واستعرضت حياتنا معا لم أستطع العثور على تفسير مقنع لهذه الظاهرة ولا أذكر أنني فعلت شيئا أستجلب به ذلك الشقاء على نفسي. فاشعر أنك تظلمني وكأنك ترى صورتي في مرآة مشوهة!

"أما أنا يا يوري فأحبك! ليتك تعلم مبلغ هذا الحب! أحبك على علاتك وشذوذك. أحبك لما هو صالح فيك ولما هو طالح على السواء. أحبك لسمو

أفكارك التي تكسب وجهك بهاء لولاه لما كنت في مرأى العين بهذا الجمال! إن ذكاءك الخارق طغى على إرادتك الضعيفة ولكنني أحب هذا فيك.

"سنرحل غالبا إلى باريس. وساشا كبر قليلا. وكلما تذكرناك بكى. وهأنذى أيضا أبكي. ولذا لن أستطيع مواصلة الكتابة. فيجب أن أودعك الآن وأباركك وأنا لا أدري كم سنة طويلة ستنقضي قبل أن نلتقي. أني لا ألومك على شيء من سلوكك ولا أوبخك ولا ألزمك بشيء. فتصرف في حياتك كما تشاء، وسيسعدني أن تظفر بالسعادة كما تشتهي.

"وقبل أن أغادر الأورال تعرفت إلى لارا. وكم أنا مدينة لها لأنها لازمتني باستمرار في ظروف وضعي العصبية. أنها امرأة تبعث على الاحترام. ولكني لا أستطيع النفاق، ولذا أبادر فأقول لك أنها على العكس مني. فأنا امرأة بسيطة آخذ الحياة بسهولة، أما هي فتعقد الأمور وتخلق الفوضى.

"والآن وداعا يا يوري فقد آن لنا أن نحزم أمتعتنا. آه يا عزيزي وحبيبي وزوجي ووالد أولادي، ماذا يخبئ لنا الغد؟ هل يقدر لنا أن نلتقي يوما؟ أن هذا السؤال يكاد يقتلني جزعا! ها هم يستعجلونني لأختم الرسالة وأنطلق معهم لحزم متاعي. فكأنما جاء الجلادون ليسوقوني إلى ساحة الإعدام! يورا! يورا!".

ورفع يوري عينيه اللتين يكاد الدم ينبجس منهما، وتطلع أمامه في ألم وغيبوبة، فوجد الثلج يتساقط في الخارج، والهواء يعبث بذلك الثلج ويكومه بجوار الجدران. ثم لا تلبث أن تهبط طبقات أخر من الثلج وتزداد كثافة كأنما تتحدى الرياح.

وكانت عينا يوري تحدقان في ذلك الصراع الدائم بين الثلج والهواء. ولكن بغير وعي. لم يكن يرى أمام ناظريه إلا سطور رسالة تونيا وكأنما الذي يتطاير في

الهواء أمامه ليس حبات الثلج، بل ذلك الفراغ الأبيض من الورق بين الحروف الصغيرة السوداء. فراغ أبيض مجهول تعبث به الرياح وترمي به إلى مصير مجهول.

ولم يستطع في حزنه الملتاع أن يذرف الدمع. فلما استعصى عليه أخرج من صدره آهة كشواظ النار، ثم قبض على قلبه وقد شعر ببوادر الإغماء فارتمى على المقعد فاقد الرشد.

الفصل الثالث عشر

الرجوع إلى فاريكينو

دخل يوري المستشفى وهجم الشتاء فجعل الثلج يتساقط كتلا كبيرة. ولما استرد صحته غادرا المدينة معا ذات صباح مكفهر الأديم، وكانا مستقلين زحافة ويحييان معارفهما. فلما رأتهما جلافيرا أخت سيما جعلت تلوح لهما. وعند قمة مرتفع التقيا بسيما نفسها وقد تدثرت بشالين، فلوحت بيدها أيضا وصاحت:

– يجب عندما تعودان أن نتناقش في كثير من الموضوعات يا يوري أندرويفتش!

ثم خرجا من المدينة أخيرا، واستمر السفر طول النهار. ويوري يتولى قيادة الزحافة، أما لارا فمشغولة بكاتنكا التي في حجرها. وكلما ارتفعت بهما المحفة أو هبطت لوعورة الطريق تناثر الثلج على ثيابهما فتضحكان أو تصرخان وهما تتأرجحان بشدة.

ووصل الثلاثة إلى فاريكينو قبل هبوط الليل، ووقفوا أمام بيت آل زيفاجو القديم في أول القرية ثم دخلوه تحت جنح الظلام فلم يستطع يوري أن يتبين مقدار قذارة البيت. وكان معظم الأثاث سليما. ولكنهم لم يعثروا على شيء من المئونة طبعا. وانتابت يوري كآبة مفاجئة وهو ينظر إلى الحجرات المألوفة في ذهول وقد سادتها الوحشة ثم قال للارا فجأة:

– أفضل أن ننتقل إلى دار آل ميكوليتسين في الطرف الآخر من القرية وعلى الأثر انطلق الثلاثة نحوه.

وكان بيت آل ميكوليتسين أصغر حجما وأكثر تنسيقا. وقد أمضى ثلاثتهم الليل من غير أن يخلعوا ملابسهم بل تغطوا بالمعاطف وناموا بعد تعب السفر نوما عميقا هادئا.

ولما استيقظوا في الصباح الباكر، نظر يوري إلى المكتب الجميل القريب من النافذة، وشعر برغبة شديدة في الجلوس أمامه للكتابة. بيد أنه أرجأ ذلك إلى المساء، حينما تكون لارا وكاتنكا نائمتين.

وفي ساعة الغداء وضعت لارا على المائدة حساء البطاطس الذي استطاعت أن تحصل عليه من الحدائق المهجورة، وكانت كمية تكفي عشرين شخصا فأكلت كاتنكا إلى أن أتخمت ثم تغطت بمعطف أمها ونامت. وانصرفت لارا إلى حديث حالم مع يوري، فقالت له فيما قالت:

– آه يا يوري. افرض على سلطانك وأخضعني دائما لإرادتك ورغباتك، ذكرني على الدوام أنني أمتك التي تعبدك وتتدله في حبك. أنني حين أنظر إليك وأعانقك أشعر أنني تحولت إلى روح خالص فإلى متى يا رب هذا الحنين الوحشي الذي يأكلنا ويلتهم حناياناا؟!

وطوقته بذراعيها وانهمرت دموعها. وأخذ هو يربت عليها، ثم قال:

– أني منذ الصباح أفكر في البقاء هنا في هذه القرية المهجورة وحدنا أطول مدة ممكنة. وأنا لا أستطيع أن أبقى مدة طويلة بغير عمل يشغل تفكيري. ولا بد من يوم قريب تعود فيه الحياة إلى حالتها الطبيعية في الروسيا شيئا فشيئا وتستأنف المطابع نشر الكتب. ولذا خطر لي أن نحاول الاتفاق مع سامديفياتوف كي ينفق علينا ستة أشهر مثلا، أقدم إليه في نهايتها كتابا أتمه في هذه الفترة. كتابا في الطب أو ربما في الأدب، أو ترجمة لكتاب مشهور من الآداب العالمية. وأنا كما تعلمين أتقن عدة لغات أجنبية، وقد قرأت أخيرا إعلانا عن دار كبرى للنشر في بطرسبرج

لا تنشر شيئا سوى المؤلفات العالمية المترجمة. وهذا عمل لابد أن يدر مالا كثيرا وهو من نوع الأعمال التي أتمنى القيام بها.

فتهلل وجه لارا، وقالت:

– ما أسعدنا. لقد خطر لي هذا الشيء بعينه. ولكن لا أعتقد أننا سنبقى هنا طويلا. إلا أني أرجو أن تخصص في المدة التي سنمكثها هنا بضع ساعات كل ليلة لتدوين قصائدك التي طالما أنشدتني إياها، خوفا من أن يغمرها النسيان.

***

وفي نهاية النهار استحم الثلاثة بالماء الساخن وارتدوا ثيابا نظيفة وتظاهرت لارا بالنوم بجوار كاتنكا. وساد السكون العميق حول يوري وهو جالس إلى المكتب تحت الضوء المصفر المنبعث من المصباح وأخذ يتذكر قصائده القديمة ويسجلها. فتحرك وتر الشعر في نفسه، وخطرت له أبيات جديدة، وأحس باقتراب الوحي فشرع يكتب في نشوة شديدة وعيناه معلقتان بمنظر لارا وهي نائمة محتضنة الطفلة الملائكية.

وفي الهزيع الأخير من الليل سمع صوتا حزينا يتردد في الفضاء حول البيت، فارتدى معطفه وفتح الباب ووقف على عتبته ينظر في ضوء القمر المنعكس على الثلج في وهج غريب. وفي بداية الأمر لم يستطع أن يرى شيئا ثم بعد قليل تبين صفا من الذئاب. أربعة ذئاب تقف متلاصقة وهي ترنو إلى البيت المضيء وتطلق عقيرتها بالعواء. وبعد قليل أدارت له الذئاب ظهرها واختفت، وهنا شعر يوري بالارتياع لأنه خشي أن تكون أو جارها قريبة من البيت. وهناك في الإسطبل فرس سامديفياتوف. فلابد أن رائحتها هي التي اجتذبت الذئاب الجائعة.

وانتوى في نفسه ألا يحدث لارا بشيء من ذلك حتى لا يفزعها ثم دخل وأغلق الباب. واتجه إلى المكتب مرة أخرى. ولكن الرغبة في الكتابة كانت قد

تلاشت وتبددت. لأن منظر الذئاب الجائعة العاوية أثار فيه القلق وفتح له باب التفكير في الهموم التي تترصده.

وفي هذه اللحظة استيقظت لارا وتقلبت في فراشها. وقالت له في نعومة وحنان:

– أمازلت ساهرا يا حبيبي؟ تعال هنا بجانبي لحظة. التصق بي فإني أريد أن أشعر بقربك كي أقص عليك ما رأيته الآن في حلمي.

وقبل أن يذهب ليلتصق بها، نفخ بفمه المصباح فأطفأه.

***

وعندما استيقظ يوري وجد الشمس تملأ الحجرة، وأحس في رأسه صداعا، فظل طول النهار متناوما مستسلما للكسل، تزعجه فكرة وجود الذئاب عن كثب من البيت.

وعندما هبط الليل جلس إلى المكتب بعد أن نامت لارا، وكاتنكا كما حدث في الليلة الماضية. وبدأ ينظر فيما كتبه في الليلة السابقة، فوجد القصائد القديمة لا تحتاج إلى شيء. أما الأشعار الجديدة التي كتبها تحت تأثير وحي الساعة فكانت مكتوبة بصورة غير مرضية، بخط مشوش تنقصه بعض الحروف. لأنه وهو تحت تأثير الوحي كتب وهو في شبه غيبوبة. وفضلا عن هذا اكتشف أن هذه الأشعار التي كتبها والدمع يجيش في عينيه لجيشان عواطفه ليست في الواقع إلا وليدة صنعة وتكلف. وقد ظل كل حياته يمني النفس بأصالة في فنه. بأصالة من نوع خاص، لا تبدو على سطح السطور، بل تتوارى تحت شكل أسلوبي عادي. وقد ظل طول حياته ساهرا على إنضاج هذا الأسلوب المباشر البعيد كل البعد عن التكلف، والذي يدخل إلى الذهن والقلب مباشرة كالهواء الذي يدخل الصدر من غير أن

يلفت النظر أو يحتاج إلى مجهود خاص. ولكن ها هو ذا الآن يكتشف أنه لم يزل بعيدا كل البعد عن تحقيق هذا الهدف.

أنه في الليلة الماضية حاول أن يعبر ببساطة متناهية عما في نفسه من مزيج غريب يجمع بين الحب والارتياع والندم والإقدام. وكان يريد لتعبيراته أن تنطلق من قلمه كأنما تتقوم وجدانياتها بغير حاجة إلى كلمات، كما تبدو الخمر في الكأس الشفافة "أشربة بلا أوان".

وانصرف يوري إلى تنقيح ما كتبه وجعل يكافح ضد الحشو ويستبعد كل عناصر التفخيم والتطريب التي لا تنتمي إلى المعنى.

وزادت حرارة العمل من حماسته. فلما انتهى من ذلك التنقيح بدأ يكتب أسطورة ماري جرجس البطل في أبيات قصيرة المقطع سريعة خفيفة، حتى كاد يسمع وقع جواد ذلك الفارس المنتصر، وهو يجوب أرجاء الروسيا الشاسعة. وقد أخذت الأبيات تنثال تباعا حتى كادت يده تعجز عن ملاحقة خواطره.

ولم يفطن وهو يكتب مستغرقا في الوحي إلى أن لارا استيقظت واقتربت من المكتب. وقد زادها قميص نومها الطويل طولا ونحولا ورقة. فلما فوجئ يوري بوقوفها أمامه ورأى الذعر مرتسما على وجهها، قالت له همسا وهي تمد إليه ذراعيها:

– ألم تسمع نباح الكلاب؟ أني خائفة. يا له من نذير شؤم! متى طلع الصباح سنرحل. فلن أبقى هنا لحظة واحدة!

وقضى يوري ساعة يهدئ من روع لارا حتى عاد النوم إليها ثم خرج فوقف على عتبة الباب مثل أمس. فإذا الذئاب في هذه الليلة كانت اقرب إلى الدار وأكثر عددا. وما أن رأته حتى اختفت، ولم يستطع أن يعرف الاتجاه الذي توارث فيه.

كان اليوم هو الثالث عشر في فاريكينو. وكان شبيها بجميع الأيام السابقة عليه. وفي الليل كانت الذئاب تعوي، ولارا تحسبها كلابا فتتشاءم منها وتصمم على الرحيل. واستولى القلق على هذه المرأة التي عاشت طول عمرها تعمل وتكدح، ولم تتعود أن تقضي يومها في المناجاة العاطفية أو في الاستسلام للحنان الدافق.

إن كل شيء في هذه الحياة يتكرر مرارا بصورة واحدة، ولذا أخذت لارا في صباح هذا اليوم تحزم الأمتعة للرحيل. وكان مجرد النظر إلى السحب الداكنة المنخفضة يدل على أنه من المحتمل سقوط الثلج بين لحظة وأخرى. أما يوري فكان يشعر بإعياء شديد، بدنيا وعقليا، لسهره حتى الفجر ليالي متعاقبة، فدب الوهن إلى ساقيه وتشوشت أفكاره. عندئذ راح يتمشى من حجرة إلى حجرة وهو يفرك يديه كي يطرد البرودة، منتظرا أن تخبره لارا بما صح عليه عزمها كي يرتب أموره على ذلك الأساس.

ولم تكن لارا نفسها تعرف ماذا تريد. كل ما هي واثقة منه أنها تريد أن تستبدل بهذه الحياة الراكدة الفوضوية حياة أخرى منظمة يسودها القيام بالواجبات والمسئوليات المرهقة. فذلك في نظرها شرط ضروري لحياة كريمة.

وبدأت لارا يومها كالمعتاد بترتيب الأسرة وكنس الأرض وإعداد طعام الفطور، ثم أخذت بعد ذلك تحزم الأمتعة. وطلبت من يوري أن يسرج الفرس لأنها عزمت عزما أكيدا على الرحيل!

ولم يحاول يوري أن يراجعها في ذلك القرار. أجل أنه من الجنون الواضح أن يعود إلى مدينة يوريانتين بعد أن بلغت الاعتقالات التعسفية هناك غاية العنف. ولكن كان جنونا مطبقا أيضا أن يبقى في فاريكينو وحيدا أعزل تحت رحمة القدر في هذه الصحراء الجليدية. ولاسيما أن قبو الدار أصبح خاليا تماما أو يكاد يخلو من الشوفان. ولذلك كف يوري عن كل تفكير أو مناقشة وذهب ليسرج الفرس.

ولم تكن له دراية حسنة بهذا الأمر. وبالرغم من أن سامديفياتوف علمه كيف يسرجها، فإنه نسي، وجعل يتخبط إلى أن أسرج الفرس حيثما اتفق ثم ربطها ودخل ليدعو لارا إلى الركوب.

ووجد الأم وابنتها مستعدتين، وقد أتمتا حزم كل شيء. ولكن لارا كانت في كرب شديد فطلبت منه أن يجلس لحظة. وشفتاها ترتجفان كأنها على وشك البكاء، ثم أخذت تتكلم بصوت متلعثم مأزوم:

– لا أدري ما الذي أصابني فدفعني إلى الرحيل فجأة. لكن ترى هل نستطيع أن نرحل الآن حقا؟ عما قليل سيخيم الظلام ونحن في وسط الغابة الرهيبة. وأنا خائفة من الآن، ولا أستطيع أن أتحمل مسئولية تلك الرحلة. قلبي منقبض وشيء ما يمسكني هنا. فلماذا لا تتصرف أنت؟ لماذا أنت صامت؟ لقد ضاع اليوم على كل حال ويجب أن نتلافى هذا التأخير غدا. يجب أن تنهض مبكرا لنرحل من هنا في السادسة أو السابعة صباحا. ما رأيك؟ ستشعل الموقد وستمضي ليلة أخرى في الكتابة. ثم ننام هنا ليلة أخرى جميلة! لماذا لا تقول شيئا؟ ويحي أن الشقية!

– أنك تبالغين يا لارا. فلم يزل بيننا وبين الغروب وقت طويل. ولكن لا بأس. فليكن ما تريدين. ولنبق هنا يوما آخر ولكن لماذا تنفعلين بهذه الصورة؟ هيا اخلعي معطفك. وها هي ذي كاتنكا بدأت تشعر بالجوع فأعطيها شيئا تأكله. لقد أصبت بالبقاء لأننا لم نعد للرحيل عدته، لماذا تبكين بالله عليك؟ سأذهب بالفرس لأحضر من بيتنا القديم شيئا من الحطب، فلم تعد لدينا حطبة واحدة. ولكن بالله عليك كفي عن البكاء. وسأعود بسرعة وأشعل الموقد.

***

وعندما عاد الدكتور بحزم الحطب رأى أمام الباب جوادا أسود مشدودا إلى عربة ريفية مريحة. وهناك شاب بدين بعض الشيء نظيف الثياب يدور حول الحصا ويجس أعضاءه.

وسمع من البيت أصواتا غريبة. ثم تعرف على صوت كوماروفسكي مختلطا بصوتي لارا وكاتنكا. وكانت رنة الاضطراب والضيق ظاهرة على صوت لارا وكأنها تقاوم البكاء. أما صوت كوماروفسكي فكان كالعادة قويا. وخيل إليه أنه يتكلم عنه، لأنه سمعه يقول:

– أنك إذ تعتمدين عليه وتطاردينه تطاردين في وقت واحد أرنبين، وتحاولين الجلوس على كرسيين!

ودخل يوري إلى البيت فوجد كوماروفسكي في الحجرة الأولى مرتديا معطفه السابغ. وما أن رأت لارا الدكتور حتى اندفعت نحوه قائلة:

– أين كنت كل هذا الوقت اسمع ما يقوله ضيفنا وقدر بسرعة ماذا نصنع فإن ضيفنا يحمل إلينا أخبارا هامة ولابد لنا أن نسافر فورا.

فأخذ يوري يهدئها ثم سلم على كوماروفسكي، وسأله عن جلية الأمر فقال:

– يظهر أن لارا تعني بالأخبار التي أحملها وهي أن هناك قطارا خاصا وصل أمس من موسكو وسيغادر يوريانتين غدا. وهو قطار نصف عرباته مخصص للنوم. وتحت يدي تصريح باستعمال هذا القطار أنا ومن اختارهم من المعاونين لي في عملي. ولن يتوفر السفر بهذه الراحة والرفاهية مرة أخرى. ولارا تقول أنها لا يمكن أن تسافر ما لم تسافر أنت معها أيضا. فإن لم يعجبك أن ترحل معنا إلى فلاديفوستك في أقصى الشرق، ففي وسعك أن تذهب معنا إلى يوريانتين وهناك تفكر مرة أخرى فيما تصنعه، ولكن لابد من الرحيل فورا حتى لا يفوتنا ذلك القطار. وسيساعدك حوذي عربتي على تحميل زحافتك. وأرجو ألا تأخذوا معكم إلا الضروري الذي لا غنى عنه من الأمتعة. وكل هذه المحاولة من أجل إنقاذ حياة الطفلة كاتنكا التي لا يجوز لكما أن تهلكاها بالبقاء في هذه المنطقة. ولا داعي لإقفال الأبواب. فليذهب البيت إلى الشيطان.

– ما أعجب كلامك! أنك تتكلم كما لو كنت وافقت على السفر أنا أيضا أرحلوا أنتم، وسأبقى هنا قليلا لأرتب كل شيء وأغلق الأبواب.

فصاحت لارا بجنون:

– أنت تعرف جيدا أنني لا يمكن أن أسافر بدونك.

وقال كوماروفسكي:

– يظهر أنك مصمم على موقفك ولكن فلتسمح لي لارا بالاختلاء بك دقيقة واحدة بالمطبخ لأقول لك كلمتين على انفراد.

– هيا بنا إلى المطبخ إذن.

– أعتقل سترلينكوف، وحوكم وأعدم!

– يا للهول! أهذا ممكن؟

– لقد تأكدت من ذلك.

– لا تخبر لارا حتى لا تصاب بالجنون.

– طبعا لن أخبرها ولكني أخبرتك أنت لتقدر أنها وابنتها تتعرضان بعد إعدامه لخطر داهم. فساعدني على إنقاذهما بالسفر معهما.

– هذا موضوع لا محل للتفكير فيه.

– ولكنها لن تذهب بدونك. فتظاهر على الأقل أنك رضيت بالسفر معنا، ولو على أن تلحقنا بعد قليل. عدها بذلك وعدا كاذبا. أبذل كل ما بوسعك كي تصدقك. قل لها أنك ستسرج الفرس ثم تلحق بنا في الطريق. افعل أي شيء كي تحملها على الرحيل وهي واثقة من لحاقك بنا.

– الواقع أن ذهولي بنبأ إعدام سترلينكوف جعل ذهني يشرد فلم أسمع ما قلته. ولكنني أوافقك على أن حياتي لارا وكاتنكا صارتا في خطر على حسب سياسة الحكم الجديدة. خذهما إلى أقاصي الأرض. أن حياتهما الآن موكولة إليك. وذهني في هذه اللحظة مشلول عن التفكير السليم. وأخشى أن أرتكب خطأ أندم عليه طول حياتي. وفي الوقت نفسه أجدني مضطرا أن أخضع لرأيك خضوعا أعمى حتى لا أجازف بحياة لارا وكاتنكا. أجل سأعدها وعدا كاذبا.

– هذا هو عين الصواب. وبهذه المناسبة معي كمية من الفودكا سأتقاسمها معك لأنها ستنفعك هنا في ليالي الشتاء الباردة.

وعند الغروب كان يوري واقفا على عتبة الباب وظهره إلى الدنيا، يجبل عينيه في الدار الخاوية وهم يغمغم:

– لقد آذنت شمس حياتي بغروب. يا جميلتي ويا حبي الباقي على الزمن! أنك تعيشين في ذراعي وعلى شفتي وفي قطرات دمي وخلايا أعصابي! سأحفر حبك الباقي على صخرة الزمن بأشعار حزينة محتدمة. سأبقى هنا وحدي استعيد ذكرى طيفك وحنانك وأكتب من ذوب دمي قصائد حبي.

وظلت أفكار غريبة تدور في رأس يوري. كأن هناك أعاصير تهب داخل جمجمته فانصرف عن العناية بالبيت والعناية بنفسه. وجعل يقضي الوقت في احتساء الفودكا وينظم أشعارا في لارا. وكلما كتب أبياتا أعاد تلاوتها فلم تعجبه، فيشطبها ويعيد كتابتها من جديد. ثم يتبين أن كل الذي يكتبه عن لارا بعيد كل البعد عن تلك المرأة الحقيقية أم كاتنكا التي ملأت جنبات البيت وجوانب حياته ثم رحلت بعيدا إلى أقصى الشرق مع طفلتها الصغيرة.

كان يعيينه العثور على التعبير الدقيق القوي، وكان يشعر بحائل في نفسه يمنعه من التصريح بمكنونات عواطفه الشخصية وإحساساته الحميمة، فتخرج

الأشعار خالية من نبضة الحياة وحرارتها. وهكذا غاب من تلك القصائد كل دام آخذ بمجامع القلوب، ليحل محل ثناء هادئ تكاد تنعدم منه الخصوصية، وكأنه تعبير عن موضوع عام.

وإلى جانب تلك القصائد التي يندب بها حبه وحياته الخاوية، كان يسجل قصائد قديمة وينقح مسودات مقطوعات كتبها عن الطبيعة والحياة اليومية. وتزدحم على رأسه في تلك الأثناء خواطر شتى عن أزمة الفرد والمجتمع في ذلك العصر المتقلب.

أنه وهو يبكي لارا، يبكي أيضا حلما جميلا كانت تتمثل فيه الثورة رائعة نقية قبل أن تنقلب في إطار الواقع إلى آلة ضخمة للاستبداد والعنت!

وبعد أيام جاء حوذي كوماروفسكي يحمل إليه كمية أخرى من الفودكا وحدثه عن رحيل لارا انتيبوفا وطفلتها مع كوماروفسكي. وحمل الحوذي معه الفرس إلى صاحبها في يوريانتين، بحجة أن صاحبها في حاجة إليها. ووعده أن يعود بعد أيام لكي ينقله نهائيا من فاريكينو.

وانهمك يوري مرة أخرى من قرض الشعر وفي استحضار صورة المرأة الباهرة التي حرم من حنانها، فاشتد شعوره بالخيبة والحنين وأصيب يشبه حمى تؤرقه فيها ألوان من الرؤى والكابوس.

***

كان الجو ما يزال صحوا، قبيل غروب الشمس، حين سمع وقع خطوات مقبلة. كان القادم رجلا يسير في هدوء واعتداد نحو البيت، فأخذ يسائل نفسه:

– ترى من يكون هذا القادم سيرا على قدميه؟ أن أنفيم سيحضر ممتطيا جوادا، وفاريكينو مقفرة من المارة، لابد أنهم يقتفون أثرى ويبحثون عني، ولابد أن

القادم حضر ليدعوني للعودة إلى المدينة. بل لعلهم في طريقهم إلى اعتقالي. ولكن هل يكون ذلك بإرسال شخص واحد؟ لعلهما اثنان أو أكثر! آه لعله ميكوليتسين فإني أعرف مشيته، وغمره شعور بالبهجة لهذا الخاطر.

ووصل الرجل المجهول أمام الباب المفتوح، وتوقف لحظة ثم استأنف السير، كأنه على بينة من المكان الذي يقصده.

وكان يوري في هذه اللحظة جالسا إلى مكتبه، وظهره متجه نحو الباب، وهم أن ينهض لاستقبال الرجل، فوجده قد وصل إلى عتبة الدار، وقد توقف عن المشي مشدوها. وسأله يوري في دهشة:

– ماذا تبغي؟

وعندما وقع نظر يوري على الرجل، وجده بهي المحيا، جميل قسمات الوجه، قويا مفتولا، يرتدي سترة مبطنة بالفراء، وسروالا من نفس النوع، وحذاء من الجلد الثمين، وقد حمل معه بندقية صغيرة.

وكان حضور الرجل مفاجأة ليوري، ولو أنه كان يتوقع حدثا كهذا، فالدلائل التي تحيط به كانت تنبئ بذلك.

وخطر بذهن يوري أن الرجل هو صاحب المؤن التي كانت مخزونة بالبيت. على أنه خيل إليه أنه رأى هذا الرجل في مناسبة ما.

وكان القادم يتوقع أيضا أن البيت ليس خاليا، ولذا لم يفاجأ برؤية يوري، فربما أخبره أحد بذلك. بل ربما كان يعرف أن الساكن هو يوري.

وقدح يوري ذهنه متسائلا:

– من هو؟ من هو؟ وأين رأيته يا ترى؟ أغلب الظن أنني التقيت به ذات صباح دافئ، ولكن لا تحضرني الذاكرة في أي يوم كان ذلك؟ وفي أية سنة؟ في محطة رازفيلييه! في عربة القوميسير الذي كنت أتوجس منه! أفكار واضحة كالمرآة، وأحكام جامدة، ومبادئ قاسية صارمة.. المستقيم الصالح.. المستقيم الصالح.. سترلينكوف!

***

أخذ الليل ينشر أجنحته، والظلمة تترامى على الكون، عندما كانا يتحدثان، وكأنهما الروسيان الوحيدان اللذان يستطيعان التحدث كما يتحدث المجانين، والمنكوبون بنوع خاص، والحاقدون الملتاعون.

ولم يكن سترلينكوف ممن يميلون إلى الثرثرة، ولكن يبدو أن أسبابا قوية شخصية جعلته يندفع في الكلام دون توقف.

لم يتعب سترلينكوف من الكلام، بل اندمج بكليته في الحديث مع يوري، ولعله كان يسعى من وراء ذلك إلى الهرب من الشعور بالوحدة. هل كان يرهب وخز الضمير، أم الذكريات الأليمة التي تلاحقه، هل كان يئن تحت وطأة الشعور بعدم الرضا عن نفسه، حيث يصبح إنسانا بغيضا لا يحتمل، ويكون مستعدا لأن يموت خزيا وعارا. أم هل اتخذ قرارا رهيبا، يؤثر ألا ينفذه وهو منفرد بنفسه، أو يرجئ تنفيذه، فرأى أن يلتقي بيوري ويثرثر معه؟!

وبدا على سترلينكوف أنه يحمل بين ثنايا ضلوعه سرا خطرا، أرهقه وطغى على جميع مشاعره وإحساساته.

وأخذ سترلينكوف يقذف بالكلام في فوضى، وكأنه في حالة حمى وهذيان، ينتقل من اعتراف إلى آخر:

– لقد كنا بالقرب من تشيتا، ألم تؤخذ بتلك المنوعات الغريبة التي كدستها في البيت، وملأت بها رفوفه وقواريره؟! أنها من الغنائم التي فزنا بها، حينما توغل الجيش الأحمر في سيبيريا الشرقية واحتلها، طبيعي أنني لم أنقلها وحدي، فقد كان إلى جانبي رجال مخلصون أوفياء. هل رأيت القهوة، والشاي، والشموع، والكبريت. والورق. والحبر. أخذناها جميعها من مخازن المؤن التشيكية العسكرية، ومن مخازن اليابانيين والانجليز، أن هذا ثمين! أليس كذلك؟ هل تدري أن تعبير "أليس كذلك" هو تعبير زوجتي المفضل... ألم تلاحظ ذلك؟! لست أدري هل أتكلم في صراحة بمثل هذه السرعة...! لعل من الأصوب أن أدخل في الموضوع دون مقدمات.. لقد حضرت لأرى زوجتي وابنتي، فلم يصل إلى علمي أنهما هنا إلا أخيرا.. ولكن هأنذا لا أراهما! وقد عرفت صلتك بها من التقارير ومن الإشاعات! وعندما قيل لي "الدكتور زيفاجو" أخذتني الحيرة، وسالت نفسي كيف استطعت أن أتذكر، بين الآلاف من الوجوه التي مرت أمامي، في السنوات الأخيرة، وجه الدكتور الذي وقف أمامي ذات يوم... لأحقق معه!

– لعلك ندمت لأنك لم تقتله!

ولكن سترلينكوف تجاهل سؤال يوري، وكأنه لم يتنبه لهذه المقاطعة، وتابع كلامه ذاهلا متأملا:

– لقد كنت غيورا، ومازلت، وهل يمكن أن أكون غير ذلك؟! لقد اختبأت هنا منذ بضعة أشهر، بعد أن أصبح من المتعذر علي الظهور في الشرق الأقصى. وكان مقررا أن أحاكم أمام المحكمة العسكرية بسبب وشاية. ومن السهل جدا التخمين بنتيجة المحاكمة. وكنت أجهل أنني ارتكبت ذنبا. وكانت أمنيتي أن أظهر سلامة موقفي، وأن أدافع عن سمعتي، عندما تسمح الظروف بذلك. ولهذا رأيت أن انتظر، وبالتالي أن اختفى، حتى لا أعتقل. وألبس لباس أحد النساك المتجولين. وكان باستطاعتي أن أنجح، لولا أن شخصا غدر بي، فخانني بعد أن منحته ثقتي.

لقد اتجهت نحو الغرب، عبر سيبيريا المترامية، سيرا على الأقدام. في فصل الشتاء، واختبأت حتى في التراب والطين، وبلغ مني الجوع أقصاه، حتى كدت أهلك وأموت. وكنت أتجنب الممرات المطروقة، وأنام بين أكوام الثلج، أو في القطارات المغطاة بالثلج، المعطلة على طول الطريق. وجعلت أتخبط في تشردي، حتى جمعتني المقادير بفتى أفاق، زعم أنه هارب من وحشية الأنصار، وأنهم كانوا قد حكموا عليه بالإعدام، ولكن الإصابة لم تكن مميتة، فزحف بين جثث القتلى وهرب، ثم لجأ إلى الغابة واختبأ، حتى شفي، وأنه الآن شرير مثلي. يتنقل من مخبأ إلى آخر ولكنه كان فتى شريرا، جاهلا سبق أن طرد من المدرسة لغبائه.

وأمكن ليوري أن يتعرف على شخصية الفتى من الأوصاف التي ذكرها سترلينكوف، فسأله:

– هل اسمه جاليولين؟

– بالضبط.

– ثق من أنه صادق فيما ذكره عن الأنصار، وعن الإعدام، وليس ما ذكره من وحي الخيال.

– مما لفت نظري أنه يحب والدته حب العبادة، فقد أعدم أبوه كرهينة له، ونمى إليه أن أمه سجينة، وأنها في انتظار اللحاق بأبيه، فجن جنونه، وود أن يبذل المستحيل كي ينقذها وحضر إلى تشيتا، يعترف بما جناه، ويلتمس الصفح. ويعرض خدماته. فساوموه على ذلك بشرط أن يدلهم على مكان مخبئي ففعل... ولكني استطعت أن أكشف خيانته، فاختفيت في الوقت المناسب. وقد عانيت أهوالا جبارة، واقتحمت مئات المغامرات، حتى تمكنت من عبور سيبيريا والوصول إلى هنا، حيث أعرف باسم الذئب الأبيض. ولا يخطر ببالهم مطلقا، أنني أجرؤ على المجيء إلى هنا. لقد بحثوا عني طويلا حول تشيتا، بينما كنت اختبئ أنا تارة في

هذا المنزل، وتارة في مخابئ أخرى في الضواحي.. أما الآن فقد انتهى الأمر، لقد أدركوني في النهاية.. اسمع، لقد اقترب الليل، وهو الوقت الذي أكرهه، فإنني لم أذق طعم النوم منذ زمن بعيد. أغلب الظن أنك قاسيت مثل هذا العذاب. إذا كانت لديك بقية من شموعي، أمكننا أن نستمر في الحديث، نتحدث قدر ما نستطيع فإن في ذلك متعة، في الليل، على ضوء الشموع.

– الشموع كما هي فلم أو قد إلا قليلا منها، لأنني كنت استعمل الغاز الذي وجدته.

– هل لديك خبز؟

– كلا.

– بماذا كنت ثقتات إذن؟ ولو أنه من السخافة أن أسأل هذا السؤال! طبعا بالبطاطس.

– تماما، وتوجد منها كميات كبيرة، فقد كان سكان المنزل مدبرين ذوي خبرة. فعرفوا كيف يوفرونها، ويحفظونها في القبو دون عطب.

وانتقل سترلينكوف، إلى الحديث عن الثورة:

– لا يعنيك هذا الكلام، فأنت لا تستطيع أن تدركه، لأنك نشأت في وسط آخر. كانت هناك دنيا القرى، والسكك الحديدية، وأوكار العمال. الفساد، والتعاسة، الإنسانية المهينة في شخص كل عامل! والمرأة اليائسة الذليلة! كان هناك عالم رفع راية الفجور والقحة! طلاب متأنقون متحذلقون، وأبناء تجار أثرياء. وكان يأخذهم الغرور، ويتملكهم الهزء المسموم، والسخرية اللاذعة، فيستخفون بدموع الذين هضمت حقوقهم، وأهينوا في إنسانيتهم وكرامتهم، ويهزءون بأناتهم! وهم، تحف بهم الفخفخة والمهابة والخيلاء، أهم ما يميزهم أن كلمة التعب ليست في

قاموس حياتهم، ولذا لم يتركوا في العالم أو يمنحوه أي أثر يذكرهم به... ولقد نظرنا نحن إلى الحياة على أنها ميدان صراع، فأزلنا من الوجود جبالا في سبيل من نحبهم، وإذا كنا قد جلبنا لهم الشقاء، فإننا حفظنا لهم كرامتهم، ولم نمسسهم بأية إهانة، فإذا اعتبروا أنفسهم شهداء، فإننا نفوقهم في ذلك... نصيحة أسوقها إليك، بدافع من ضميري، يجب أن تغادر هذا المكان في أقرب وقت، إذا كنت تستمسك بأهداب الحياة، فالمطاردة تقتفي أثرى، وتلاحقني، وأنت، باتصالك بي أصبحت مثلي متآمرا. أضف إلى ذلك، تلك الذئاب التي اتخذت هذا المكان مرتعا لها، حتى لقد اضطررت أن أطلق النار عليها أمس كي أحمي نفسي.

– لقد سمعت وأنا نائم طلقا ناريا، فظننت ذلك جزءا من الكابوس الذي كنت أعاني منه.

– بل أنا أطلقت النار حقيقة. ولن أمكث عندك طويلا. متى طلع الصباح سأمضي. والآن دعني أتم ما بدأت من حديث. أنك لا يمكن أن تتصور كم كانت جميلة هي تلميذة صغيرة.

وكانت كثيرا ما تأتي إلى بيت زميلتها في المدرسة. وذلك البيت كان يسكنه عمال السكة الحديدية. وكان أبي (وهو الآن عضو في محكمة يوريانتين العسكرية) من عمال المحطة. فكنت ألتقي بها هناك. وأرى فيها نفسا فذة تتمثل فيها جميع مزايا العصر ومشاكله ومفاتنه ومتاعبه وعيوبه. وكانت لارا في طفولتها مزيجا رائعا من خفر العذارى ومن الخفة والإقدام.

– ما أعظم براعتك في الحديث عنها. ولقد رأيتها أنا أيضا في طفولتها، فوجدتها على تلك الصفة تماما. وكان ظلها يرتسم على الجدار متوجسا مستميتا على أهبة الدفاع في كل وقت. لقد أحسنت التعبير عن روحها.

– أنت رأيتها في ذلك الوقت أيضا؟ مهما يكن من شيء فإن روح أخريات القرن التاسع عشر التي تمخضت عن ثورات باريس وطبقات من المهاجرين الروس ومؤامرات دامية أو فاشلة، وحلقات لدراسة الماركسية في منتديات أوروبا الفكرية، كل ذلك تجسم في شخصية لينين ليصب العقاب على ذلك الماضي ويمحوه. وارتفع إلى جانبه وجه الروسيا الجديد، وقد انشقت عنه ظلمات المظالم كأنه شمعة تكفر عن خطايا الإنسان وشقائه... ومن أجل هذه التلميذة الصغيرة دخل الجامعة، ولأجلها صرت أستاذا وقبلت العمل في يوريانتين التي لا عهد لي بها. وأقبلت على الكتب ألتهمها عسى أن أكون نافعا لها وللناس، وفي متناول يدها حين تحتاج إلى معونتي. ولكي استعيد حبها تطوعت في الجيش بعد ثلاث سنوات من زواجنا. حتى إذا انتهت الحرب وانطلقت من الأسر استغللت إشاعة موتي في الحرب كي أكرس حياتي للثورة تحت اسم مستعار، وأنتقم من جميع الظروف الاجتماعية والخليقة التي سببت لفتاتي الآلام والذكريات الحزينة. وكنت أعلم أنها وابنتي عن كثب مني ولكني كنت أقاوم رغبتي العارمة في الاندفاع إليهما كي أراهما، لأني وضعت واجبي الانتقامي أولا. أما الآن فلا أضن بشيء في سبيل الظفر بنظرة واحدة إليها. أنها نور حياتي! كانت إذا دخلت على حجرة من الحجرات فكأنما انفتحت النافذة فجأة على مصراعيها فيتدفق إلى الحجرة فيض من النور الرقراق، والهواء النقي!

– أني أعرف تمام المعرفة كم كانت عزيزة عليك أثيرة لديك. ولكني أستميحك أن أسألك هل لديك فكرة عن مدى الحب الذي تكنه لك؟

– عفوك! ماذا قلت؟

– أقول هل تعرف أنت كم كنت عزيزا عليه، أعز من كل ما في العالم؟

– ما الذي يدفعك إلى هذا الاعتقاد؟

– هي التي أكدت لي ذلك بنفسها.

– أهي قالت لك هذا؟ لك أنت؟

– لي أنا.

– عفوك. أمن الممكن أن تخبرني ماذا قالت لك بالضبط في هذا الشأن؟

– سأخبرك. قالت لي أنك كنت دائما النموذج الكامل للإنسان المثالي. وأنك الرجل الذي لم تصادف في حياتها نظيرا له. وقالت عنك أيضا أنك كنت فذا فريدا في صدقك واستقامتك وإخلاصك. وأنه إذا شيد لها في أقاصي الأرض بيتك الذي ترضى أن تقبلها تحت سقفه، لزحفت على ركبتيها إلى ذلك البيت سعيدة راضية.

– والآن أرجو أن تذكر لي الملابسات التي أحاطت بهذا التصريح، ما لم يكن في ذلك تطفل على شخصياتك.

– كانت تنظم هذه الحجرة وخرجت تنفض البساط.

– عفوك. أي بساط؟ فإني أرى اثنين.

– ذاك، الكبير.

– ما أثقله. هل ساعدتها في حمله؟

– أجل.

فقال سترلينكوف بصوت حالم:

– لكأني أراها!. لقد تناولت البساط من طرفيه وانحنت إلى الوراء وقد رفعت ذراعيها إلى أعلى وأشاحت بوجهها عن الغبار المتطاير وهي تغمض عينيها ضاحكة. أليس كذلك.

– كذلك تماما.

– وهل أجهل عاداتها؟ وبعد ذلك اتجه كل منكما نحو الآخر طاويين البساط الثقيل طيتين ثم أربعا. ثم أطلقت نكتة وأشرق وجهها بالبشاشة. ألم تفعل ذلك تماما؟

– تماما تماما.

ووقفا ثم اتجه كل منهما إلى النافذة وتطلع في اتجاه مختلف. ولكن بعد قليل كان سترلينكوف هو الذي اقترب من يوري اندريفتش وتناول يديه وشدهما إلى صدره، ثم استطرد يقول:

– عفوك. أعلم أني ألمس أمورا عزيزة عليك تنزلها من نفسك منزلة القداسة. بيد أني أحب أن استخبرك عن مزيد منها. واعذرني لأني عشت ست سنوات كاملة من الكبت الذي يتجاوز طاقة البشر. وكل ذلك كان على أمل انتصار الحرية الكاملة، فأشعر أن ذراعي حرتان في ضمها إلى صدري. أما الآن وقد تقوض كل شيء فسيعتقلونني غدا ولن يسمحوا لي بكلمة دفاع واحدة عن نفسي. سيغمرونني بالصياح والصراخ والسباب ويكممونني. الست أعرف ماذا يصنعون؟

وأخيرا استطاع يوري أن ينام الليل بطوله لأول مرة منذ عدة أيام. استغرق في النوم بمجرد أن تمدد في الفراش. ونام سترلينكوف في الحجرة المجاورة. وفي المرات القليلة التي تنبه فيها يوري ليتقلب أو ليحكم الأغطية عليه، كانت متعة النوم تستولي عليه بسرعة من جديد.

وقبيل الفجر رأى أحلاما قصيرة جميلة اشتملت على ذكريات من طفولته. وكانت هذه الأحلام من الدقة والتناسق فيما بينها بحيث خالها حقيقة واقعة.

واستيقظ في ساعة متأخرة وهو يشعر بصداع شديد لأنه أفرط في النوم، حتى لقد تعذر عليه لأول وهلة أن يدرك أين هو. وأخيرا تذكر أن سترلينكوف في الحجرة

الأخرى وأنه يجب أن يصحو ليعد القهوة. وقفز من فراشه وصاح يناديه فلم يسمع جوابا، فقال في نفسه:

– أنه مازال نائما. لا ريب في أن نومه ثقيل!

وأخذ يوري يرتدي ثيابه على مهل لتراخي أعضائه المخدرة من أثر النوم، ثم مضى إلى الحجرة الأخرى.

ورأى قبعة سترلينكوف على المكتب، ملقاة في إهمال. فأخذ يبحث عنه في أرجاء البيت، فلم يعثر له على اثر. فقال في نفسه:

– ربما يكون قد خرج للتنزه ريثما استيقظ. يا لي من كسول! كان من المفروض أن أكون قد غادرت فاريكينو اليوم، ولكن ها هو ذا الوقت قد تأخر بسبب كسلي. استسلمت للنوم في الصباح الباكر وللأحلام الصبيانية. وشاهدت في المنام سقوط إحدى لوحات أمي العزيزة عليها وتناثر حطامها! ما أشد بلاهتي وكسلي!

ووضع الحطب في الموقد وأشعل النار حتى تأججت. ثم تناول دلوا وخرج قاصدا البئر في ساحة الدار ليحضر الماء.

وعلى مدى أمتار قليلة من الباب رأى سترلينكوف ملقى في وسط الممر ورأسه غائر في الثلج... لقد أطلق النار على رأسه واستحال الثلج كتلة حمراء تحت صدغه الأيسر...

وكانت قطرات الدم الصغيرة التي تدفقت من الجرح قد امتزجت بالثلج فتكونت كرات صغيرة قرمزية أشبه في مرأى العين بثمار العناب المثلجة.

الفصل الرابع عشر

خاتمة المطاف

لم يبق أمامنا إلا أن نروي ما حدث خلال الأعوام العشرة التالية للدكتور زيفاجو...

لقد تقدم في هذه الأعوام بخطى واسعة نحو الشيخوخة. وفقد تدريجيا حذقه في فني الطب والكتابة. لأن حالة الانهيار أخذت تعاوده بين الحين والحين، فما أن يشفى من إحدى تلك الحالات حتى يبدأ العمل. بيد أن شعلة نشاطه كانت تنطفئ بسرعة ليغرق في نوبات طويلة من عدم المبالاة بنفسه وبكل شيء في العالم.

وفي تلك المدة أيضا تطورت علة القلب التي شخصها هو بنفسه دون أن يدرك خطرها، فزادت مع الزمن استفحالا..

توجه الدكتور إلى موسكو عند بداية تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة. وكانت تلك الفترة أشد عهود الحكم السوفييتي رياء وادعاها للتوجس. وحينما ذهب إلى العاصمة كان في حالة رثة، وكان أشد ضعفا وهزالا مما كان عندما رجع إلى يوريانتين بعد فراره من جيش الأنصار. وترجع رثاثة حاله إلى أنه في أثناء الرحلة الطويلة تخلص تدريجيا من ملابسه التي لها بعض القيمة واستبدل بها خبزا، وأغطية عتيقة ستر بها عريه. وهكذا حرم من معطف الفرو والبدلة ووصل إلى شوارع موسكو وعلى رأسه قبعة رمادية من جلد الضأن. وعلى جسده معطف قديم من معاطف الجيش بلا أزرار. وكان من العسير تمييز الدكتور في هذا المظهر من غالبية رجال الجيش الأحمر الذين كانت تغص بهم محطات العاصمة وشوارعها وميادينها.

ولم يكن الدكتور بمفرده حين وصل إلى موسكو، بل كان يتبعه كظله شاب ريفي حسن المظهر وإن كان يرتدي أيضا ثياب الجيش العتيقة. فكان الاثنان يترددان على الصالونات القليلة الباقية في بيوت العاصمة. وهناك يحسنون استقبالهما ويتلطفون في سؤالهما.

– هل استحممتما؟ فإن التيفوس منتشر!

وبعد ذلك يخبرونه كيف رأوا عائلته المسكينة تغادر الأراضي الروسية إلى المنفى.

وكان الاثنان شديدي الخجل، ينطويان على أنفسهما معظم الوقت، ولا يشتركان في الأحاديث الدائرة. وكان منظر الاثنين غريبا بعض الشيء. فالدكتور بقامته العالية وثيابه البالية يبدو كفلاح ينشد الحقيقة. أما الفتى الذي كان يتبعه كظله أينما ذهب، فكان أشبه بتلميذ صبور يدفعه ولاؤه لملازمة أستاذه العجوز.

فمن عساه يكون ذلك الفتى؟

***

استطاع الدكتور أن يركب القطار في المرحلة الأخيرة من رحلته إلى موسكو. أما القسم الأول والأكبر من هذه الرحلة فقطعه سائرا على قدميه. فتسنى له أن يشاهد القرى عن كثب فلاحظ أنها ليست أحسن حالا من تلك القرى الأخرى التي رآها في سيبيريا أو الأورال بعد أن هرب من الأسر. وكل ما هناك أن فصل الصيف في هذه الرحلة سهل له الأمر بعض الشيء.

كان نصف القرى التي مر بها مهجورا. والمزروعات في الحقول لا تجد من يعني بحصادها كأنما الأرض قد وقعت فجأة في يد الأعداء.

كانت الغلال الناضجة تتساقط في الحقول وتقع على الأرض. فكان يوري يجمعها في راحة يده ويبحث عن وسيلة لسلقها، وعندما لا يجد تلك الوسيلة كان يختصر المسألة ويضع الحب في فمه ويحاول أن يمضغه. فكان ذلك يسبب له في كثير من الأحيان عسر هضم وإمساكا.

وكان كل شيء فيما حوله يتحرك في رتابة بطيئة. حتى الغيوم في السماء كانت تتحرك في تثاقل. ولم يصادف في حياته مثل هذا العدد الضخم من الفئران. فكلما رقد وسط الحقول لينام، كانت تقفز تلك الفئران الريفية السمينة على وجهه وداخل سترته وبنطلونه. أما في النهار فلا تختفي عن الأعين بل تظل تقفز وتلعب على قارعة الطريق.

وأما كلاب القرى التي انتقلت إلى حال من الضراوة بسبب إقفار القرى والحقول من ساكنيها فكانت تتبعه وهي تتبادل النظرات كأنما تتشاور فيما بينها في اللحظة المناسبة التي تنقض فيها عليه لتمزقه شر ممزق!

وقد كانت هذه الكلاب الضارية تتغذى بالجيف، ولا تتعفف عن أكل الفئران. ولم يكن يتخلص منها ومن مطاردتها إلا عندما يوغل في الغابة فهذه الكلاب لسبب ما كانت لا تجسر على دخول الغابة.

ولئن كانت الحقول قد أصيبت بضرر لهجر الإنسان لها حتى بدت في مرأى العين كاليتيمة، فإن هجر الإنسان للغابات قد أضفى عليها جمالا وازدهارا، فكأنها أسير أطلق سراحه!

فأشجار الجوز، مثلا، لا يتركها غلمان القرى إلى أن تنضج. أما الآن فها هي ذي تتدلى ناضجة، وتتراقص بين الأوراق وقد أوشكت على السقوط. وجمع منها يوري كومة أكلها، ثم ملأ جيوبه وجرابه منها وعاش أسبوعا كاملا على ذلك الغذاء الفاخر من الجوز والبندق. فشعر بالبركة والأمن في تلك الغابات، حتى لقد تراءى

له أن روح الله تسكن الغابة. أما الحقول فتتردد فيها أصداء ضحكات إبليس الساخرة الشامتة.

ووصل الدكتور بعد ذلك إلى قرية محروقة مهجورة قد تقوضت جدرانها وما بقي منها كان مهجورا، فدخل بيتا قائما مهجورا من تلك البيوت القليلة ذات مساء. وما أن دخل حتى رأى التبن ينتفض ودبت في البيت حركة غريبة، ثم أدرك أنه مسكون بجماعة من الفئران فزعت لدخوله وهربت فرأى أن يغادر البيت لسكانه! وخرج ليرى الشمس وهي تغيب وراء الحقول، فوق الضفة الأخرى للنهر، وعليها جلس فوق حجر ملقى هناك بين الأعشاب، ينظر إلى الشاطئ العميق الذي يتوهج بأشعة الغروب.

وبعد قليل برز رأس مشعث ثم كتفان وذراعان. فأدرك الدكتور أن أحدهم كان يستقي من النهر، لأنه يحمل على كتفه قربة ماء. ولما رأى هذا الشخص الدكتور كف عن الصعود، ثم قال:

– أتريد أن تشرب؟ إذا لم تؤذني فسوف لا أؤذيك!

– نعم أريد جرعة ماء. اقترب. ولماذا تخشى أن أؤذيك؟

واقترب حامل القربة فإذا فتى في العقد الثاني من عمره حافي القدمين مهلهل الثياب، أخذ يرمق الدكتور بنظرات التوجس وكأنه لا يطمئن إلى كلماته الودية. وأخيرا وضع قربته على الأرض وتقدم قليلا ثم لم يلبث أن وقف مأخوذا مضطربا، وغمغم:

– هذا محال! لابد أنني في حلم! اعذرني أيها الرفيق إذا ألقيت عليك سؤالا.

– سل ما تشاء.

– ألم أرك من قبل؟ أنا متأكد أني رأيتك من قبل. أنت الدكتور. ألست هو؟

– أنا هو ولكن من أنت؟

– ألم تعرفني؟

– كلا.

– كنا في عربة قطار واحدة عندما سافرنا من موسكو وكنت أنا بين المساقين المجندين للسخرة.

– فاسيا!

فارتمى الفتى على الأرض أمام الدكتور وقبل يديه وبكى!

لقد كانت هذه الأنقاض هي كل ما تبقى من مسقط رأسه قرية فيريتنكي. وماتت أمه مع من مات. ألقت بنفسها في النهر جزعا. فحينما أحرقت القرية اختبأ فاسيا فظنت أمه أنهم أخذوه إلى المدينة مع الأسرى الذين سيعدمون، فأصابها جنون مفاجئ وانتحرت. ألقت بنفسها في ذلك النهر نفسه الذي كان يستقي منه فاسيا، والذي يجري تحت أقدامهما وهما يتحدثان.

ويقال أن أختيه آليا وآريا على قيد الحياة في مؤسستين من مؤسسات الأيتام في مكان بعيد. ولكنه لا يدري إن كان هذا صحيحا حقا أم غير صحيح.

وهكذا رافق فاسيا الدكتور في بقية رحلته إلى موسكو. وفي الطريق حدثه عن أشياء كثيرة فظيعة رآها بعينيه في تلك السنوات.

***

وكان وصول الدكتور، وفاسيا إلى موسكو في ربيع سنة ١٩٢٢، في مطلع عهد السياسة الاقتصادية الجديدة. وكان الجو دافئا، وأشعة الشمس الساطعة تتراقص على القباب الذهبية.

وكان الخطر الذي فرض على مزاولة الأعمال الخاصة قد رفع وصار من المسموح به مزاولة التجارة في حدود ضيقة. لذا كانت الصفقات كلها تعقد بمقادير صغيرة. وترتب على ذلك تفشي أعمال الوسطاء وتقلب الأسعار. وكانت السلع التي تباع جهرا في هذه الصفقات الصغيرة تباع بعد ذلك في السوق السوداء بعشرة أضعاف الثمن الأصلي أو أكثر.

أما أصحاب المكتبات فقد اجتمعوا وجمعوا كتبهم كلها في مكان واحد ثم أخطروا مجلس سوفييت العاصمة أنهم قرروا إنشاء مكتبة تعاونية وطلبوا معونة على هذا الأساس. فسمح لهم مجلس السوفييت باستخدام محل كبير لبيع الأحذية في وسط المدينة كان صاحبه قد أغلقه منذ بداية الثورة.

وفي دكان مجاور، كان فيما مضى متجرا للأزهار، تكونت جمعية تعاونية أخرى من زوجات الأساتذة الجامعيين يصنعن بأيديهن الخبز ويبعنه للناس وقد تخلين عن آرائهن القديمة وسرن في ركاب الثورة.

وفي موسكو قال الدكتور يوري زيفاجو للفتى:

– يجب أن تعمل شيئا يا فاسيا.

– أريد أن أتعلم أولا.

– طبعا طبعا.

– وأريد أيضا أن أرسم صورة لأمي من الذاكرة.

– فكرة رائعة يا فاسيا ولكن يجب قبل هذا أن تتعلم الرسم. هل جربت من قبل أن ترسم شيئا.

– عندما كنت صبيا في دكان خالي كنت أرسم بقطع الفحم أشكالا، وهو غير منتبه.

– هذه بداية لا بأس بها. سننظر في هذا الأمر.

وابتدأ الدكتور يمتحنه فلم يجده على درجة كبيرة من البراعة والموهبة. ولكن استعداده كان كافيا لدخول معهد للرسم الصناعي. وفي الوقت نفسه تمكن يوري بمساعدة أصدقائه من إلحاقه بمعهد ليلي، تابع فيه ثقافته العامة ثم تخصص في الطباعة والتجليد ورسم الكتب.

وانصرف الدكتور إلى وضع كتيبات صغيرة في موضوعات مختلفة كان فاسيا يرسم موضوعاتها ويطبعها بكميات قليلة باعتبارها أعمالا تدريبية على الطباعة في المعهد، ثم توزع بعد ذلك على محلات بيع الكتب القديمة. وفي هذه الكتيبات آراء فلسفية ومعلومات طبية وتعريفات بالنظم الصحية، وتعليقات على نظرية التطور، وأشعار وقصص قصيرة.. الخ.

وجميع هذه المصنفات الصغيرة مكتوبة بلغة سهلة، ولكنها تعتبر فكريا فوق مستوى الجمهور. وفي الوقت نفسه كانت تبدو نغمة غريبة وسط التيار الفكري السائد حينئذ، فراجت هذه الكتيبات بين هواة جمع الكتب النادرة.

وفي تلك الأيام أصبح كل شيء خاضعا لنظام التخصص، حتى نظم الشعر وترجمة الكتب. وأنشئت مؤسسات لكل فرع من الفروع. فعمل يوري مستشارا طبيا لبعض تلك المؤسسات.

وبقي يوري وفاسيا مرتبطين مدة طويلة يتنقلان للإقامة من مكان متداع إلى أنقاض خربة. وكان يوري قد توجه إلى بيت أسرته القديم فوجده قد أعطى لسكان آخرين. ولم يجد أثرا لأي شيء من الأثاث القديم.

وفي فترة من الفترات أصيبت الصداقة بين الدكتور وفاسيا بفتور. لأن فاسيا كان قد تأثر بالآراء الثورية الجديدة التي تلقن في المعاهد. وصار ينظر إلى آراء الدكتور الخيالية كما ينظر إلى شيء متعفن.

وفي الوقت نفسه كان الدكتور لا يكف عن التردد على الدوائر الحكومية ساعيا في الحصول على عفو عن أسرته المنفية عسى أن تأذن لهم الحكومة بالعودة وفي الوقت نفسه تقدم لاستخراج جواز سفر إلى باريس كي يعود بأسرته من هناك. وكان فاسيا يلاحظ فتورا في مساعي يوري في ذلك السبيل ويتهمه بعدم الإخلاص في مسعاه.

ولم يثر الدكتور حين وجه إليه فاسيا ذلك النقد. ولكن علاقته به أخذت تفتر شيئا فشيئا. وأخيرا انفصمت عري الصداقة تماما وافترق الاثنان. وترك الدكتور يوري الغرفة التي كان يتقاسمها مع فاسيا وانتقل إلى حي آخر كان البواب القديم ماركل ذا نفوذ قوي فيه، فأفرد للدكتور ركنا خلفيا من بيت عتيق وهذا الركن عبارة عن غرفة حمام غير صالحة للاستعمال وغرفة أخرى ملاصقة للحمام بها نافذة واحدة وأرضها متآكلة.

وبعد أن انتقل يوري أندريفتش على هذا المسكن هجر الطب وأهمل شأن مظهره. وتوقف عن زيارة أصدقائه. وعاش في فقر شديد.

***

وفي يوم أحد قاتم من أيام الشتاء كان الدخان يتصاعد من نيران التدفئة متسربا بلونه الأسود من النوافذ، كان ماركل الذي أصبح مديرا لجملة من العمارات

المملوكة للدولة جالسا مع عائلته- كعادته في جميع أيام الأحد- حول مائدة كبيرة في المطبخ يتناولون طعام الغداء. وفوق هذه المائدة بعينها كان الخبز في فترة صرفه بالبطاقات يقطع إلى أنصبة يلف كل نصيب منها في ورقة كي يوزع على سكان العمارة جميعا. ولكن الحمد لله أن توزيع الخبز بالبطاقة قد انتهى وحلت محله أنواع أخرى من الرقابة. وصار في وسع آل ماركل شابوف أن يأكلوا في وجبة الغداء أية كمية يشاءون.

وكان الموقد الكبير يملأ نصف حجرة المطبخ. وفوق سطحه العلوي فراش تتدلى الأغطية على جانبيه. أما بالقرب من باب المطبخ فكان يوجد صنبور ماء لم يتجمد ماؤه كبقية صنابير البيت. وعلى جانبي المكان صفت مقاعد لأن المطبخ دافئ جدا بفضل الموقد المشتعل باستمرار فيستحب الجلوس هناك.

وأمام الموقد وقفت أجافيا زوجة ماركل تحرك آنية الطعام والقدور داخل الفرن، وقد شمرت كميها إلى ما فوق المرفقين، وتكاثف البخار على وجهها الذي أضاءته السنة النيران. وأخيرا أخرجت من وراء القدور لوحا من الصاج فوقه كعكة صنعتها. وبعد أن قلبتها على وجهها الآخر ردتها إلى داخل الفرن كي تنضج. وفي هذه اللحظة دخل يوري حاملا دلوين فارغين. وقال للجميع:

- هنيئا مريئا.

- مرحبا بك. تفضل كل معنا.

- شكرا. لقد تناولت غدائي.

فضحكت أجافيا، وقالت:

- كلنا نعرف هذا الذي تسميه غداءك. فلماذا لا تجلس وتأكل طعاما ساخنا؟ أن هذا الطعام ليس كالأطعمة المنفرة، لقد صنعته بيدي.

– شكرا... أني آسف إذ تركت الباب مفتوحا. والبرد شديد. فإني أريد أن آخذ أكبر مقدار ممكن من الماء املأ به حوض الاستحمام ليكون تحت تصرفي. ويؤسفني أنني أفلقت راحتكم بهذه الصورة. ولكني لم أعثر على ماء في أي مكان آخر.

– خذ ما تشاء. الماء صنف بالمجان. أنه ليس شرابا! وقهقهوا جميعا ضاحكين.

وعندما عاد يوري للمرة الثالثة كي يملأ الدلوين الخامس والسادس اتخذ الحديث مجرى آخر، فقال ماركل:

– سألني الناس عنك من تكون فأخبرتهم أنك الدكتور يوري زيفاجو. فلم يصدقوني. لماذا تركت الماء يبلل الأرض أيها الخائب؟ إذا تجمد فهل أنت الذي ستزيل الجليد؟ أقفل الباب جيدا أيها المجنون فإن البرد شديد.. أجل قلت لهم من أنت فلم يصدقوني. ومعهم الحق! تصور كل هذا المال الذي أنفق على تعليمك! فأين وصل بك كل هذا العلم يا مسكين؟

وعندما رجع يوري للمرة الخامسة غمغم ماركل قائلا:

– مرة أخرى وكفى. فلو لم تكن صغيرتنا مارينا تحبك لأغلقت الباب في وجهك غير مبال بمحتدك الكريم! لا شك أنك تذكر ابنتنا مارينا.. أنها هذه السمراء الجالسة في آخر المائدة. فها هو ذا وجهها قد احمر أنظر! أنها تقول لي لا تحرجني بهذا الكلام. ومن الذي يريد أن يحرجها؟ أنها فتاة مثقفة تعرف عدة لغات أجنبية وعاملة تلغراف في المكتب الرئيسي. قالت لي عنك أنك مسكين سيء الحظ. وتألمت جدا لحظك العاثر في الحياة. حتى حسبت أنها لا تتردد في إحراق نفسها لو أن في ذلك فائدة لك! كأنني أنا المسئول عن تدهور حالك وترديك في مهاوي الفقر! الغلطة غلطتك أنت لأنه ما كان ينبغي لك أن تهجر بيتك

في ظروف الانقلاب لتهرب إلى سيبيريا. لقد صمدنا نحن هنا وقاومنا حصار البيض حتى انتصرنا، وها نحن جميعا ما زلنا بخير وعافية. فأنت وحدك المسئول عما أصابك. ولو أنك عنيت بحال تونيا لما كانت الآن معرضة للموت في أرض غريبة! ولكن هذه مسألة تعنيك وحدك. لا شأن لي بها. وكل ما يهمني الآن أن أعرفه هو ماذا تنوي أن تصنع بهذه الكمية الهائلة من الماء؟ لقد تبللت وصرت كالفأر المبتل.

وقهقه الجميع ما عدا مارينا التي نظرت إليهم شذرا وأخذت توبخهم. ودهش يوري لنبرة صوتها ولكنه لم يدرك السر وأجاب ماركل قائلا:

– أن البيت قذر يا ماركل وأريد أن أمسح أرض مسكني وأغسل بعض حوائجي أيضا.

واستولت الدهشة على آل شابوف، وصاح ماركل:

– ألا تخجل من نفسك لأنك تفكر في أداء هذه الأعمال بنفسك؟ هل تنوي أن تستبدل بالطب مهنة الغسيل؟

وقالت أجافيا:

– ما هذا الذي تقول؟ سأرسل ابنتي لتغسل لك ثيابك وتمسح لك الأرض وترفو لك ما رث من ملابسك. وتكون في خدمتك كلما احتجت إلى شيء. لا تخافي منه يا عزيزتي فستجدينه مهذبا جدا لا يؤذي بعوضة!

فصاح يوري:

– ما هذا الذي تقولين يا أجافيا؟ أنا لا يمكن أن أفكر في أن تقوم مارينا بمسح أرض بيتي. فلماذا توسخ يديها من أجلي؟ سأقوم أنا بنفسي بكل ما يلزم.

فقالت مارينا في عتاب:

– أترى من الجائز أن توسخ أنت يديك ثم لا يكون جائزا أن أوسخ أنا يدي؟ لماذا هذه المكابرة يا دكتور يوري أندريفتش؟ ألعلك تقدم على طردي لو صعدت لزيارتك؟!

وخطر على الفور ببال يوري أن مارينا جديرة بأن تكون مغنية. فصوتها صاف مستقر قوي عريض. أجل أنها لم ترفع صوتها. ومع ذلك كان صوتها أقوى مما يلزم للحديث العادي. كان صوتا ملائكيا حقا.

وبدأت الصداقة بين الدكتور ومارينا منذ ذهب يستقي الماء من مسكن أبيها في ذلك اليوم من أيام الأحد. فقد أكثرت من زيارته في مسكنه للقيام بأعمال البيت. وذات يوم مكثت عنده طوال الليل ولم تعد إلى بيت أبيها. وهكذا صارت مارينا زوجة يوري الثالثة مع أنه لم يطلق زوجته الأولى.

ولم يسجلا زواجهما رسميا، وإن كان هذا طبعا لم يمنعهما من إنجاب الأولاد. وصار ماركل وأجافيا يتحدثان عن ابنتهما في فخر وخيلاء، باعتبارها زوجة الدكتور زيفاجو. وكان ماركل يقول أحيانا أن ذلك الزواج يجب أن يستكمل أركانه أما في الكنيسة وأما عند موثق العقود. ولكن أجافيا كانت تدق صدرها الكبير بيدها، وتقول له:

– أمجنون أنت يا رجل؟ أن تونيا لم تزل على قيد الحياة فلو تزوج مارينا رسميا لكان ذلك اقترافا لجريمة تعدد الزوجات!

أما الدكتور فكان يضحك أحيانا، ويقول عن حكاية زواجه:

– أنها رواية غرامية في عشرين جردلا من الماء!

على غرار قولهم رواية في عشرين منظرا أو عشرين فصلا!

وعرفت مارينا كيف تفهم الدكتور وتغفر بدواته وتفضي عن الفوضى، والقذارة التي ينثرها في أرجاء البيت. فهو في مزاجه وعاداته يجب أن يرخى لنفسه العنان. وهو يعلم ذلك. فما أكثر ما كان يتذمر ويثور، وهي تفضي وتتحمله.

وذهبت مارينا إلى أبعد من ذلك في إخلاصها إذ جر عليها شذوذه أنها تركت عملها في مكتب التلغراف لكي تشترك معه في أعمال غريبة جدا. في أعمال شاقة تتصل بخدمة البيوت، ومنها قطع الحطب وتوريده لطبقة الأثرياء الجديدة التي كان معظمها من الفنانين والعلماء المشمولين برضوان الدولة. وقد سمحت الظروف لهؤلاء أن يقيموا في مساكن مريحة جميلة وأن يستخدموا الإجراء.

وفي ذات يوم كان يوري ومارينا يعبران بهو أحد هذه المساكن حاملين الحطب إلى حجرة المكتب التي جلس فيها "السيد" يقرأ كتابا استولى على اهتمامه كله. فلم يتنازل برفع وجهه ليلقي نظرة على هذين الخادمين.

واستولى الفضول على الدكتور فقال في نفسه حين رأى الرجل يسطر باهتمام شديد ملاحظات على هامش الكتاب الذي يقرؤه.

– فلأنظر ماذا يقرأ هذا الخنزير.

وألقى من وراء كتف الرجل حين مر بجانبه نظرة، فإذا على المكتب مجموعة كاملة من الكتيبات الفلسفية والأدبية والعلمية التي كان يوري قد ألفها في الفترة الأولى من نزوله لموسكو، وتولى فاسيا طبعها!

***

وفي أوائل صيف سنة ١٩٢٩ كان الجو حارا جدا. حتى أن الجيران كانوا يتزاورون بدون قبعات، وبدون سترات.

وكان يوري أندريفتش ومارينا يسكنان وقتئذ في شارع قريب من الشارع الذي يسكن فيه جوردون. وقد رزق الدكتور ومارينا ببنتين: كابكا وعمرها خمس سنوات، وكلاتسكا وعمرها ستة أشهر.

وكانت حجرة جوردون جزءا من مكان كان يستخدم فيما مضى واجهة لمحل خياط. وكان المحل مؤلفا من طبقتين يصل بينهما سلم حلزوني من الحديد. وتطلان على الشارع بنافذة ضخمة كان الخياط قد كتب عليها اسمه بحروف مذهبة.

وأما الآن فقد قسمت الطبقتان إلى ثلاث طبقات بخلق طبقة جديدة في الوسط. وأي شخص يمر في الشارع يستطيع أن يرى من بداخل هذه الحجرة إلى ركبتيه. لأن الجزء العلوي من النافذة التي تحمل اسم الخياط يصل إلى ذلك الارتفاع. ولكن جوردون تعود ذلك الوضع.

وفي ذات يوم كان الدكتور زيفاجو ودودوروف ومارينا والطفلتان موجودين كلهم في حجرة جوردون وبعد قليل انصرفت مارينا مع الطفلتين وبقى الرجال بمفردهم. وجرى الحديث فيما بينهم كما يجرى بين مجموعة من الرجال ربطت بينهم الصداقة سنوات طويلة منذ أيام الدراسة. وكان يوري أكثرهم امتلاكا لناصية الحديث لأنه أكثرهم قدرة على استعمال لغة الألفاظ. أما جوردون ودودوروف فلم يكن لديهما موهبة الفصاحة والطلاقة في التعبير وحينما تعوزهما العبارات المناسبة يذرعان الغرفة ويلوحان بأيديهما، لأنهما في الواقع محدودا الذهن رغم ثقافتهما المتشعبة. فإن الذوق الذي يهضم ويتمثل الأمور لا يمكن أن تعوضه الثقافة.

كان الحديث هو الذي يقودهما كالعربة الجامحة لا هما اللذان يقودانه. لأنه لم تكن لديهما القريحة الكفيلة بالقاء نظرة شاملة على الموضوع. وكان ذلك يثير شفقة زيفاجو، حتى لقد أوشك أكثر من مرة أن يقول لهما:

– ما أشد تفاهتكما أيها الصديقان العزيزان! ليس فيكما شيء له قيمة سوى أنكما معاصران لي، ومن أصدقائي!

ولكنه كان يكبح جماح أفكاره ويستمر في الإصغاء لهرائهما في صبر وأناة حتى لا يجرح شعورهما.

وكان دودوروف قد عاد أخيرا من منفاه وردت إليه جميع الحقوق السياسية التي حرم منها وسمحوا له باستئناف عمله في الجامعة. وهو في هذا اليوم يقص على صديقين قديمين ما مر به من التجارب في منفاه. وهو يؤكد أن الطريقة التي عومل بها في المنفى السيبيري، والأحاديث الطويلة أو الاستجوابات السياسية التي تمت مع قاضي التحقيق كانت بتفريغ محتوياته العقلية ثم أتموا تثقيفه سياسيا من جديد فصار شخصا ناضجا صالحا لخدمة النظام السوفييتي.

وأعجب هذا الكلام جوردون فأخذ يؤمن عليه مثنيا، ويعتبر ذلك الهراء متمشيا مع روح العصر. ولكن يوري أندريفتش استاء لهذه السطحية وكان من رأيه أن المفطورين على العبودية يجتهدون دائما في ابتداع مبررات فلسفية للقيود التي يرسفون فيها. وهكذا كان يفعل العبيد في القرون الوسطى.

لقد رأى الدكتور زيفاجو في ذلك علامة سيئة جدا ليس من المستساغ ظهورها لدى المثقفين السوفييت. وإن كانت الدولة تسمى ذلك نضوجا سياسيا وسموا فكريا.

وتلك الملاحظة أيضا أخفاها في نفسه حتى لا يجرح شعور صديقته. ولكنه قال لصاحبيه بعد قليل:

– أن الجو هنا حار خانق. يجب أن أخرج لاستنشق الهواء الطلق.

– ولكن النافذة مفتوحة. لا شك أننا أفرطنا في التدخين فثقل الهواء.

– لا بأس يجب أن أخرج على كل حال. وأنتما تعلمان أنني لا أعارض. فأنا مصاب بتصلب في شرايين القلب وقد تنفجر هذه الشرايين في يوم ما مع أنني لم أبلغ الأربعين بعد، ولم أفرط في ملذاتي ولم أدمن الخمر.

– ما هذا التشاؤم! أنك ستكون أطولنا عمرا.

– لقد كثرت في هذه الأيام علل القلب. وهو مرض يتصل بالسلوك والطباع. فيصاب به من يعيشون حياة مزدوجة باستمرار. فمن الضروري أن تتدهور صحتك إذا اضطررت في كل يوم أن تقول غير الذي تعتقده، وأن تنحني أمام من تحتقره، وأن تستبشر بما يملأ قلبك غما. والجهاز العصبي له وجود حقيقي. وله سلطان على أجسامنا. وأرواحنا لها وجود في داخلنا كوجود الأسنان في أفواهنا. فلا يمكن امتهان الروح من غير ثمن نؤديه. وقد تألمت ألما شديدا وأنا أسمعك أيها الصديق تمجد عملية تفريغ عقلك وإعادة شحنه على حسب الثقافة السياسية الجديدة فكأنني استمع إلى حصان متأبد يتشدق بكيفية ترويضه للحمل والجري والركوب! لقد ضاقت أنفاسي. حقيقة لا مجازا!

– لا تحاول المراوغة! فلن نتركك تخرج ما لم تجب إجابة صريحة على هذا السؤال: هل أنت مدرك أنه قد حان لك أن تغير منوال حياتك وتقوم ما أعوج من سلوكك؟ وماذا أنت عازم أن تصنع؟ وأول هذه المشاكل موقفك من تونيا ومارينا. وثانيها أن رجلا مثقفا مثلك ماهرا في صناعة الطب لا يليق أن تنتهي حياته إلى مثل هذا الضياع. تيقظ يا رجل واطرح عنك الخمول والغطرسة الفكرية. وعد إلى مزاولة مهنتك.

وسكت يوري قليلا، ثم قال:

– لقد فكرت في هذه الأمور في الفترة الأخيرة. وفي نيتي أن أدخل على منوال حياتي تغييرات أساسية. هذا ما عقدت عليه العزم فعلا. لأنني شعرت في

المدة الأخيرة بإقبال شديد على الحياة ولا معنى للحياة إلا بأن يسعى الإنسان دوما نحو الكمال. وأما عن تونيا ومارينا فأنا لم أقطع صلاتي بأية واحدة منهما. كل ما هناك أني أجمع بينهما ولا استطيع أن استغنى عنهما. وأما أهلي الذين في باريس فتصلني أخبارهم باستمرار لقد كبر الطفلان وأوشك ساشا أن ينتهي من دراسته الابتدائية.

وأما ماشا فستدخل المدرسة قريبا وأنا لم أر هذه الطفلة مطلقا. ولكني أشعر بارتباط غريب بها. ورغم الجنسية الفرنسية التي يتمتعون بها الآن فإنه يداخلني الإحساس بأنهم سيعودون يوما إلى أرض الوطن. ويظهر أن تونيا تعرف هي ووالدها حقيقة معيشتي مع مارينا وأننا أنجبنا طفلتين. أنا لم أخبرهما بشيء في رسائلي، ولكن يظهر أن رسائل الآخرين تكفلت بذلك التبليغ. وطبعا شعر والدها بالإهانة والاستياء ولذلك انقطعت رسائله خمس سنوات. ولكن في الأشهر الأخيرة عادت الرسائل التي عهدها الأول ولعل سبب هذا اللين أن تكون تونيا التقت برجل. وأرجو من كل قلبي أن يكون هذا الفرض صحيحا. والآن يجب أن أمضي وإلا أصابتني نوبة قلبية. وداعا.

***

وفي صباح اليوم التالي أقبلت مارينا راكضة إلى حجرة جوردون وهي في فزع شديد وتعب أشد إذ لم يكن لديها أحد تتركه مع الطفلتين. فجرت إحداهما من يدها وحملت الصغرى على يدها الأخرى مدثرة بأغطيتها. وسألت جوردون:

– هل يوري عندك يا ميشا؟

– ألم يعد إليك في الليلة الماضية؟

– كلا.

– لابد أنه قضى الليلة عند دودوروف.

– أنا آتية الآن من هناك. ودودوروف في الجامعة ولكن الجيران يعرفون يوري جيدا وقد قالوا لي أنه لم يكن هناك.

– أين يمكن أن يكون إذن؟

ولم تجب مارينا بل وضعت ابنتها فوق مقعد وأخذت تبكي بحرقة.

***

ظل جوردون ودودوروف يومين لا يستطيعان ترك مارينا وحدها لسوء حالتها. فكان أحدهما يجلس بجوارها بينما يذهب الآخر للبحث عن الدكتور المفقود. واتصلا أيضا بجميع الأماكن التي يمكن أن يكون الدكتور قد ذهب إليها وسألا عنه كل شخص من معارفه استطاعا العثور على عنوانه. ولكن جميع جهودهما ذهبت أدراج الرياح.

ولم يقدما على إبلاغ الشرطة بتغيب الدكتور. فمع أنه لم يكن من المشبوهين السياسيين وليس له ملف في البوليس السياسي، إلا أنه لم يكن يعتبر في حياته مثلا أعلى للمواطن السوفييتي التقدمي. فقرر الصديقان أنه يجب عدم الالتجاء للسلطات في البحث عنه إلا عندما يكون ذلك الإجراء هو السهم الأخير في كنانتهما!

وفي اليوم الثالث وصلت إلى جوردون ودودوروف ومارينا رسائل من أماكن مختلفة كلها بخط يوري وتوقيعه. وفي هذه الرسائل ناشدهم ألا يقلقوا عليه مؤكدا أنه في خير حال ومبديا أسفه للإزعاج الشديد الذي سببه لثلاثتهم. وشدد عليهم ألا يحاولوا العثور عليه، لأنهم لن يستطيعوا ذلك. وكل ما في الأمر أنه أراد أن يبر بوعده في إعادة تنظيم حياته تنظيما أساسيا سريعا. وكان لابد لتحقيق هذه الخطوة

من الاختلاء بنفسه. ومتى استقر في عمل مناسب وتأكد من أنه دفن أسلوبه القديم في المعيشة، فلن يتردد في ترك مخبئه الاختياري كي يعود إلى مارينا والطفلتين.

وفي رسالته إلى جوردون طلب منه أن يدبر أمر مربية للطفلتين كي تتمكن مارينا من العودة إلى العمل في مكتب التلغراف وأرسل إليه "حوالة" مالية بمبلغ أدهش الصديقين. فأسرع جوردون باستئجار مربية. وعادت مارينا فعلا إلى عملها الأصلي في مكتب التلغراف.

ولم يفارق الاضطراب والقلق مارينا مع أنها كانت قد تعودت من يوري الشذوذ والنزوات. ومع ذلك لم تجد بدا من الإذعان.

واستمر الثلاثة يواصلون بحثهم من الغائب بتؤدة ولكنهم بعد قليل أيقنوا– كما أخبرهم من قبل– أن البحث عنه عبث ليس تحته طائل.

ولكن يوري لم يكن يبعد عن بيت جوردون بأكثر من مائة خطوة لأنه عند خروجه من هناك التقى بأخيه ايفكراف ولم يكن رآه أو سمع أخباره منذ ثلاث سنوات. وعرف منه أنه عاد في هذه اللحظة فقط إلى موسكو فجأة. وكلما ألقى عليه يوري سؤالا تخلص من الإجابة بلباقة، وكانت أفضل وسائله في المراوغة هي النكتة.

ولكن ايفكراف استطاع بسؤال أو سؤالين أن يعرف من يوري حقيقة حالته ومتاعبه. وعلى الفور رسم خطة ارتجالية لإنقاذه. وكانت الخطوة الأولى في هذه الخطة هي اختفاء يوري المفاجئ مدة من الزمن.

واستأجر ايفكراف لأخيه حجرة في شارع كامرجا قرب مسرح الفنون. وأعطاه مالا وفيرا. وحصل له على عمل محترم في أحد المستشفيات مع تخصيص معمل له هناك لإتمام أبحاثه.

وأتم ايفكراف مكرمته بأن وعده بحل مشكلة عائلته الموجودة في باريس، وذلك بأن يمكنه من الذهاب إليهم إن لم يستطيعوا هم الحضور إليه.

وكان لهذه النجدة الحاسمة أثرها في انتعاش روح الدكتور ولكنه ظل يجهل سر نفوذ شقيقه ايفكراف بل ولم يحاول أن يميط اللثام عن ذلك السر.

وكانت الحجرة التي يسكنها يوري تطل على جهة الجنوب وتكاد تحاذي بناية مسرح الفن. فكانت في نظره عالما صغيرا قائما بذاته، لا مجرد مكان للنوم وللعمل. وعلى مكتبه تكدست الكراسات التي كانت تضيق عن أفكاره ففي هذه الحجرة كانت ترتسم وتتجسد وتتحقق جميع أحلامه الفكرية والفنية.

ومن المصادفات أن مفاوضات شقيقه مع إدارة المستشفى الذي سيلحقه به تعثرت. فكان موعد تسلمه العمل يتأجل مرة بعد مرة، فأتاحت هذه التأجيلات ليوري أن ينصرف بكليته إلى التأليف.

وقد بدأ بتدوين أولى قصائد شبابه من مسودات حصل له شقيقه عليها. ولكن هذه القصائد القديمة بدت له بعد قليل شيئا باهتا فلم يلبث أن تركها وشرع في نوع آخر من العمل. فكان يبدأ في تسويد مقال عن انطباعاته مثلا عندما ذهب أول مرة إلى فاريكينو. ولكنه لا يمضي صفحة أو صفحتين في ذلك العمل حتى يسأمه ويبدأ في تسجيل مطلع قصيدة جديدة تواردت في تلك اللحظة على خاطره.

وفي أحيان أخرى كان يجد صعوبة كبيرة في ملاحقة أفكاره لتسجيلها ولو بطريقة اختزالية. ولكن لحظات ذلك الإلهام كانت لا تطول. ثم تصاب مخيلته بنوبة ركود أو استرخاء، فيحاول أن يوقظ قابليته الهامدة برسم تخطيطي على هامش الكراسة. ومعظم هذه الرسوم التلقائية كانت تمثل مفارق الطرق.

ومن العجيب أن جميع مقالات يوري وأشعاره في تلك الفترة كانت تنصب كلها على موضوع واحد هو المدينة.

وهذه بعض النبذ التي وجدت، فيما بعد، بين أوراقه من مخلفات تلك الفترة.

"حينما عدت إلى موسكو سنة ١٩٢٢ رأيتها وقد هجرها أهلوها وتحول معظم أبنيتها إلى خرائب. أنها تحمل آثار متاعب وآلام الأعوام الأولى بعد الثورة. لقد قل عدد سكانها كثيرا ولم يشيد فيها بناء واحد جديد. أما البيوت القديمة فقد أصبحت نهبا للإهمال. ومع هذا فموسكو لم تزل مدينة عصرية كبيرة. والمدن هي الينبوع الوحيد لوحي الفن الحديث.

"إن البساطة الريفية لم يعد لها محل في الآثار الفنية الحديثة. وكل إبراز لها في الفن إنما هو تزييف. فالإحساس الريفي قد انتهى عصره. وكل محاولة لتقليد البساطة الريفية إنما هي خدعة تعتمد على الإنشاء والتكلف. فروح عصرنا الحديث لا تعرف إلا لغة واحدة هي لغة المدينة.

"أن الضجيج الدائم الذي لا ينقطع ليلا ونهارا في شوارع المدينة لازمة من لوازم الروح العصرية. فكأن هذا الضجيج المقاطع الأولى من افتتاحيات الأوبرا التي تؤذن بقرب ارتفاع الستار".

***

وفي صباح يوم من أخريات أيام شهر أغسطس ركب يوري السيارة العامة متجها لأول مرة إلى مقر عمله في المستشفى. وكان قد ذهب إليه قبل ذلك مرة أو مرتين لاستفسارات تتعلق بعمله الجديد. ولسوء حظه كانت هذه السيارة العامة تتعثر في سيرها وتقف بين الحين والحين. وكانت هذه السيارة سببا في تعطيل المواصلات ومضايقة الناس، أما يوري فظل جالسا على مقعد منعزل في الجهة اليسرى وراح يحدق في المارة ويرسم لنفسه صورا خيالية لحياتهم وتشابكها.

واستأنفت السيارة العامة سيرها ثم بدأت تصعد تلا. فشق عليها الصعود وتوقفت في منتصف الطريق. وزاد الأمر تعقيدا أن المطر بدأ ينهمر قطرات كبيرة. وفي هذه اللحظة أحسن الدكتور بغثيان وضيق في التنفس. فتحامل على نفسه ووقف ليفتح النافذة فلم يستطع. وصاح الناس من حوله ينبهونه إلى أن النافذة مغلقة بالمسامير. ولكنه في كفاحه ضد نوبته التي بدأت تشتد عليه لم يتبين معاني كلماتهم واستمر يحاول فتح النافذة. ثم اشتد عليه الألم بصورة لم يعهدها من قبل. فأدرك أن شيئا بداخله قد انفجر. وأن نهايته قد حانت. فجمع إرادته في استماتة واندفع يزيح الناس من أمامه إلى مؤخرة السيارة حيث مكان الوقوف وحيث الباب، فجعل الناس يحدقون فيه متعجبين. وأحس هو أن الهواء الطلق الذي دخل رئتيه قد أنعشه. فظن أن كل شيء على ما يرام. ثم جعل يدفع الناس الواقفين أمامه غير مبال بالسباب والسخط إلى أن نزل من السيارة المعطلة. وما أن مشى خطوتين حتى انكفأ على رصيف الشارع ولم يستطع النهوض.

وعلى الفور قفز بعض من كانوا في السيارة وقد علت ضجتهم وجعلوا يجسونه. وسرعان ما اكتشفوا أنه جثة هامدة لا يتردد فيها نفس ولا ينبض قلب.

وتضخمت الحلقة التي تحيط بالجثة وكبر عددها. ومعظم القادمين كان الفضول يرتسم على وجوههم من غير تأثر. واقترح بعضهم نقل الجثة إلى السيارة العامة كي توصلها إلى المستشفى. واقترح آخرون تبليغ الشرطة.

***

ومن باب الحجرة المفتوح كان الناظر يرى مكتبا صغيرا في ركنها يعلوه تابوت قد اتجهت قدماه إلى ناحية الباب.

وعلى هذا المكتب عينه كان يوري يقضي معظم ساعات أيامه الأخيرة مسجلا سوانحه. تلك السوانح التي محيت جميع كراساتها من فوق المكتب ووضعت في الأدراج كي تفسح المجال للتابوت الكئيب.

وكانت الجثة محاطة بباقات كبيرة من زهور الزنبق البيضاء التي يندر وجودها في ذلك الوقت من العام. وكانت هناك سلال أخر من زهور مختلفة الألوان بلغ من كثرتها أنها حجبت الضوء الذي أخذ يدخل من النافذة فيتسلل من بين البراعم ليسقط على وجه الطبيب الفنان الذي يحاكي في شحوبه لون الثلج.

وكان الاتجاه الجديد إلى حرق الموتى قد بدأ ينتشر. ولما كان التغاضي عن الجناز الديني والطقوس الكنسية للدفن أمرا مستحسنا كي يسهل الحصول على إعانة للبنتين، وحتى لا يتعرض مركز مارينا في مصلحة التلغرافات للاضطهاد، فقد رئي الالتجاء إلى السلطات السوفييتية لتتولى إحراق الجثة حسب النظام التقدمي. وكل شيء الآن في انتظار وصول ممثل السلطات الموكل بهذا العمل.

ولم يكن الصمت سائدا تماما في حجرة الميت. لأن وقع أقدام القادمين لاستئجار الحجرة لم ينقطع. وكذلك وقع أقدام المعزين. بيد أن المعزين كانت أقدامهم بطيئة. وأما الراغبون في استئجار الحجرة فكانوا يتحركون بنشاط ورهبة.

لم يكن عدد المعزين الوافدين لتحية الجثمان قليلا. فإن أشعار يوري ومؤلفاته العلمية المبسطة جعلت له مكانة محترمة وكونت مجموعة من الأصدقاء المجهولين أحبوه عن بعد ولم يروه قط. فلما سمعوا نعيه حضروا كلهم ليلقوا على الأستاذ النظرة الأولى والأخيرة.

لقد كان هذا الإجلال النزيه، وباقات الزهر الكثيرة خير عوض عن الطقوس والبخور والأدعية والشموع.

ومنذ نقل الجثمان إلى تلك الحجرة والحركة دائبة في البيت. وكانت مارينا أول من حضر فارتمت على الأرض وقد أطاشت الصدمة المروعة بعقلها وجعلت تدق بيديها على غطاء التابوت وتصيح بهم أن يفتحوه لترى الحبيب، ودموعها تنهمر من عينيها كالشلال الدافق وصوتها العريض القوي يهز القلوب بتلك الصرخات التي ارتدت وراء التعبير اللغوي للتعبير عن الألم بالصيحة الحزينة والنشيج المختنق. ثم تندفع في أعوال ومراث كالتي تعود أبناء الريف أن ينوحوا بها على الأحبة الراحلين. ولم تكن تعي للغرباء وجودا حتى تحتشم أو ترعوي.

ولما كشفوا الغطاء عن الصندوق التصقت بالجثة فوجدوا عناء شديدا في التفريق بينهما.

كل ذلك حدث في اليوم السابق. أما اليوم فقد أنهدت قواها فلم تستطع أن ترفع عقيرتها بالبكاء، فكأنها في شبه غيبوبة من الأسى، وهي جالسة في هدوء وصمت.

أنها لم تفارق هذه الغرفة منذ نهار أمس. وقد أحضروا لها الطفلة كي ترضعها. وحضرت الابنة الكبرى مع المربية برهة ثم انصرفت. وكان الصديقان جوردون ودودوروف لا يفارقانها وقد أذهلهما الحزن كذلك. أما والدها ماركل فكان يبكي طول الوقت بصوت مرتفع، ثم يتمخط بصوت مرتفع أيضا. وأمها وأخواتها من حولها ينحن أسفا على حظ أختهن العاثر.

ودخل رجل وامرأة لم يظهر عليهما شيء من الحزن الذي ظهر على مارينا وآلها ولكن الاثنين كانا يبديان اهتماما شديدا بالبيت، وقد أخذا على عاتقيهما اتخاذ التدابير اللازمة لتشييع الجنازة وإحراق الجثة.

وقل من بين الحاضرين والمشيعين من عرف هذين الشخصين وقل من بينهم أيضا من استطاعوا عند التخمين أن يعرفوا من هما على وجه الظن.

وبمجرد أن دخل الرجل والمرأة الجميلة الحجرة نهضت مارينا وآلها وخرجوا إلى الدهليز الخارجي وتركوا الرجل والمرأة وحدهما مع الجثة. فجلسا على كرسيين قرب الحائط، وقالت الحسناء لصاحبها:

– ماذا وراءك يا ايفكراف؟

– الليلة سيتم إحراق الجثة. ففي مدى نصف ساعة سيصل مندوبون من نقابة عمال الطب لتسلم الجثة كي ينقلوها إلى نادي النقابة. وهناك في الساعة الرابعة ستجرى جميع الطقوس الدينية. والآن سأتركك، لأن جرس التليفون يرن.

وخرج ايفكراف إلى الممر المزدحم بالمعزين المتهامسين فيما بينهم وتناول المسماع. وأخذ يتكلم بصوت مختنق ليرد على أسئلة محدثه المتعلقة بمراسم الجنازة وملابسات وفاة الدكتور. ثم عاد إلى الحجرة واستأنف كلامه مع الحسناء:

– وأرجوك يا لارا ألا تختفي بعد الانتهاء من حرق الجثة. فلابد أن أعرف أين تقيمين. وأنا بحاجة إليك كي تسدي إلي معروفا كبيرا. فإني أريد منذ الغد أو بعده أن أبدأ في حصر أوراق أخي وترتيبها. وما من أحد يمكن أن ينجز ذلك العمل خيرا منك. فأنت تعرفين عنه الكثير، بل لعلك أعرف بني آدم به وبدخائله. لقد قلت لي أنك وصلت من اركوتسك في سيبيريا منذ يومين فقط. وأنك لا تنوين الإقامة طويلا. وأنك أتيت إلى هذا المسكن وأنت لا تعرفين أن أخي يقيم فيه وأن حضورك كان لأسباب أخرى، وهذا كله كلام غير واضح في ذهني ومع ذلك أرجوك ألا تبتعدي أو تختفي من غير أن تتركي لي عنوانك. وقد يكون من الأفضل أن نقضي الأيام القليلة القادمة في غرفتين بهذا البيت كي نعكف على إنجاز تجهيز مخطوطاته للنشر في أقرب وقت مستطاع.

– لماذا تقول أن كلامي غير واضح؟ وما وجه الغموض فيه؟ لقد وصلت إلى موسكو فتركت حقائبي أمانة في المحطة وسرت في شوارع موسكو القديمة فإذا

بمعظمها وقد تهدم فلم استطع التعرف عليه لتقادم العهد. وظللت أمشي من شارع مجهول إلى شارع آخر مجهول حتى وجدت أخيرا شارعا معروفا عندي هو شارع كامرجر. هذا الشارع نفسه، فقد كان زوجي باشا أنتيبوف– الذي قتل– يسكن وهو تلميذ هذه الغرفة بالذات التي نوجد فيها الآن أنت وأنا ويوري وعن لخاطري أن أدخل العمارة لعل بعض السكان القدماء لا يزالون قاطنين هنا. ولكن تبين لي أنه ما من أحد منهم له أثر. فلما صعدت إلى هذا الطابق أدهشني أن أرى الباب مفتوحا وأرى ضجة كبيرة وتابوتا مسجي فوق مكتب. هذا رجل ميت إذن! وتساءلت من هو، فدخلت بدافع الفضول وألقيت نظرة، فكدت أفقد عقلي وكنت أنت حاضرا فرأيتني.

– عفوك. لقد قلت الآن أن باشا أنتيبوف قتل. ولكني أعرفه جيدا. لقد أصبح فيما بعد قائدا وسياسيا معروفا باسم سترلينكوف. وكنت معجبا به جدا. وأنا واثق أنه لم يقتل، بل انتحر.

فقالت لارا بإصرار:

– سمعت هذه الإشاعة. ولكني رفضت تصديقها. فما كان باشا بالرجل الذي يقدم على الانتحار!

– على رسلك يا لارا. ولكني واثق أن أنتيبوف انتحر. أخي أكد لي ذلك. قال أنه حضر بعد سفرك بقليل إلى البيت الذي كنتما تعيشان فيه في فاريكينو. ولما وجدك رحلت انتحر. وقد عثر أخي على الجثة ودفنها.

– هل انتحر حقا؟ طالما قال لي الناس ذلك ولكني لم أصدق! أن هذه التفاصيل ذات أهمية عظمى في نظري.

ورسمت علامة الصليب على وجهها وازدردت ريقها، ثم قالت له:

– ما أعجب تصاريف القدر! ولكني أحب أن أعرف مزيدا من المعلومات عن ظروف انتحاره. ولكن الوقت الآن غير مناسب لذلك طبعا فأرجو أن تسمح لي في فرصة أخرى بمزيد من الاستفسار في هذا الشأن.

– بكل سرور.

– آه! لقد طلبت مني أن أعدك بعدم الرحيل أو الاختفاء قبل أن نرتب أوراق أخيك. وأني أعدك بهذا. فكم يسعدني ويسري عني أن أراجع مرة أخرى مخطوطات ومخلفات يوري العزيز. فليس مثلي من يعرف دقائق خطة ومصطلحاته! لقد تسربت معرفته إلى دمي. ثم أني سأكون بحاجة إلى معونتك أيضا في أمر خطر للغاية. أن المسألة تتعلق بطفل مسكين. ولكن يجب أن ترجئ هذا الموضوع إلى ما بعد العودة من المحرقة. ما أنكد حياتي! ولكن لماذا لا آتى وأسكن هذه الحجرة مع عزيزتي كاتنكا. أنها ذات موهبة خارقة في الموسيقى والتمثيل وليتها تلتحق بمعهد للتمثيل أو للموسيقى. وهذا بالضبط من أهم أسباب حضوري إلى موسكو. ولكننا سنتحدث عن هذا أيضا فيما بعد... فإني أسمع لغطا عند الباب ولعل المختصين حضروا لأخذ الجثة فمن المستحسن أن تفتح الباب وتدعهم يدخلون.

وقام ايفكراف وفتح الباب. ولكن لارا كانت قد ألصقت شفتيها بوجنة يوري وذهبت في شبه غيبوبة حزينة.

لقد فقدت الجميع، أحبت اثنين مات أحدهما وانتحر الآخر. ولن يبقى حيا إلا ذلك الذي حاولت أن تقتله بالرصاص فأخطأته وعاش ليتم تشويه حياتها.

وحز في نفسها جدا ألا يقام له قداس في الكنيسة. فإن طقوس الجنازة الدينية فخمة ذات أبهة ورواء! فخامتها لا يستحقها الكثيرون من الموتى. أما يوري فما أجدره بكل جليل مهيب!!

لقد هزتها شهقاتها المكبوتة، لأنها قاومت دموعها، وبذلت في ذلك جهدا فوق طاقتها. إلا أن الصدمة كانت أقوى مما تحتمل أعصابها، فانهمرت عبراتها، وبللت وجنتيها وثوبها، والتابوت الذي ألتصقت به.

أعياها الكلام فلم تنبس ببنت شفة، ولكن سيلا من الأفكار والرؤى والحقائق والنظرات والذكريات، تتابع أمام ذهنها، وزحمه، وكم حدث ذلك مرارا لها من قبل خلال أحاديثهما في سكون الليل. كانت فيما مضى تشيع في نفسها السعادة، فقد كانت انسجاما وتفاهما، وعواطف حارة نابعة من القلب.

لقد عرفت الآن، أنها المعرفة الغامضة بالموت، التهيؤ للنهاية، تهيؤ يحو كل شعور بالقنوط في حضرته. لكأنها عاشت عشرين حياة، الحياة تلو الأخرى، وفقدت يوري مرات لا تعد، وتجمع في نفسها من هذه الخلجات القلبية ما جعل كل ما تحسه الآن بجانب هذا التابوت صحيحا.

لقد كان حبهما فريدا، لا مثيل له، فكانت مشاعرهما أشبه ما تكون بأنشودة ملائكية.

لقد تحابا حبا لا تنفصم عراه، لا حب مصلحة، ولا بدافع الغريزة. لقد كان حبهما ساميا فوق مستوى الماديات، وكانا يشعران أنهما ليسا وحدهما اللذين ينتشيان بذلك الحب، بل أنه كان يضفي السعادة على ما يحيط بهما أو يتصل بحياتهما. وقد أحسا أن ذلك الحب عنصر من عناصر جمال الكون كله، كان اندماجهما في بعضهما بمثابة نسمة الحياة لهما.

والآن، وهي تراه مسجي أمامها، تودعه وتبكيه، وترثيه بكلمات تخرج من أعماقها، يدفعها الحزن والأسى، مبللة بدموع قلبها. وكانت عبراتها أصدق تعبير لمشاعرها، وكأنها كلمات تنبعث في همس رقيق هو أشبه بحفيف أوراق الأشجار، وهي تقول:

حبيبي يورتسكا، ما هي ذي الأقدار تجمعنا مرة ثانية.. يا لسخرية القدر! لقد تخير لنا أقسى طريقة جمع فيها بيننا. هل هناك ما هو أفظع من هذا اللقاء..؟! أنني لأ أحتمل.. وليس باستطاعتي أن أكف عن النحيب. وهذا الذي أراه أمامي الآن إن هو إلا أحدى حلقات حياتنا، ولكنه الحلقة الأخيرة تتلخص في كلمتين: ذهابك.. ونهايتي.. ولكنه أمر فوق طاقة البشر، لا رجعة له. أحجية الحياة والموت، وسحر العبقرية والجمال الرباني، كنا نستمتع بها، ضاربين صفحا عن هموم الحياة الصغيرة.. وداعا يا معبودي العظيم يا قريني بالروح... وداعا يا من رفعتني بحبك إلى ذروة المجد والعزة... وداعا أيها النهر العميق المتدفق حيوية، كم أحببت هديرك، وكم أحببت أن أغوص في أمواجك... هل تذكر لحظة فراقنا؟ وكيف انهارت أعصابي، لأنك تخلفت وتركتني أذهب بدونك... أعرف أن ذلك لم يكن عن رضا من نفسك، بل أنك ضحيت في سبيل ذلك، ظنا منك أنه من أجل إسعادي... ولكن تهدم كل شيء في حياتي. ويعلم الله كم قاسيت، وكم تعذبت، ولكن أني لك أن تعرف! آه... ماذا جنيت يا يورا؟ أنني مجرمة.. أنك لا تدري، ولكن الذنب ليس ذنبي، قضيت ثلاثة أشهر بالمستشفى، وشهرا رابعا وأنا فاقدة الوعي. وعند ذلك أضحت حياتي سعيرا وعذابا.. إن روحي ثائرة لا تعرف السلام. يكاد الندم المسموم والألم المضني يفتكان بي. أنني أخفيت عنك أهم أمر، أنني لا أقوى على البوح به، وفي كل مرة أستعيد فيها هذه الذكرى يفترسني الرعب. لعلي لست مالكة لقواي العقلية".

وراحت لارا تهذي وتنتحب في لوعة وأسى. ودون وعي منها، رفعت عينيها في دهشة، وأجالت النظر فيما حولها، فرأت الرجال وقد دخلوا الحجرة، وانهمكوا في عملهم، فابتعدت عن التابوت، وقد غطت عينيها بيديها، لتمسح دموعها.

وحمل الرجال التابوت، وابتدأ سير الجنازة.

***

مكثت لارا بضعة أيام في شارع كامرجر، وأخذت تعاون ايفكراف في جميع مخطوطات زيفاجو، وأخذت تتحدث إلى ايفكراف في أمور كثيرة، وأخبرته بحادث هام.

وخرجت لارا ذات يوم، ولم تعد. ولعلها اعتقلت أثناء سيرها في أحد الشوارع. فقد اختفت ولم تترك وراءها أي أثر، ترى هل ماتت في أحد معسكرات الاعتقال في الشمال؟!

الفصل الخامس عشر

ما بعد النهاية

تم اقتحام كورسك وتحرير أوريل في صيف عام ١٩٤٣، وكان المقدم دودوروف، والملازم جوردون، الذي رقى حديثا إلى هذه الرتبة، عائدين من موسكو، وكان دودوروف في أجازة لمدة ثلاثة أيام، كما كان جوردون يقوم بمهمة عسكرية.

وعندما تقابل الاثنان وهما عائدان، أمضيا الليل في تلك المدينة الصغيرة تشيرن، وكان نصيبها من التدمير أخف بكثير من المدن الأخرى في تلك المنطقة التي اكتسحها العدو وأعمل فيها التخريب والتدمير أثناء انسحابه.

وباتا ليلتهما عند مستودع لم يتهدم، بين أكوام من القرميد والحجارة المفتتة التي تخلفت عن تدمير مدينة. على أن النعاس جفاهما، فقطعا الليل في الثرثرة. وأخيرا تغلب النوم على دودوروف، في الهزيع الأخير من الليل، ولكنه ما لبث أن استيقظ في الساعة الثالثة صباحا والشمس لا تزال في خدرها بسبب الضجة التي أحدثها جوردون، إذ كان يأتي بحركات عجيبة، يتدحرج ويتقلب في الشوفان النضر، كي يجمع ثيابه ويحزمها، ثم هبط عن الشوفان واتجه نحو باب المستودع، فسأله دودوروف في استياء:

– إلى أين يا صاحبي؟ لا يزال الوقت مبكرا!

– أريد أن أغسل ثيابي في النهر.

– وما الداعي؟ أننا سنلحق بفرقتنا في هذا المساء، وستريحك الغسالة من هذا العناء وتبدل لك ثيابك، لماذا تتعجل الأمور؟

– لقد تشربت ملابس الداخلية بالعرق من فرط التعب وشدة الحر، ويجب أن أغسلها فورا وبسرعة، وستجففها الشمس بسرعة أيضا، فأستطيع أن استحم وألبسها نظيفة.

– وهل يليق بك، وأنت ضابط، أن تفعل ذلك؟

– الناس نائمون، وسأتوارى، ولن يراني أحد. الأفضل لك أن تنام بدلا من هذه الثرثرة.

– لن يعاودني النوم، ولذلك سأرافقك.

واتخذا طريقهما إلى النهر، في محاذاة أنقاض الأحجار الدافئة، رغم أن الوقت لا يزال مبكرا. وصادفهما في الطريق أناس تمددوا وسط الشوارع تلفحهم أشعة الشمس، واحتقنت وجوههم وتصببت عرقا. وكانوا مجموعة من الرجال والنساء والأطفال، تهدمت منازلهم، بينهم بعض الجنود المحالين على الاستيداع. وقد سار جوردون ودودوروف في حذر شديد بين النائمين، حتى لا تصطدم أقدامهما بهم. وقال جوردون بصوت هامس:

– اخفض صوتك، وإلا فسيستيقظون، فلا أتمكن من غسل ثيابي.

ثم تابعا بصوت هامس حديث ليلتهما السابقة.

– أتعرف اسم هذا النهر؟

– لا. لعله نهر زوشا.

– أؤكد لك أنه ليس نهر زوشا.

– أصارحك أنني لا أعرفه اسمه.

– لقد وقع حادث كريستينا على نهر زوشا.

– صحيح، في أسفل النهر. قيل أن الكنيسة أظهرت قداستها.

– كان هناك بناء حجري اسمه الإسطبل.. اسطبل سوفخوز، وقد أصبح اسما تاريخيا. وكان الإسطبل عريقا في القدم ذا جدران ضخمة سميكة، قام الألمان بتحصينه فجعلوا منه، حصنا منيعا. وكانت المنطقة مكشوفة لهم، على مرمى نيرانهم، مما عاق هجومنا. فكان لزاما علينا أن نستولي على ذلك الإسطبل، وأبدت كريستينا من المهارة والشجاعة، ما أخذ بمجامع القلوب، كي تقتحم المتاريس لتنسفه، ولكن الألمان اعتقلوها ثم شنقوها.

– لماذا تدعوها كريستينا أورليستوفا، ولا تدعوها دودوروفا؟!

– لأننا لم نكن قد تزوجنا بعد. فقد تواعدنا في صيف عام ١٩٤١ على الزواج بعد أن تضع الحرب أوزارها. ولكنني اضطررت إلى التنقل مع فلول الجيش، وتعدد نقلي. ففقدتها ولم أرها بعد ذلك قط. أما معجزتها وموتها موت الأبطال، فقد سمعت بهما، شأني في ذلك شأن سائر الناس، من الصحف، وأوسمة الجيش التي قلدوها إياها بعد استشهادها وأغلب الظن أنه سيقام لها نصب في المنطقة. فقد وصل إلى علمي أن الجنرال زيفاجو شقيق يوري اندريفتش، يطوف بهذه الأماكن ليجمع كل ما يتصل بها من معلومات.

– معذرة أيها الصديق إذ استدرجتك إلى الحديث عنها فلا بد أن ذلك يبعث في نفسك الأسى والشجن.

– خل عنك، أننا نتحدث. ألق عنك ثيابك، وانزل إلى الماء، لتفعل ما جئت من أجله. أما أنا فسأتمدد على الشاطئ، وقد تأخذني غفوة... وأحلم.

ومضت فترة قصيرة، ثم استأنفا الحديث:

– أنك تتقن الغسيل! كيف تعلمت ذلك؟

– الحاجة أم الاختراع. ومن تضطره الظروف إلى أمر ما يبذل جهودا ويتعلم كثيرا لكي يحصل على مبتغاه. لم نكن من المحظوظين، فقد صادفتنا أشنع المخيمات التأديبية، وقد فنى فيها الكثير. فمنذ أن وصلنا، تخرج الفرقة إلى مسطح من الثلج، وقد تأبط الحراس بنادقهم، تتبعهم الكلاب البوليسية، ثم يؤتي بفرقة أخرى، ونقف على امتداد الحقل على شكل دائرة كبيرة، ظهورنا إلى الداخل، حتى لا يرى أحدنا الآخر. وتصدر لنا الأوامر أن نجثو على ركبنا، ومن يحاول الالتفات إلى غيره إصابة عقاب صارم. وعندئذ تبدأ إجراءات التفتيش المذلة التي تستغرق ساعات طويلة، ونحن راكعون. وتصدر الأوامر لنا بالوقوف، وتذهب الفرق الأخرى إلى مكان آخر. أما نحن فنجدهم يوغلون في إيلامنا، إذ يأمروننا:

"هذا مخيمكم! أمرحوا فيه كما تشاءون... وسط صحراء من الثلج، ينتصب في وسطه عمود كبير، يحمل لافتة مؤداها "قيادة المخيمات الرئيسية" أليس ذلك فظيعا؟!".

– لقد قاسيتم أكثر منا، ولذا نعتبر أنفسنا أوفر منكم حظا، لأن أوضاعنا تختلف عن ذلك. إذ أن اعتباري أعيد إلى حين سرحت، فاستطعت أن استأنف دراستي، فلما نشبت الحرب واشتد أوارها، استدعيت برتبة مقدم، ولم التحق بسرية التأديب مثلك.

– نعم. لم نر أمامنا إلا ذلك العمود ذا اللافتة، فكنا حين يشتد الصقيع، نضطر إلى تكسير الأغصان بأيدينا لكي نقيم أكواخا. قد يبدو ذلك غريبا في نظرك، ولكننا، شيئا فشيئا، أقمنا كل شيء بأنفسنا، فكنا نبني الغرف والأسوار والسجون وأبراج المراقبة من أغصان الأشجار. وبعد ذلك أخذنا نستثمر الغابة، فكنا ننقل الأخشاب الضخمة على عربات يجر كل عربة منها عدد من الجياد،

وكان الثلج يغمرنا حتى الصدور. وقضينا على هذا الحال وقتا طويلا حتى عرفنا أن الحرب قد اندلعت. ولم نخبر بذلك بادئ الأمر. وفي أحد الأيام جمعنا وأنهى إلى مسامعنا أن المتطوعين في السرايا التأديبية سيسرحون إذا نجوا من المعارك. وحدث بعد ذلك ما حدث، ويا لهول ما حدث، هجوم مستمر وأمامنا أميال من الأسلاك المكهربة والألغام والمدافع، وانقضت شهور تتلوها شهور، ونحن في عاصفة من النار. فكنا كمن صدر عليهم حكم الإعدام، فكان الموت يحصدنا عن آخرنا. ولا تسلني كيف نجوت، كيف استطعت النجاة؟! وهل تتصور ذلك، أن هذا الجحيم الدامي يعتبر جنة إذا قورن بالأهوال في معسكرات التجنيد. لم تكن المسألة مسألة الاضطرار وقسوة الظروف، بل كانت هناك أسباب أخرى.

– لقد وفيت حقك يا صديقي.

– لا يدهشنك إذن أن تراني أجيد الغسيل، فأي شيء لا يتعلمه الإنسان في حياة كهذه؟!

– لقد جاءت الحرب فقلبت كل شيء وأثرت في حياتنا، وكأنها رسول الخلاص للأفكار وجميع مجالات الحياة. فقد وضعت حدا لتسلط الأوهام الاعتقادية على عقول الناس. ولم يفرح بها المتهمون من أمثالك وحدهم لأنها زادت من حريتهم، بل شعر الجميع في الجبهة والمؤخرة على السواد بسعادة غامرة وهم يخوضون ذلك القتال الرهيب الذي يستخلص الحياة من براثن الموت.

– لقد بدأت الآن النتائج البعيدة للحرب تظهر للعيان. فكوارث الحرب التي هزت أساس الأخلاق زودت الجيل الجديد بالصلابة وروح المغامرة والجلد والحماسة. ولهذا تجدني سعيدا على الرغم من استشهاد كريستينا، وعلى الرغم مما أصابني من جراح وخسائر. وبالرغم من الأثر المدمر الدامي الذي يصحب الحروب عادة. ولا شك أن الذي أعانني على تحمل الألم الذي سببه لي موت كريستينا، هو

مجد التضحية الذي يضيء لنا حياتنا جميعا كما أضاء نهاية حياتها، وكانت كريستينا طالبة في كلية التاريخ حينما كنت رئيسا للقسم الذي اختارته، فاسترعى انتباهي نبوغها الباكر. وقد تحدثت معك في ذلك حينما كان يوري على قيد الحياة. وفي هذه الفترة بالذات كانت هي بين تلاميذي. وكانت قد تفشت عادة نقد الطلاب لأساتذتهم بعنف وشدة. فكانت كريستينا تبدي في نقدها لي عداء شديدا ونقمة لا يعرف أحد دوافعها، حتى أن أخواتها الطلبة كانوا يستاءون لموقفها وينحازون غالبا لرأيي! وكانت كريستينا صاحبة فكاهة لاذعة وبديهة ساخرة. فكانت تهاجمني بجريدة الحائط في الكلية وترمز إلي باسم مستعار يعرف الجميع أنه ينطبق علي، ثم فجأة تكشفت لي الحقيقة الرائعة، وعرفت أن هذا العداء اللدود كان ستارا تخفي تحته حبا متأججا لي. وكانت عواطفي نحوها شبيهة بعواطفها نحوي. وقبيل إعلان الحرب سنة ١٩٤١، ثم في خلال شهورها الأولى عندما كنت مع فرقتي قرب موسكو، حضرت كريستينا مع جماعة من الطلبة والطالبات لتمضية العطلة هناك في الثقافة العسكرية العملية. وقد أبدت بسالة عظيمة في التمرين على الهبوط بالمظلات وفي الدفاع المدني ضد الطائرات المغيرة ليلا. وفي ظل هذه الأعمال البطولية عقدنا خطبتنا. ثم انتقلت فرقتي فلم أرها بعد ذلك. وبعد تحسن الموقف الحربي حولوني إلى الأعمال المكتبية في القيادة لحاجتهم إلى شخص يجيد اللغات الأجنبية. وهناك وجدتك أنت أيضا.

***

وبعد هذا الحديث الذي جرى بين جوردون ودودوروف وصل الاثنان إلى قرية كراتشيف التي كانت قد زالت من الوجود تماما، وكان الاثنان يقتفيان آثار فرقتهما، فالتقيا في تلك القرية ببعض جنود المؤخرة زاحفين سيرا على الأقدام.

وكان حرارة الصيف شديدة، حتى أن التربة السوداء الخصبة تحولت إلى لون بني هو أشبه بلون الشيكولاتة. والشارع الرئيسي في القرية مستقيم يتصل في

النهاية بالطريق الخلوي العام، وكانت المنازل على أحد جانبي الشارع قد نسفت، وانتشرت حولها بقايا الأشجار المحطمة أو المتفحمة التي كانت من قبل بساتين فيحاء تحيط بتلك البيوت. أما على الجانب الآخر من الشارع فأرض لم تصبها يد الدمار، لأنها لم تكن من قبل معمورة حتى تدمر.

وفي الجانب الذي كان معمورا كان بعضا لسكان يقلبون الأنقاض ويبحثون في الرماد الذي لم يزل يتصاعد منه الدخان، وكأنهم يبحثون عن شيء ضائع. وكان هناك سكان آخرون يحفرون في الأرض خنادق كي يأووا إليها عوضا عن البيوت، ويبحثون عن أغصان ليجعلوها لتلك الخنادق عروشا.

وفي الجانب المقفر انتشرت الخيام وسيارات النقل وناقلات الخيل وسيارات الإسعاف، وكل ذلك مخرب معطل. وفي ظلال تلك المعدات رقدت حفنة من الجنود التابعين لفرق الإمدادات وقد أنهكهم الهزال وأتت على قواهم الديزونطاريا. فاختلسوا ساعة من نوم قبل أن يستأنفوا مسيرهم إلى جهة الغرب.

وكانت هناك سحب من الدخان والغبار تتصاعد إلى عنان السماء من آثار الانفجارات المتخلفة. أما في اتجاه السهول فكان هناك مرعى تحيط به الأشجار العتيقة الظليلة وتعزله عن العالم كأنه واحة في وسط ذلك الدمار. وفي هذا المرج كانت الغسالة تانيا في انتظار سيارة النقل التي يجب أن تحملها مع معداتها. وكان معها ثلاثة من جنود الفرقة أرادوا أن يستفيدوا من هذه الفرصة. وكان هناك أيضا جوردون ودودوروف. وكانت تانيا لا تفارق المعدات الموكولة إليها ولا تبتعد عنها خطوة واحدة. والجنود أيضا لا يبتعدون حتى لا تفوتهم فرصة السفر بالسيارة، مع أن انتظارهم طال أكثر من خمس ساعات. وليس أمامهم ما يتسلون بعمله سوى الإصغاء إلى تانيا التي كانت لا تكف عن الثرثرة. فهي محبة للكلام والهذر، تخوض في جميع الموضوعات وقد روت لهم فيما روت مقابلتها مع الجنرال زيفاجو.

– بالأمس فقط تمت هذه المقابلة. قالوا لي يا تانيا الجنرال يريد أن يراك. فقلت وأنا أريد أن أرى الجنرال. فأخذوني إليه رأسا. ودخلت إلى الجنرال زيفاجو. وكانت المقابلة بخصوص موضوع كريستينا. وكان يسأل بنفسه شهود الرؤية الذين عرفوها شخصيا. وكانوا قد ذكروا له اسمي وقالوا أنني كنت زميلتها في الدراسة لذلك أمر باستدعائي. فهل تعتقدون أنني شعرت بالرهبة من مقابلته؟ أبدا! فهو رجل مثل سائر الرجال. أسود الشعر له عينان نفاذتان. وذكرت له جميع معلوماتي عن كريستينا. فأصغى باهتمام شديد لكل ما قلت، ثم قال: "وأنت يا صغيرتي من أنت ومن أين؟" فلم أقل له شيئا. وماذا عساي أن أقول؟ أني طفلة لا تعرف أبوبها. ومن أين تأتي مثيلاتي إلا من ملاجئ الأيتام واللقطاء. ولما رأى ارتباكي لم يلح علي في السؤال، وقال لي: "لماذا يحمر وجهك؟ ليس هناك شيء يدعو للخجل". فازداد وجهي احمرارا وأفهمته ظروفي بكلمات مقتضبة. وعندئذ أخذ يتمشى في الحجرة وهو يربت على خدي، وقال لي: "فهمت كل شيء لا تقلقي. سأنظر في أمرك فيما بعد. وربما وجدت نفسك فجأة في نظر الناس كلهم بنت أخ الجنرال. وعندئذ لابد أن اهتم بدراستك العالية" هذا ما حدث أيها الرفاق. وأقسم لكم أنه الصدق الصراح وليس فيه كلمة واحدة من نسج الخيال.

وفي هذه اللحظة وصلت إلى المكان سيارة نقل كبيرة مما يستخدم في بولندة لنقل المحصولات. ونزل السائق وحاول الجنود إقناعه بنقلهم، ولكنه قال أن الأوامر التي لديه لا تسمح بذلك ونزل من السيارة، ثم اختفى بين الأشجار. فجلسوا كلهم في السيارة، وقال جوردون لتانيا:

– قصي علينا قصة حياتك كما رويتها للجنرال، فكلنا يريد أن يعرف من أنت؟

فضحكت تانيا وظهرت التجاعيد حول أنفها الأفطس، وقالت:

– وما المانع؟

ثم بدأت تقص عليهم تاريخ حياتها العجيب.

"أن قصة حياتي حافلة بالمغامرات. ويشاع أن الأسرة التي انحدر منها ليست حقيرة. وقد سمعت أن والدتي رئيسا كوماروفا كانت زوجة الوزير كوماروفا الذي هرب إلى منغوليا. ولكني أعتقد أن كوماروفا لم يكن أبي حقا، ولكن ليس هذا هو المهم. المهم أن الجيش الأحمر عندما زحف على كروشيتسكي في أقصى الشرق من سيبيريا قرب بلاد الصين، أمر كوماروفا بترحيل جميع العائلات في قطار خاص، ومن بينهم أمي. وكانت أمي قد ولدتني في فترة انفصالها الطويل عنه، فهو لا يعلم بوجودي، وكانت تفزع من أن يكتشف زوجها أمري. ولذلك أرسلت أمي في الحال قبل رحيلها إلى فلاحة كانت تورد اللبن للبيت واسمها مارفا. فأودعتني بين يديها. ومن ذلك اليوم عرفت المذلة والقسوة مع أن الخالة مارفا تقاضت مبلغا ضخما نظير عنايتها بي. ولكن يا لها من عناية! لقد فكرت في أن أشنق نفسي وأنا طفلة. كدت أجن.

"ولم تكن الخالة مارفا فقيرة. فعندها مزرعة وبقرة وحصان ودواجن وحقل واسع لزراعة الخضروات. وكان بيتها بجوار المحطة، وكان زوجها عامل التحويلة فيها، واسمه العم فاسيلي، وكنت أناديه يا أبي. ومع أنه كان سكيرا، إلا أنه كان رجلا لطيفا مرحا. ومتى سكر يتحدث في كل شيء فكان جميع أهالي المنطقة يعرفون حقيقة أمري من فمه ومع ذلك كنت أحبه. أما مارفا فلم تطاوعني نفسي على أن أناديها يا أمي. ربما لأنها فظيعة، أو لأنني لم استطع أن أنسى أمي، لهذا دائما كنت أدعوها "خالتي مارفا".

"ومرت السنوات ثم بدأت أخرج إلى المحطة وأساعد فاسيلي في عمله. كما صار في مقدوري أن أحلب البقرة وأربط الحصان. وعلمتني الخالة مارفا فن الغزل

والكنس والمسح والطهو. وتعلمت كذلك أن أعني بابنهما باتيا الضعيف الساقين، والذي كان في الثالثة من عمره ولا يستطيع أن يمشي، فكنت أحمله. وحتى اليوم ارتعد كلما تذكرت نظرات مارفا إلى ساقي القويتين في حسد وحقد!.

"ولما حدث التضخم باع فاسيلي بقرة وقبض الثمن كيسين حافلين بالنقود ثم سكر وأخبر جميع أهالي المنطقة بما أصابه من الثروة. وفي ذات يوم أبصرنا امرأة عجوزا تهبط التل والهواء يعبث بثيابها. وكانت تبكي وتمسك جنبها. وتوسلت إلينا أن نسمح لها بالدخول وهي تنتحب وتتأوه. فأسرج فاسيلي الفرس وربطها في العربة. ثم وضع العجوز بداخلها وانطلق بها إلى المستشفى الذي يبعد عن بيتنا أحد عشر ميلا. وبعد قليل نمنا أنا والخالة مارفا لأن الليل كان قد أرخى سدوله. ثم سمعنا صوت فرسنا وهي تدخل ساحة الدار في سرعة فقامت الخالة مارفا وأشعلت مصباحا، وارتدت معطفها ثم فتحت الباب دون أن تنتظر الطرق المعتاد.

"ولم تجد أمامها أبي بل رأت رجلا غريبا عبوس الوجه مخيف الشكل.

قال لها:

– أين النقود التي حصلتم عليها ثمنا للبقرة؟ أعلمي أني قتلت زوجك في الغابة. وبما أنك امرأة فلن أمسك بسوء إذا سلمتني المال. وإلا فدمك على رأسك! واسرعي! فليس عندي وقت!

"ولا حاجة بي إلى وصف الرعب الذي أصابنا لقتل العم فاسيلي أولا. وللموت الذي كنا ننتظره على يدي هذا المجرم متى استولى على المال حتى لا نشي به.

"وارتمت الخالة مارفا على الأرض تحت قدمي القاتل تستعطفه وتزعم أنها لا تعرف أين خبأ المرحوم النقود. فلم يصدقها طبعا وهددها إلى أن اعترفت له ودلته على مكان الكنز. ولكن الرجل قال لها:

– في الكهف؟ اذهبي وهاتي النقود من هناك إذن. فسواء عندي أن تصعدي إلى السطوح أو تنزلي إلى باطن الأرض، فكل ما أريده هوا لمال. وتذكري أن التلاعب لا يجوز علي.

"فقالت له مارفا:

– كنت أنزل إلى الكهف بكل سرور لولا أن الفزع خلخل ركبتي. سأقف لك على رأس السلم وفي يدي المصباح. وسأبعث ابنتي هذه معك.

"وشعرت بفزع شديد. لأني أدركت أنها ستهرب وتصيح مستغيثة فيقتلني الرجل. ولكن الرجل أنقذني بقوله:

– أتحسبينني مغفلا. أنا أعرف والجميع يعرفون أن هذه ليست ابنتك.

"وانقض على ابنها باتيا الكسيح وحمله بيد واحدة ثم فتح الكوة الحديدية التي تسد فوهة سلم الكهف باليد الأخرى. ثم نزل والطفل على كتفيه والقنديل في يده. ولكن يظهر أنها أصيبت بجنون. فما أن هبط قليلا مع باتيا حتى أغلقت الكوة، ودعتني كي أجر صندوقا ثقيلا وضعته فوق غطاء الكهف وجلست فوقه وهي في غاية السرور بما فعلت. وأخذ الرجل يدق من تحتها ويصرخ فلا نتبين ما يقول. ثم استطعنا أن نفهم ماذا يعني: إما أن نتركه يخرج وإما أن يقتل الطفل!

"وكانت قد جنت بالتأكيد لأنها كانت تعلق على ذلك بالضحك وهي تغمزني أما أنا ففزعت وجعلت أتوسل إليها أن تدعه يخرج. ثم أخذت ادفعها بكلتا يدي، ولكنها استماتت في موضعها وأبت أن تتحرك. فانتابني ذعر لا أنساه على كثرة ما رأيت من مواقف الرعب في الحياة. فإن الكسيح الصغير باتيا أخذ يصرخ ويتوجع. وستظل صرخاته ترن في أذني إلى آخر نسمة في حياتي. فقد خنقه المجرم بيديه خنقا.

"وتساءلت ماذا استطيع أن أفعل بين مجنونة وقاتل محبوس في كهف. يجب أن أفعل شيئا على كل حال، ولكني لا أدري ما هو. وفي تلك اللحظة سمعت صهيل الحصان كأنه يقول لي:

– هيا يا تانيا نذهب ونأت بمن ينقذ الموقف.

"ونظرت من النافذة فإذا الفجر قد لاحت أولى أشعته. فأسرعت لأركب العربة. وعندئذ سمعت صفير قطار قادم فأخذت الفانوس ورايات الإشارة وخرجت إلى شريط السكة الحديدية وجعلت ألوح للقطار إلى أن وقف وأطل منه السائق. وكان يعرفني، وسألني:

– ما الخبر؟

"فجعلت أصبح ليسمع رغم الرياح الشديدة وأفهمته أن لصوصا هاجموا البيت واقترفوا جريمتي قتل. وأن المجرم محبوس في الدار. وعلى الفور رأيت جنودا من الجيش الأحمر يقفزون من القطار ويسألونني عما حدث. فأعدت عليهم القول. فذهبوا معي إلى البيت وقبضوا على القاتل، وهو يصرخ فزعا ويطلب الرحمة. فلم يلتفتوا لصراخه، ولم يتقيدوا بالإجراءات القانونية بل جروه مكبلا من خلاف وألقوا به فوق القضبان وأمروا السائق فمر من فوقه!

"وزاد ذلك من فزعي فلم أعد إلى البيت لأخذ ثيابي بل تعلقت بالقطار الذي به الجنود. فأخذوني معهم. وجبت كثيرا من الأقاليم الروسية مشردة. وقد سمعت أن الخالة نقلت إلى مستشفى الأمراض العقلية وشفيت فيما بعد وخرجت من المستشفى".

***

وبعد أن فرغت تانيا الصغيرة من قصتها مشى جوردون ودودوروف وحدهما في ظل الأشجار صامتين برهة. ثم قال جوردون:

– هل عرفت من هي تانيا؟

– طبعا. فما أشبهها حين تضحك وقد أحاطت التجاعيد بأنفها الأفطس بصديقنا يوري.

– لا شك أن الجنرال ايفكراف زيفاجو سيحوطها بالرعاية الواجبة. وليست هذه أول مرة يهوى فيها المثال السامي إلى حضيض المادة. فمن قبل تقلص ظل الحضارة الإغريقية أمام حديد الرومان ونارهم. وأتت على الثقافة الروسية الرفيعة غوغاء الثورة الروسية.

***

وبعد أعوام قد تبلغ العشرة التقى في أمسية من أمسيات الصيف الصافية جوردون، ودودوروف مرة أخرى أمام شرفة تطل على موسكو، وبين أيديهما كتاب يضم آثار يوري الأدبية والعلمية التي جمعها ايفكرات. لقد قرآه كثيرا من قبل وحفظا معظم ما فيه.

أن بشائر الحرية قد بدأت تشرق على حياة الناس بعض الشيء في موسكو، وهذا يبشر بأن المستقبل سيكون أقل ظلمة وظلما. فزاد ذلك من إعزازهما للرجل الذي سطر هذه الآثار وتغني بهذه المعاني وعاش لها، ومات من غير أن يفقد إيمانه بالحرية والروح، رغم الظلمة الحالكة التي كان يعيش فيها الضمير الروسي.

الفهرس

شخصيات الرواية ٥
الفصل الأول: اكسبريس الساعة الخامسة........................ ٧
الفصل الثاني: فتاة من بيئة أخرى ١٦
الفصل الثالث: حفلة عيد الميلاد ٣٩
الفصل الرابع: تأزم الأمور ٦٠
الفصل الخامس: توديع الماضي ٨٨
الفصل السادس: في موسكو ١٠٥
الفصل السابع: رحلة ١٥٥
الفصل الثامن: نهاية الرحلة.....................................١٨٦
الفصل التاسع: فاريكينو ٢٠١
الفصل العاشر: إخوان الغابة ٢٢٥
الفصل الحادي عشر: شجرة الزيزفون ٢٤٦
الفصل الثاني عشر: أمام منزل التماثيل ٢٦٤
الفصل الثالث عشر: الرجوع إلى فاريكينو ٢٩٦
الفصل الرابع عشر: خاتمة المطاف ٣١٧
الفصل الخامس عشر: ما بعد النهاية ٣٤٧